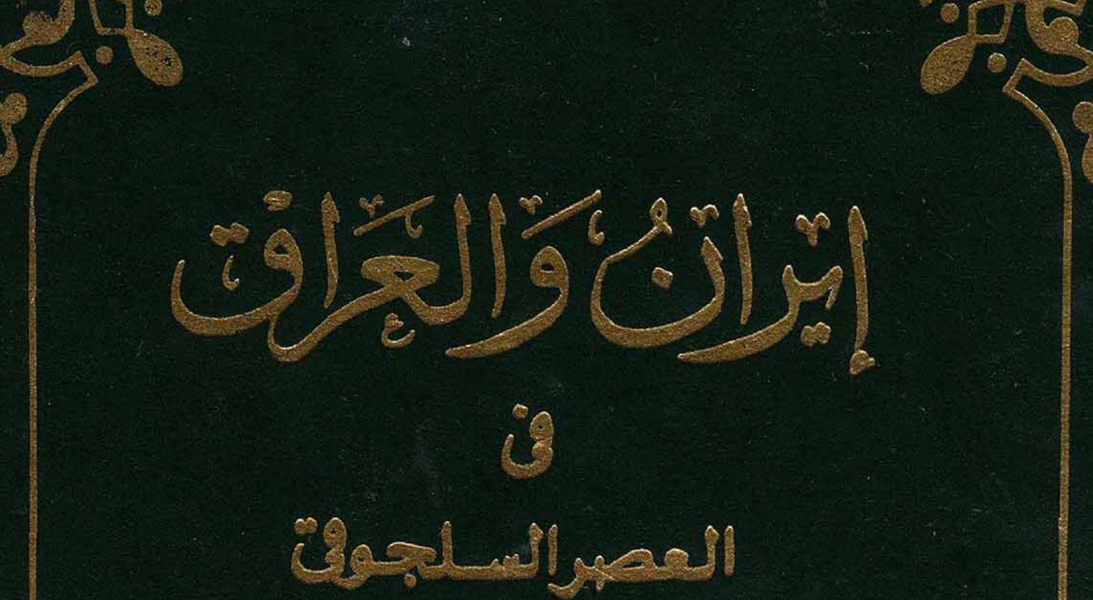


إيران والعراق

في

العصر السلجوقي

تأليف

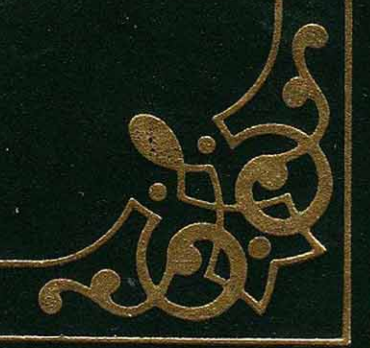
الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

أستاذ ورئيس قسم بكلية الآداب بجامعة

عين شمس وعميد كلية اللغات بجامعة الأزهر سابقا

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة





إيران والعراق

في

العصر السلجوقي

تأليف

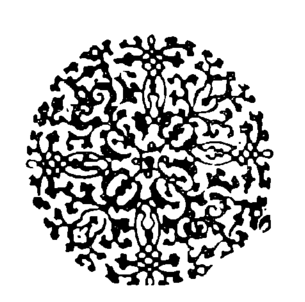
الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

أستاذ ورئيس قسم بكلية الآداب بجامعة

عين شمس وعميد كلية اللغات بجامعة الأزهر سابقا

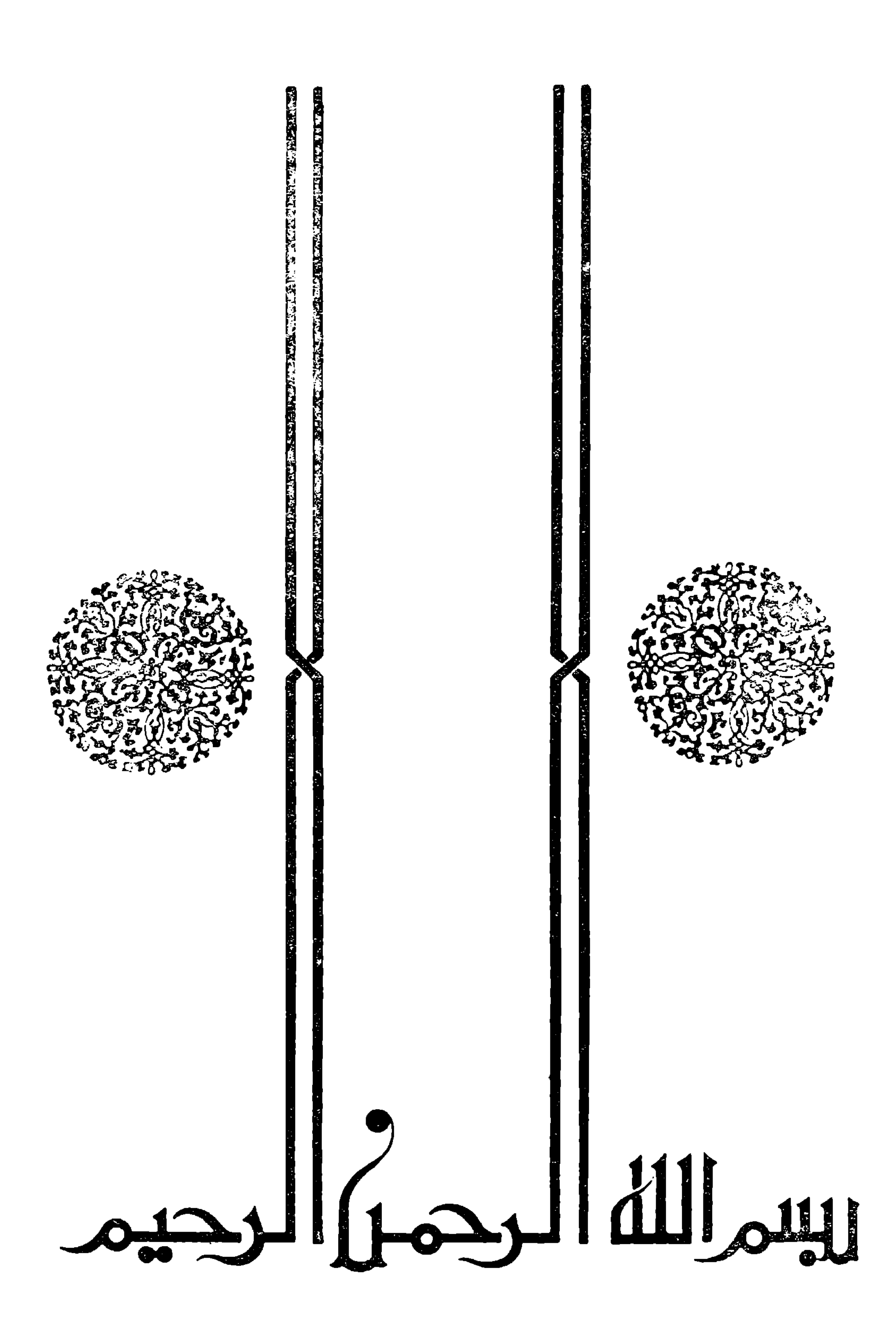
الناشر

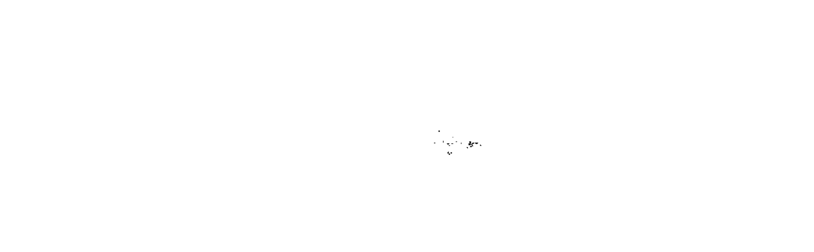
دار الكتاب اللبناني - بيروت



دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا [كتالبان]
هاتف ٣٤٩٠٥٥ / ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ارتبط تاريخ ايران بتاريخ العراق عبر العصور المختلفة قبل شروق شمس الاسلام وبعد شروقها ، ودخول الدولتين تحت راية الاسلام ومساهمتها فى بناء صرح الحضارة الاسلامية الراقية التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا باعتراف الدراسين المنصفين من المسلمين وغير المسلمين ، فقد كانت العراق عاصمة(١) الدولة الساسانية التى أسقطها المسلمون ، ثم أصبحت ايران جزءا من القسم الشرقى من الدولة الاسلامية فى العصر الأموى ، فكانت تخضع لادارة والى المسلمين فى العراق ·

وقد ازدادت صلة ايران بالعراق فى العصر العباسى حين كانت بغداد عاصمة العراق عاصمة للدولة الاسلامية ومقرا للخليفة العباسى أكثر من خمسة قرون من الزمان ، امتزجت فى أثنائها دماء الايرانيين بدماء العرب بوجه عام ، وبدماء العراقيين بوجه خاص بعد أن آخى الاسلام بينهم جميعا ، فنعموا بما فى هذا الدين القويم من أخوة ومساواة وعدالة تمحو اختلاف الأجناس والألوان والألسنة ، لأن الله خلق الناس جميعا من نفس واحدة كما قال سبحانه فى أول سورة النساء :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء · واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام · ان الله كان عليكم رقيبا »(٢) ·

---

(١) كانت تسمى طيسفون وسميت بعد الفتح الاسلامى المدائن ، ولازالت أطلالها غير بعيدة عن بغداد الى يومنا هذا ·

(٢) سورة النساء ، آية ١ ·

فقد جعل الاسلام أساس المفاضلة بين الناس تقوى الله تعالى كما جاء في قوله عز وجل :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .

وكما قال رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى » .

وقد وضح ارتباط ايران بالعراق في العصر السلجوقي الذي امتد أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان في ظل الخلافة العباسية بعد أن كون السلاجقة دولة في عام ٤٢٩هـ لم تلبث أن حظيت باعتراف الخليفة العباسي في عام ٤٣٢هـ ، وكانت من أقوى الدول الاسلامية التي ظهرت على مسرح التاريخ ، لما كان لها من تأثير في توجيه سير الأحداث في بلدان المسلمين وغير المسلمين مازالت آثاره ملموسة الى يومنا هذا .

وظل ارتباط ايران بالعراق مستمرا بعد سقوط الدولة العباسية على أيدي المغول ، فربطت بينهما وحدة المصير والادارة في العصرين المغولي والتيموري ، فلما قامت الدولة الصفوية الشيعية في ايران في عام ٩٠٦هـ (١٥٠٠م) واشتبكت مع العثمانيين السنيين في منازعات وحروب امتدت أكثر من قرنين من الزمان لم تنقطع صلتها بالعراق ، فقد تبادل الصفويون والعثمانيون احتلال العراق ثم رجحت كفة العثمانيين في النهاية الى أن أصبح العراق دولة مستقلة في القرن الذي نعيش فيه .

ومازالت آثار ارتباط ايران بالعراق قرونا عديدة واضحة في كلتي الدولتين وضوحا بينا لايحتاج الى من يشير اليه أو يسوق الأدلة على وجوده .

وقد اخترت العصر السلجوقي موضوع الدراسة في هذا الكتاب لأنه من العصور البارزة في التاريخ الاسلامي لصلته بالحروب الصليبية ،

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

ولشدة ارتباط ايران بالعراق في أثنـاء ذلك العصر مما كانت له نتائج وآثار باقية الى الوقت الحاضر ٠

وأسأل الله أن يوفقنى فيمـا بقى من عمر الى دراسـة ايران والعراق فى عصور اسلامية أخرى غير العصـر السلجوقى ، كما أدعوه تعـالى أن يجعلهـا دراسة يستفيد منهـا المتخصصـون وغيـر المتخصصين وأن يوفق المسلمين فى ايران والعراق وسائر البـلاد الى ما فيه خيرهم وعزتهم ومجدهم وأن يهديهم سواء السبيل انه نعم المولى ونعم النصير ٠

وما توفيق الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ٠

المدينة المنورة فى ٢٩ ربيع الثانى ١٤٠١هـ

الموافق ٥ مارس ١٩٨١م

عبد النعيم محمد حسنين

الفصل الأول

العالم الإسلامى قبيل ظهور قوة السلاجقة

تمهيـــد :

لعل من الضـرورى أن أعرف تعريفـا موجزا بالعـالم الاسلامى قبيل ظهور قوة السلاجقة وقيـام دولتهم حتى تتضح العـوامل التى ساعدت على تحرك السلاجقة وازدياد قوتهم الى أن أنسوا فى أنفسهم القـدرة على اقامة دولة لهم ، كما فعل غيرهم من الترك ٠

وسنرى من استعراض الأحـداث أن العوامل التى ساعدت السلاجقة على الظهور على مسـرح التـاريخ فى النصف الأول من القرن الخـامس الهجرى هى التى وجهت سيرهم نحـو العرب حين فكروا فى التوسع لبسط سلطانهم على المناطق التى يستطيعون الوصول اليهـا ، مما أدى الى اتساع دولة السلاجقة حتى شملت ايران والعـراق ثم آسيا الصغرى وبلاد الشام ، فلم يمر خمسون عاما على قيـام دولة السلاجقة فى عـام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) حتى اعترف بهم الخليفة العباسى فى عـام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) ثم دخلوا بغداد فى عـام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ، ثم دخلوا بلاد آسيا الصغرى فى عـام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ثم دخلوا بلاد الشام فى عـام ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) ثم امتد نفوذهم من حدود الهند والصين شـرقا الى البحـر الأبيض المتوسط غربا ومن البحر الأسود شمالا الى الخليج جنوبا ٠

وقد أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى والعاشر الميـلادى ، غير أنهم لم يظهروا بمظهر القوة التى يخشى بأسـها ،

ويعمل حسابها الا منذ أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، ثم ازدادت قوتهم حتى تمكنوا من الانتصار على الغزنويين واقامة دولة لهم فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ، ولذلك فان التعريف بالعالم الاسلامى قبيل ظهور قوة السلاجقة ، والى حين قيام دولتهم يلقى الأضواء على عصر السلاجقة ، وعلى كثير من الأحداث التى شهدها هذا العصر ، فجعلت دولة السلاجقة من أهم الدول الاسلامية التى ظهرت على مسرح التاريخ ٠

ولقد كان العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ٠ الذى أخذ اسم السلاجقة يذكر فى أواخره ـ تتنازعه قوى اسلامية مختلفة ، تنتظمها دينيا ثلاث دول من دول الخلافة هى : الدولة العباسية ومقرها بغداد فى العراق ، والدولة الفاطمية ومقرها القاهرة فى مصر ، والدولة الأموية ومقرها قرطبة فى بلاد الأندلس ٠

وكانت قوة دول الخلافة من الناحية الدينية أعظم من قوتها من الناحيتين السياسية والحربية ، مما يجعل أية قوة تطفو على سطح دولة من دول الخلافة ثم تسيطر على جزء من أراضى دولة الخلافة تحرص على اظهار ولائها لدولة الخلافة لتظفر باعتراف هذه الدولة بها ، فتكتسب بذلك صفة شرعية توطد نفوذها فى الأراضى الخاضعة لسلطانها ، وتكسبها قبول الناس لحكمها ، والتفافهم حولها ٠

وسأعرف بدولة الخلافة العباسية السنية حين ظهور السلاجقة وبالدول الاسلامية التى كانت تدور فى فلك الخلافة العباسية حينذاك ، كما سأعرف تعريفا شديد الايجاز بالخلافة الفاطمية الشيعية ، أما الخلافة الأموية ، فان بعدها عن مسرح الأحداث فى العصر السجلوقى أبعدها عن المساهمة فى توجيه سير الأحداث فى الشرق الاسلامى ، مما لا أجد معه ضرورة للتعريف بها ، وأبدأ بالتعريف بالمعسكر السنى ٠

أولا : الخلافة العباسية

كانت الخلافة العباسية حين ظهور قوة السلاجقة فى أوائل القرن الخامس الهجرى ضعيفة سياسيا وحربيا ، بحيث لا يستطيع الخلفاء العباسيون

توجيه سير الأحداث فى أرجاء دولة الخلافة بالصورة التى يشتهونها ، مما أتاح الفرصة للوزراء والحجاب وقواد الجيش وحكام الأقاليم والمجموعات القبلية للتدخل فى أمور الدولة المختلفة ، والتأثير فى سير الأحداث ، فوجدت قوى متعددة داخل دولة الخلافة ، واستطاعت بعض هذه القوى أن تستقل سياسيا وحربيا عن دولة الخلافة فطفت بذلك دويلات ودول فوق سطح الخلافة العباسية ٠

غير أن ضعف دولة الخلافة سياسيا وحربيا لم يفقدها قوتها الدينية الروحية(١) باعتبار الخليفة العباسى امام المسلمين وخليفة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى سائر أنحاء المعسكر السنى ، مما يجعل جميع من يعيشون داخل حدود هذا المعسكر يدينون له بالطاعة والولاء ، ويحرصون على التقرب اليه ، والظفر بموافقته على ما هم فيه من سلطان وجاه ٠

وقد ازداد نفوذ الترك فى دولة الخلافة العباسية منذ عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ / ٨٤٧ ــ ٨٦١م) فأخذوا يسيطرون على المناصب العسكرية والمدنية ، ويمسكون بأزمة الأمور فى الدولة ٠

وظلت قوة قواد الترك فى ازدياد بعد ذلك حتى بلغت أوجها فى القرن الرابع الهجرى ٠

وتتابع ظهور الدويلات والدول المستقلة فى أنحاء الدولة العباسية ، وهى دول أقامها القواد وأصحاب النفوذ من الترك وغيرهم من الأجناس المختلفة التى دخلت فى الاسلام ، واستظلت برايته ، ودانت بالولاء للخلافة العباسية السنية ، مما أدى الى انقسام دولة الخلاقة الى مناطق نفوذ متعددة ، فغلب نفوذ البويهيين فى فارس(٢) والرى(٣) واصفهان وبلاد

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ ٠

(٢) المقصود بفارس اقليم فارس فى الجنوب الغربى من ايران ٠

(٣) كانت الرى مدينة وكانت طهران قرية تابعة لها وقد انقلب الوضع فى العصر الحديث فأصبحت طهران المدينة والعاصمة والرى قرية تابعة لها ٠

الجبل(١) ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، وسيطر الاخشيديون على مصر والشام ، ثم خلفهم الفاطميون ، وظفر السامانيون بحكم خراسان ثم حل محلهم الغزنويون ، وأعلن عبد الرحمن الثالث الأموى نفسه خليفة فى بلاد الأندلس ، وانفصل عن جسم الدولة العباسية حين أيقن أن الخليفة العباسى غير قادر على التحكم فى أنحاء دولته المترامية الأطراف ٠

وكان الترك أقوى الطوائف نفوذا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، فكان سلطانهم طاغيا فى النواحى السياسية والحربية ، فسلبوا الخلفاء سلطتهم فى هذه النواحى ، وكانت أمهات بعض الخلفاء العباسيين تركيات ، فتدخلن من وراء حجاب فى توجيه دفة السياسة ، وفى تولية الوزراء وعزلهم كما تدخلن فى ولاية العهد ، واختيار من يلى الخلافة ، مما أشعل نيران الفتنة والمنافسة بين أفراد البيت العباسى ، وهيأ فرص التنازع والانقسام داخل الدولة العباسية ، فأدت الأحوال المضطربة الى تقلبات فى الأوضاع السياسية ، وسقوط دويلات ودول ، وحلول أخرى محلها ٠

وساعدت الأحوال المضطربة على انتشار التصوف الداعى الى نبذ الدنيا بالجنوح الى العزلة والاعتكاف ، فكثرت البدع والخرافات ، ونشط دعاة الشيعة فكثرت الخلافات المذهبية واشتعلت نيران المنازعات بين الفرق الدينية المختلفة(٢) ، فكان بعضها باللسان ، وبعضها الآخر بالسنان ، فقلت الطمأنينة فى قلوب الناس مما ساعد على ازدياد التصوف رواجا ، وارتفاع قدر شيوخ الصوفية ، بحيث ظهرت صبغة التصوف فى كثير من مظاهر الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى والقرون التالية له ٠

وقد قامت دولة السلاجقة فى شرقى ايران فى هذا الجو العاصف

---

(١) هى منقطعة داخلة فى نطاق ما يسمى بالعراق العجمى ٠

(٢) وجدت فرق دينية سنية وشيعية مختلفة ؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، الزنادقة والمعتزلة والاسماعيلية والصوفية ٠

الذى يجتاح دولة الخـلافة العباسيــة ، ويوجه سير الأحداث فى ربوعها ، مما كان له أثر ملموس فى تحرك السلاجقة ـ سواء قبل قيام دولتهم أو بعد قيامهـا ـ ظهر فى الأحـــداث التى شهدها العصــر السلجوقى فى ايران والعراق ٠

وقد كان الخليفة القــائم بأمــر الله هو الخليفــة العباسى الذى قامت فى عهد خلافته دولة السلاجقة فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) فى مدينة نيسابور فى اقليم خراسان ، وكان كغيره من الخلفــاء العباسيين حينذاك غير قادر على توجيه سير الأحــداث ـ سياسيا وحربيــا ـ الوجهــة التى يريدها أو يفضلها ، فآثر أن يقر الأمــر الواقع ، ويؤيد بموافقته من كانت له الغلبــة ، فلما طلب منه السلاجقة الاعتراف بقيام دولتهم بعد انتصارهم انتصارا حاسما على الغزنويين فى عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م) لم يتردد فى الاعتراف بقيــام دولة السلاجقة فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠) ، وبادر بدعوة السلطان طغرل السلجوقى ـ الذى جلس على العرش وأعلن قيــام دولة السلاجقة ـ الى زيارة بغداد مقر الخلافة العباسية ، ليوثق صلته بهذه الدولة الفتية القوية ٠

ويهمنا أن نعرف بالدول التى طفت على سطح الخلافة العباسية وكانت قائمة فى ايران والعــراق وقت ظهور السلاجقة ونكتفى منهــا بثلاث دول هى السامانية والغزنوية والبويهية ، لصلتها بالأحداث التى ساعدت على تكوين دولة السلاجقة فى ايران والعراق ٠

١ ـ الدولة السامانية :

كان السامانيون ولاة على بلاد ما وراء النهر(١) ، ثم امتــد نفوذهم حتى شمل بلاد طبرستان والرى وقزوين ٠

وينتسب السامانيون فى الأصل الى أســرة فارسيــة عريقة(٢) وقــد

---

(١) قبال : تاريخ ايران از ظهور اسلام تاحملة مغول ، ص١٢١ ٠

(٢) ورد فى أكثر من كتــاب أنهم ينتسبون الى بهرام چوبين القــائد الذى حاول اغتصاب العرش الساسانى من خسرو پرويز وهو الملك الساسانى الذى دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدخول فى الاسلام فأبى ، فدعا الرسول عليه أن يمزق الله ملكه واستجاب الله لدعوة رسوله ٠

أخذ نجمهم فى الارتفاع والتألق منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكانت الصلة بينهم وبين الخلفاء العباسيين تقوم على أساس المودة والمصالح المتبادلة ، فكان الخلفاء العباسيون يوكلون الى السامانيين اقرار الأوضاع فى بلاد المشرق ٠

وفى أثناء القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين ، فقامت الحروب بين الطرفين وتبادلا النصر والهزيمة(١) ٠ وأخذت قوة السامانيين فى الضعف ، ثم ازدادت ضعفا حين شق بعض قواد السامانيين عصا الطاعة ، وأعلنوا تمردهم ، وزاد الطين بلة ظهور الخلافات والمنازعات بين أفراد البيت السامانى طمعا فى الجاه والسلطان ، مما فل شوكتهم ، وأغرى حكام الأطراف بهم ، فأخذت دولتهم تسرع الى النهاية والزوال منذ منتصف القرن الرابع الهجرى(٢) ٠

وفى النصف الثانى من هذا القرن قامت دولة الغزنويين ـ التى سيأتى التعريف بها ـ وبلغت هذه الدولة أقصى قوتها فى عهد السلطان محمود ، وكانت توجد فى بلاد ما وراء النهر دولة تركية أخرى هى دولة الخانيين التى ارتبطت فى عهد محمود برباط المصاهرة والصداقة مع الدولة الغزنوية ، فأغرى ضعف السامانيين جيرانهم من الخانيين والغزنويين باقتطاع أجزاء من دولتهم ، فاستولى السلطان محمود الغزنوى على بخارى ونيسابور وتمكن من بسط نفوذه على اقليم خراسان ، والقضاء على نفوذ السامانيين فى هذا الاقليم ، بينما استولى الخانيون بقيادة بغراخان على ممتلكات السامانيين فى بلاد ما وراء النهر ودخل بخارى بموافقة السلطان محمود الغزنوى ، وهكذا اقتسم الخانيون والغزنويون ممتلكات السامانيين(٣) ٠ وأزالوا دولتهم فى الوقت الذى كان السلاجقة فيه قد أخذوا فى الظهور على

---

(١) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٣٣هـ ٠

(٢) اقبال : تاريخ ايران ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٨٩هـ ، اقبال : تاريخ ايران ، ص ١٣٠ ـ ١٣٥ ٠

مسرح الأحـــداث فى تلك المنطقـــة ، ثم لم يلبثوا أن حلوا محـــل الغزنويين والخانيين فيها ٠

٢ ـ الغزنويون :

قامت دولة الغزنويين قبل قيام دولة السلاجقة بأكثـــر من ستين عاما ، وكانت فى أوج قوتهـــا فى أواخر القرن الرابع الهجرى حين كان السلطان محمود على رأسها ، وقد بلغت أقصى اتساع لها قبـــل وفاته فى عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) فقد غزا هذا السلطان بلاد الهند مرات عديدة على مدى أكثر من ربع قرن من حكمه الذى ظـــل أربعـــة وثلاثين عاما من ٣٨٧ الى ٤٢١هـ ، وأدت غزواته لبلاد الهند الى فتح أقاليم البنجات وقنوج وكجرات وسومنات وضمها الى ممتلكات الغزنويين ونشر الاسلام فى ربوعها كما تمكن السلطان محمود فى أثناء حكمـــه من بســـط سيطرته على بلاد الغـــور وبلاد ما وراء النهـــر(١) وهاجم بنى بويه ، وانتصـــــر عليهم واستطـــاع الاستيـــلاء على اصفهان وتمكن كذلك من ازالة الدولة السامانية من اقليم خراسان ٠

وهكذا كانت دولة الغزنويين حين ظهور قوة السلاجقـــة قوية مرهوبة الجانب ، فسيحة الأرجاء ، يخشاها جيرانها ويقدرها الخليفة العباسى الذى منح سلطانهـــا لقب يمين أمير المؤمنين ، فاكتسب السلطان محمود الغزنوى بذلك مـــكانة عظيمـــة ، وصـــار من أبطـــال المسلمين الـــذين ذكروا بلقب « الغـــازى »(٢) ، لأنه صبغ غزواته لبلاد الهنـــد بصبغة الجهـــاد فى سبيل الله ، لنشر الاسلام ، دين الله الحق ، ونصرته كما حققت له الانتصارات المتتالية الوفير من الغنائم والثروات ٠

وقـــد اتسعت ممتلكات الغزنويين فى عصر محمود حتى شملت الجزء الشمالى من شبه القارة الهندية من جهـــة الشرق والعراق العجمى من جهة الغرب وخراسان وطخارستان وقاعدتهـــا بلخ وقسما من بلاد ما وراء النهر

---

(١) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ گزيدة ، ص ٣٩٦ ٠

(٢) Browne : A Literary History of Persia, Vol. I, P. 376.

من جهة الشمال وسجستان من جهة الجنوب ، فصار الغزنويون أقوى دولة طفت على سطح الخلافة العباسية ٠

وقد أمسك الغزنويون فى عصر محمود بزمام الزعامة فى القسم السنى من العالم الاسلامى تحت ظل الخـلافة العباسية فى بغداد ، وأثبتت قوتهم تفوق العنصر التركى ، منذ القرن الرابع الهجـرى على غيره من الأجناس التى دخلت فى الاسلام واستظلت برايته ٠

غير أن دولة الغزنويين(١) أخـذت فى الضعف بعـد وفاة سلطـانها محمـود ، فكثرت الفتن فى ربوعها ، كما كثر النزاع على العرش الغزنوى بين أبناء محمود وأحفاده من بعده مما أتاح الفرصة للسلاجقة للظهور بقوة والتحرك لبسط نفوذهم على اقليم خراسان ثم اعلان قيام دولة لهم ، وانتزاع الزعامة من أيدى الغزنويين فى القسـم السنى من العـالم الاسـلامى ، مما سنتبينه بشىء من التفصيل حين التعريف بالسلاجقة وقيام دولتهم ٠

وقـد ظلت دولة الغزنويين قائمة حتى أواخـر القرن السادس الهجرى (الثانى عشـر الميـلادى) غيـر أن قوتهم كانت تسير بخطى واسعة نحـو الضعف والانهيار بعد قيام دولة السلاجقة وبسط نفوذها على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام ٠

والواقع أن وفاة السلطان محمود كانت من العوامل التى ساعدت على ظهور قوة السلاجقة على مسرح التـاريخ الاسلامى ، لأنهم لم يتمكنوا من الظهور فى عصر محمود ولم يستطيعوا الوقوف فى وجهه حين غدر بهم وقبض على زعمائهم وسجنهم ـ كما سيأتى ـ لأنهم كانوا يعرفون مدى قوتهم أمام قوة السلطان محمود ويدركون خطورة التصدى له ، والاشتباك معه فى قتال، فآثروا الانتظار حتى تتهيأ لهم فرصة الظهور ، فلما تهيأت لهم هذه الفرصـة بعد اختفاء محمود الغزنوى سارعوا باغتنامها ، ونجحوا فى اقامـة دولة

---

(١) سميت الدولة بهذا الاسم نسبة الى عاصمتها غزنة القريبـة من كابل عاصمة أفغانستان الحالية ،وهى نسبة على الطريقة الفارسية لاالعربية، وقد اشتهرت الدولة بهذه النسبة الفارسية ، فآثرت ذكرهـا بهـذه الصورة ٠

لهم فى خراسان ثم انطلقوا منذ عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) ـ بعد اعتراف الخليفة العباسى بهم ـ فى طريقهم الى بسط نفوذهم غربا على كل ما استطاعوا اليه وصولا من بلاد الخلافة العباسية وبلاد الدولة الرومانية ٠

٣ ـ البويهيون :

ظهر بنو بويه منذ أوائل القرن الرابع الهجرى(١) فى صورة طائفة قوية تستطيع توجيه سير الأحداث فى ايران والعراق واحتلال مكان على مسرح التاريخ الاسلامى فى منطقة الشرق الأوسط ٠

والبويهيون طائفة من طوائف الديلم ، وقد أسلم الديلم فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى وحسن اسلامهم ، ثم جنحوا الى التشيع ، واعتنقوا المذهب الاسماعيلى(٢) ٠

وقد تمكن البويهيون بقيادة معز الدولة أحمد بن بويه من دخول بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية فى عام ٣٣٤هـ (٩٤٥م) ، وبسط نفوذهم عليها ، وقبل الخليفة العباسى مضطرا وجودهم فى عاصمة الخلافة ، وأمر بذكر حاكمهم فى الخطبة بعد ذكر اسمه ، وهكذا تيسر للبويهيين أن يساهموا فى توجيه سير التاريخ الاسلامى مدة أستمرت أكثر من قرن من الزمان منذ دخولهم بغداد فى العام المذكور فشهدوا ظهور قوة السلاجقة ، وقيام دولتهم التى أسقطت دولة البويهيين وأخذت مكانها فى دار الخلافة العباسية ببغداد٠

وقد انتهج البويهيون منذ دخولهم بغداد سياسة متعاطفة مع الشيعة ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بعد غزو الفاطميين الشيعة لمصر ، واتخاذهم القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية التى اتخذت المذهب الشيعى الاسماعيلى مذهبا رسميا لها ثم تمكنت من بسط نفوذها على بلاد الشام ، والوقوف على حدود العراق توجد عاصمة الخلافة العباسية السنية ٠

وكان البويهيون يتعدون على الخلفاء العباسيين ، وينتقصون منحقوقهم

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ٠
(٢) سيأتى التعريف بالاسماعيلية فى موضعه بعد ذلك ٠

حتى انهم فكروا فى ازالة الخلافة العباسية ، واقامة خلافة علوية مكانها ، أو اعلان الانضمام الى الخلافة الفاطمية الشيعية لولا أنهم خشوا ثورة المسلمين من أهل السنة فى ايران والعراق عليهم ·

وقد أدى تعصب البويهيون للشيعة الى أشاعة الاضطرابات فى العراق، كما أدت الى قيام الفتن الطائفية(١) وكثرة الثورات بين الجند . كما ذهبت هيبة الخلافة العباسية(٢) ، فلم يبق منها غير اسمها ؛ فلم يكن للخليفة العباسى من الامر شىء سوى ذكر اسمه فى الخطبة ، ونقش اسمه على السكة ·

وكان نفوذ البويهيين حين ظهور قوة السلاجقة قد امتد حتى شمل جميع أنحاء العراق ، وتجاوز العراق الى عدد من البلاد التابعة للخلافة العباسية مثل عمان وفارس والرى وهمذان واصفهان ·

غير أن هذا النفوذ آخذ فى الضعف تدريجيا فى أواخر القرن الرابع الهجرى حين كثر التنازع بين أمراء الجند ، وكان هؤلاء من الأتراك الذين استعملهم البويهيون فى خدمتهم . فلما قوى نفوذ هؤلاء الأمراء تدخلوا فى أمور الدولة المختلفة ، وطغى نفوذهم على سلطان الحكام البويهيين ، فأمسكوا بزمام الأمور ، وأخذوا يوجهون سير الأمور فى الدولة العباسية ·

وظهر ضعف الحكام البويهيين فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى حين أصبحت الكلمة لأمراء الجند فأخذوا يتدخلون فى تولية هؤلاء الحكام وعزلهم ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء ، والخليفة فى ذلك كله لايملك الا تنفيذ رغباتهم(٣) ·

فلما أخذ السلاجقة فى الظهور على مسرح التاريخ بعد وفاة محمود الغزنوى فى عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) كان نفوذ البويهيون آخذا فى الأفول والزوال ، وساعدت على أفوله وسرعة زواله الحروب التى قامت بين الملك

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج٣ ، ص ٤٤ ·
(٢) الآثار الباقية ، ص ١٣٢ ·
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤١٩هـ ·

الرحيم البويهى واخوته ، فلم يستطع البويهون الوقوف فى وجه السلاجقة حين اتجهوا بزعامة سلطانهم طغرل الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليدخلوها دخول الظافرين تلبية لدعوة الخليفة العباسى القائم بأمر الله بعد أن اعترف الخليفة بدولتهم كما اعترف بحكمهم على البلاد التى فتحوها ، فزالت دولة البويهيين بدخول طغرل السلجوقى بغداد فى عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥)(١) فزال النفوذ الشيعى من دولة الخلافة العباسية السنية ، وازداد السلاجقة قدرا ، فأمسكوا بزمام الأمور فى سائر أرجاء المعسكر السنى ٠

ثانيا : الخلافة الفاطمية

لعل من اللازم ومن المفيد القاء الضوء على دولة الخلافة الفاطمية الشيعية حين قيام دولة السلاجقة ، حتى تتضح حقيقة الأوضاع فى العالم الاسلامى بمعسكريه السنى والشيعى ، فتظهر بجلاء العوامل التى ساعدت السلاجقة على التقدم والانتشار غربا حتى بسطوا نفوذهم على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام ، وكادوا يدخلون مصر حيث توجد القاهرة عاصمة الخلافة الشيعية منذ عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ٠

والواقع أن دولة الخلافة الفاطمية لم تكن حين ظهور قوة السلاجقة أسعد حالا من دولة الخلافة العباسية ، فقد كان الخليفة الفاطمى ضعيفا من الناحيتين السياسية والحربية ، ولم يكن له سوى قوة معنوية باعتباره اماما للمسلمين من الشيعة ، له نفوذ روحى عليهم يجعل الحكام فى جميع أنحاء دولة الخلافة الفاطمية يدينون له بالطاعة والولاء ، ويحرصون على الظفر بموافقته على توليهم الحكم حتى يكسبوا حكمهم صفة شرعية ، تجعل الناس يرضون بحكمهم ويلتفون حولهم ٠

وقد كان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله(٢) هو الخليفة فى وقت ظهور قوة السلاجقة ، وكانت الأحوال مضطربة فى دولة الخلافة ، نظرا لما

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٩ ــ ١٠ ٠
(٢) حكم الخليفة الحاكم بأمر الله فى المدة من ٣٨٦ الى ٤١١هـ أى من عام ٩٩٦ الى ١٠٢٠م ٠

أصاب مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنوات متتالية من عام ٣٩٨ الى ٤٠١هـ (١) من ناحية ، وسياسة الحاكم مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم من ناحية أخرى . فقد كانت سياسة تتسم بالعنف والكثير من التذبذب والاضطراب(٢) .

وحين أقام السلاجقة دولتهم فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) كان المستنصر بالله هو الخليفة الفاطمى ، وكان فى التاسعة من عمره ، فازدادت الأحـوال اضطرابا فى دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، نظرا لتدخل أم الخليفة فى ادارة أمور الدولة المختلفـة(٣) ، وتنافس الوزراء على السلطة ، وتعاظم نفوذهم ، وتزعزع مركز الخلفاء الى حد كبير ، مما هيأ للسلاجقة بعد وصـولهم الى بغداد فى عام ٤٤٧هـ أن يقتطعوا ممتلكات الفاطميين فى بلاد الشام وأن يفكروا فى اسقاط الدولة الفاطمية نفسها غير أنهم لم يتمكنوا من بلوغ هذا الهدف المنشـود .

وهكذا كانت القوى المختلفة الموجودة فى أكثر أنحاء العالم الاسلامى بمعسكريه السنى والشيعى آخذة فى الضعف ، وكانت فى حالة لاتقوى معها على التغلب على قوة السلاجقة الفتية الصاعدة مما ساعد السلاجقة علىسرعة الظهور والسيطرة على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام واحتلالمكان بارز فى التاريخ الاسلامى بخاصة والتاريخ العالمى بعامة سنوضحه فيما يلى .
وبالله التوفيق .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

الفصل الثانى

تعريف بالسلاجقة وقيام دولتهم

تمهيـــــد :

كانت دولة السلاجقة من أهم الدول الاسلامية التى ظهرت على مسرح التاريخ ، لأنها وجهت سير الأحداث فى المنطقة المعروفة الآن بالشرق الأوسط ، واشتبكت فى قتال مع الغرب النصرانى ممثلا فى الدولة الرومانية أدى الى قيام الحروب الصليبية ، ممـا كان له أثره فى تـاريخ الشرق والغرب على الســـواء ٠

وكان السلاجقة مجموعة من القبائل التركية استقرت فى اقليم ما وراء النهر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين بعد أن أسلمت وحسن اسلامها ، ثم انتقلت بعـد سنوات قليلة الى خراسان ، وكونت جيشا قويا ، تمكنت به من دخول مدينة نيسابور فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ، فأعلن زعيمها طغرل قيام دولة للسلاجقة ، ونادى بنفسه سلطانا على هذه الدولة الفتيـــة ٠

وقد شهد التاريخ حركات كثيرة من هذا القبيل ــ قبل السلاجقة وبعدهم ــ غيرت وجه التاريخ فى أرجاء العالم المختلفة ، منها خروج القبائل العربيـة بعد اسلامها من شبه الجزيرة العربية ، وانتقالها شرقا وغربا ، واستقرارها فى البلاد المختلفة التى فتحها المسلمون ، وقـد نقل العرب المسلمون الى أهل تلك البلاد نعمة الاسلام ، مما ساعد على نشر الاسلام فى تلك البلاد ، وأدى الى امتزاج الدماء ، والى انشار اللغة العربية ــ لغة الدين الحنيف ــ التى نزل بها القرآن الكريم ، وقيلت بها الأحاديث النبوية الشريفة ، وصار تعلمها لازما لكل مسلم غير عربى حتى يستطيع تعلم أمور دينه ٠

ولقد كان قيام دولة للسلاجقة ثمرة من ثمار حركة من تلك الحركات ، ألا وهى خروج القبائل التركية من مواطنها الأصلية فى وسط آسيا ، وارتحالها غربا ، ووصول جماعات منها الى غربى آسيا والى شرقى أوربا ووسطها ، وهى حركات ظهرت طلائعها فى القرن الرابع الهجرى ، واستمرت بضعة قرون بعد ذلك ، وكان السلاجقة احدى هذه الجماعات التركية ، التى ظهرت منذ بداية الهجرات التركية فى التاريخ الاسلامى .

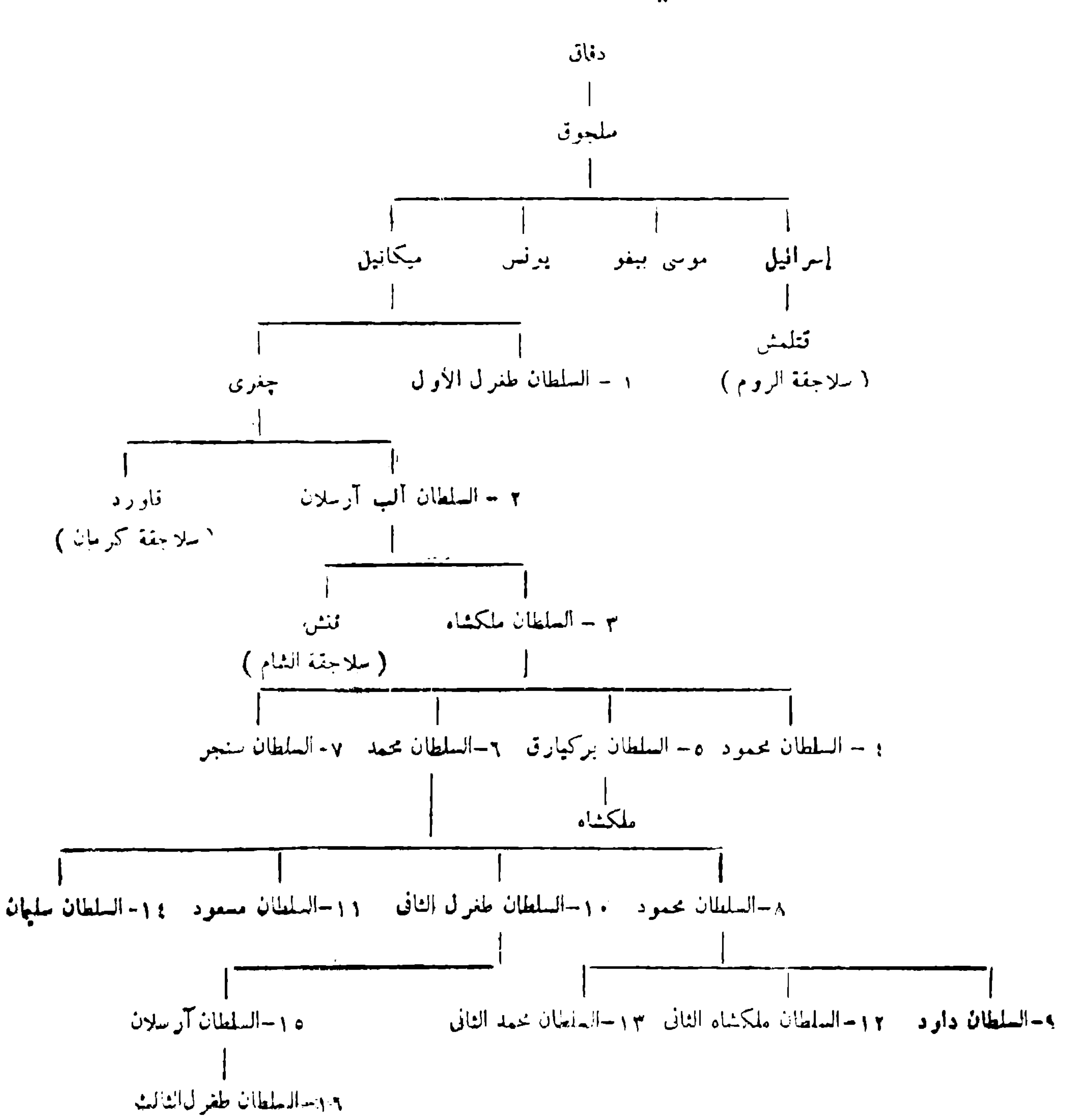
وكان اسلام الترك نقطة تحول فى تاريخهم ، فقد أزال الحاجز بينهم وبين المسلمين ، كما أزال الحاجز بينهم وبين التاريخ العالمى ، فيسر لهم الحياة فى بلاد المسلمين ، والدخول فى خدمة خلفاء المسلمين وسلاطينهم وأمرائهم وقوادهم ، ثم واتتهم الفرص لاقامة دول تركية مسلمة مجاهدة ، ساهمت فى توجيه سير الأحداث فى بلاد المسلمين وغير المسلمين وكانت دولة السلاجقة فى ايران والعراق احدى هذه الدول التركية القوية .

وهكذا ارتفع الترك باعتناقهم الاسلام ، فقد رفع الاسلام شأنهم ، وأعلى قدرهم ، وأدخلهم ميدان التاريخ العالمى ، كما ارتفع شأن المسلمين بالترك لأنهم التفوا حل راية الاسلام ، وجاهدوا من أجل نصرته ونشره فى الآفاق ، حتى أوصلوا نور الاسلام الى قلب شبه القارة الهندية شرقا ، والى سط أوربا غربا فى العصور التركية المتعاقبة منذ قيام الدولة الغزنوية الى عنفوان الدولة العثمانية ، وساهمت دولة السلاجقة بنصيب وافر فى نصرة الاسلام ونشره .

وسأحاول دراسة ايران والعراق فى العصر السلجوقى لالقاء الضوء على كثير من الأحداث التى وقعت فى منطقة الشرق الأوسط فى العصر السلجوقى ، وما زالت آثار بعضها ملموسة فى العصر الحديث .

وقد يسر الله لى أن أعيش عامين فى ايران وعاما فى العراق وأن أزور هاتين الدولتين المسلمتين مرات عديدة ، كما يسر الله لى دراسة اللغة الفارسية والتخصص فيها ، والاطلاع على المصادر الفارسية اللازمة فى دراسة تاريخنا الاسلامى فى كثير من عصوره ، وأرجو أن يوفقنى الله الى تقديم دراسة صحيحة عن ايران والعراق فى ذلك العصر ، وأن تكون دراسة تستهدف الوصول الى الحقيقة العلمية التى هى غاية الدارسين والله الموفق للصواب .

سلاجقة إيران والعراق



التعريف بالسلاجقة

أصل السلاجقة :

كان السلاجقة مجموعة من القبائل التركية ، تنتمى ـ فى الأصل ـ الى طائفة الأوغوز(١) التى كانت قبائلها تنتشر فى تركستان وما وراء النهر(٢) ٠ والمعلومات التى لدينا عن هؤلاء السلاجقة قليلة جدا قبل أن يتولى زعامتهم سلجوق بن دقاق فنسبت القبائل اليه ، ثم توارث زعامة هذه القبائل أبناء سلجوق وأحفاده من بعده ٠

وقد اخذ اسم السلاجقة يذكر فى الكتب المختلفة ، وبخاصة كتب التاريخ فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى منذ عام ٣٧٥هـ (٩٨٥م) تقريبا ، أى بعد أن تولى سلجوق زعامتها ، ووحد شملها وقادها الى منازلها فى الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم فكانت تنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين(٣) ، وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون ، وتتنقل فى هذه المنطقة فى أثناء رحلتى الشتاء والصيف ، فكانت مساكنها حينذاك تقع بين بلاد ما وراء النهر ، ومنازل طائفة أخرى من الاتراك المسلمين تسمى « **القرلق** » ٠

ويبدو أن القبائل التركية التى ينتمى اليها السلاجقة هاجرت من أقصى بلاد التركستان فى خلال القرن الثانى الهجرى ثم أخذت تتنقل فى أنحاء التركستان متجهة نحو الغرب حيث تتوافر موارد المياه حتى طاب لها المقام فى القرن الرابع الهجرى فى بلاد ما وراء النهر ، ثم عرف جزء منها باسم

---

(١) خفف هذا الاسم على مر العصور فصارا لغز ٠
(٢) المقصود بالنهر نهر جيحون ٠
(٣) سمى هذا البحر بعد ذلك بحر الخزر وهى التسمية الرائجة الآن ٠

السلاجقة نسبة الى زعيم قبلى هو سلجوقى بن دقاق(١) كما ذكرنا ٠

ومن المعروف أن هجرات القبائل المختلفة كانت تدفع اليها عوامل متعددة ، منها تكاثر القبائل وازدياد عدد أفرادها الى درجة تضيق بها الاماكن التى تنزل فيها مما يدفع جزء منها الى الهجرة برغبتها ، لتجد متنفسا فى أماكن أخر صالحة لنزولها ، منها الظروف القاهرة التى تواجهها القبائل فى منازلها التى تنزل فيها كحدوث قحط يجعل الأماكن التى تنزل فيها القبائل غير صالحة لاستمرار الحياة فيها ، أو هجوم قبائل أكثر قوة على الأماكن التى تقيم فيها تلك القبائل ، وغلبة القبائل القوية المهاجمة على المنطقة واجلاء سكانها ، فتضطر القبائل المغلوبة الى الهجرة كارهة ، وتظل تتنقل حتى تظفر بمكان جديد تنزل فيه ٠

والحقيقة أن المعلومات التى لدينا عن قبائل السلاجقة قبل قيام دولتهم ليست كثيرة ، فلا نعرف معرفة يقينية أسباب هجراتهم وتنقلهم من مكان الى آخر قبل نزولهم فى بلاد ما وراء النهر فى القرن الرابع الهجرى ، وذكرأخبار عنهم فى النصف الثانى من هذا القرن حين صاروا تحت زعامة سلجوق ، فنسبوا اليه ٠

ومن الثابت أن السلاجقة دخلوا فى الاسلام قبل قيام دولتهم بأكثر من نصف قرن من الزمان ، ويبدو أن قرب منازلهم فى القرن الرابع الهجرى من المناطق الواقعة تحت حكم السامانيين والخانيين والغزنويين المسلمين السنيين قد ساعد على سرعة انتشار الاسلام بين قبائل السلاجقة وعلى اتباعهم للمذهب السنى ، وتمسكهم بهذا المذهب ، وعلى تطلعهم للتقرب من الخليفة العباسى خليفة المسلمين من أهل السنة فى وقت ارتفع فيه صوت الشيعة فى مناطق مختلفة من بلاد المسلمين ، وانقسم المسلمون الى معسكرين أحدهما سنى بزعامة الخليفة العباسى فى بغداد ، والآخر شيعى بقيادة الخليفة الفاطمى فى القاهرة ٠

وقد يسر دخول السلاجقة فى الاسلام لهم فرصة الاتصال بحكام المسلمين

---

(١) « دقاق » أو « تقاق » كلمة تركية معناها « القوس الجديد » ٠ ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢هـ ٠

المجاورين لهم . وكان هذا الاتصال مفيدا لهم أحيانا ، ومضعفا لقوتهم أحيانا أخرى ، ففى عهد زعامة سلجوق للسلاجقة استفادوا من اتصالهم بالسامانيين ومساعدتهم لهم فأذن السامانيون للسلاجقة بالمرور فى بلادهم والاقامة بالقرب من شاطىء نهر سيحون واتخاذ مدينة « جند » قاعدة لهم .

وأخذ السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى يجنحون الى شىء من الاستقرار بالقرب من موارد المياه حيث توجد الأراضى الخصبة ، وتكثر المراعى اللازمة لدوابهم فيطيب لهم العيش ، وتحلو لهم الحياة .

وطلع القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) والسلاجقة يقيمون فى بلاد ما وراء النهر ، وكانت الدولة السامانية قد غربت شمسها منذ وقت قصير . فقسمت البلاد التى كانت تحت سيطرتها بين الخانيين والغزنويين . وكانت منازل السلاجقة حينذاك تقع حول بلدة « نور » بالقرب من مدينة بخارى فى أثناء أشهر الشتاء ، أما فى أثناء أشهر الصيف فكانت منازل السلاجقة تقع حول بلدة « سغد » بالقرب من مدينة سمرقند(١) .

وتولى اسرائيل زعامة السلاجقة بعد وفاة أبيه سلجوق ، وكان اتصاله بالغزنويين سببا فى القبض عليه وسجنه واضعاف السلاجقة ، كما سنبين هذا .

وهكذا وجد السلاجقة أنفسهم يشتركون فى الأحداث التى تقع فى منطقة ما وراء النهر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين حين أصبحوا قوة يشعر حكام المنطقة بوجودها ويخشون بأسها ، فمهد اشتراكهم فى الأحداث لظهورهم على مسرح التاريخ الاسلامى ، وهو الظهور الذى هيأ لهم فرصة المساهمة فى سير أحداث التاريخ العالمى بعد اشتباكهم فى قتال ضد الدولة الرومانية ، أشعل نيران الحروب الصليبية فيما بعد .

وكان السلاجقة متأثرين بأصلهم القبلى ، فكانوا يألفون حياة البداوة التى تميل الى التنقل والارتحال ، وظلت جذور الحياة القبلية راسخة فى

---

(١) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور . ص ٨٦ : ٨٧ .

أعماق نفوسهم حتى بعد قيام دولتهم مما أثر فى شكل هـــذه الدولة وفى تاريخها ، وفى سير الاحداث طوال مـــدة حكمها ، فقد ظل سلاطين السلاجقة مرتبطين بالقبائل ، يعتمدون على أفرادها اعتمادها كبيرا ، ويكونون منهم جيوشهم(١) ، مما شجع القبائل السلجوقية على الوفود الى ايران والعراق والبلاد الاسلامية الأخرى التى خضعت لحكم السلاجقة ٠

كما ظـل المظهر القبلى غالبـا على سلاطين السلاجقة الاولين ، فكانوا غير مثقفين ، بل كان بعضهم أميا(٢) يجهل القراءة والكتابة ، مما جعلهمفى حاجة ماسة الى كثير من الموظفين ، لاستعمالهم فى المهـام المختلفة(٣) ٠ فبرزت طبقـة الموظفين ، وازداد نفـوذ بعض أرادها تبعـا لأهمية مناصبهم أو لصلتهم بالسلطان ، وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب ٠

وكان لظهور طبقـة الموظين ، وازدياد أهميتها أثر واضح فى توجيـه سير الأحداث السياسية وغير السياسية فى الدولة السلجوقيـة ٠ كما كان لجذور الحياة القبلية تأثير واضح فى نظم الحـكم فى هذه الدولة ، فغلبت عليها الصبغة العسكرية ، فلم يضعو انظاما المحكم ، فكان العرش من نصيب أكثر أفراد البيت السلجوقى قـوة ونفوذا ، حتى ولو لم يكن أكبرهم سنا ، وقد وضحت هـذه الظاهرة فى الدولة السلجوقية منـذ بداية ظهورها الى وقت أفولهـا ٠

وكان وجـود القبائل السلجوقية بكثـرة فى المدن الكبرى المهمـة فى ايران والعراق سببا فى غلبة النظـام العسكرى ، فكانت هذه القبائل أشبه ما تكون بالجيوش ، كما كانت مثيرة أحيانا للفتن والقلاقل اذا حرم أفرادها من مرتباتهم ، أو اذا تأخر وصول هـذه المرتبـات اليهم لسبب من الاسباب ، مما يؤدى الى سوء الأحوال فى الدولة واضطرابها(٤) ٠

---

(١) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ٠
(٢) من أشهر سلاطين السلاجقة الأميين السلطان سنجر وسنفصل الحديث عنه فى موضعه ٠
(٣) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان العظيم (باللغة الروسية) ، ص ١٣ ٠
(٤) برتلس : نظامى ، ص ١٤ ٠

كما أدت غلبة الطابع القبلى على السلاجقة الى الغاء ديوان البريد(١) الذى كان من أهم الدواوين فى الدول الاسلامية لأنه كان يربط أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر ، كما كان المشتغلون بنقل البريد عيـون الدولة الذين يطلعون الحكام على حقيقة ما يجرى فى أنحاء الدولة المختلفة ٠

وأثرت بداوة السلاجقة كذلك فى تمسكهم الشديد بالاسـلام وحرصهم على الدفاع عنه ، ونصرته ونشـره فى الآفاق ، مما جعلهم يصبغون حروبهم ضـد غير المسلمين ، بصبغة الجهـاد فى سبيل الله لحمـاية دين الله الحق من كيد أعدائه ، كمـا تمسكوا تمسـكا شديدا بالمذهب السنى مذهب دولة الخـلافة العباسية التى كانوا يعيشون فى كنفهـا ، فأظهروا الولاء لهـذه الخلافة . وكانوا يعـدون أنفسهم جنـودا مخلصين لهـا ، مما أكسبهم حب المسلمين الذين يعيشون داخـل حـدود دولة الخـلافة ، وقـد ضعفت دولة السلاجقة حين اختلف سلاطينها مع الخلفاء العباسيين وحاربوهم ٠

وأثرت بداوة السلاجقة كذلك فى حبهم للمظاهر الدينية الخلابة كحبهم للمتصوفة وفرقهم وما يظهرونه من زهـد وما يقومون به من ذكر ، فازداد التصوف انتشارا فى العصـر السلجوقى ، وظفرت فرق الصوفيـة باحترام الناس والحكام ، واكتسب شيوخ الصوفيـة احترام السلاطين(٢) فارتفع شأنهم ، وعظم تأثيرهم فى حيـاة الناس مما ساعد على انتشـار البـدع والخرافات ٠

كما كان لبداوة السلاجقة أثر فى حبهم للأشياء المادية البراقة كالمبانى الفخمة والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة والفنـون المختلفـة من رقص وغنـاء وشعر وموسيقى ، فقد كانت هـذه الأشياء ترضى أذواقهم ، وتسد ما فى أنفسهم من فراغ ثقافى ، وضحالة حضارية ، مما ساعد على ازدهار الفنون المختلفة فى العصـر السلجوقى ، فراجت رواجا ملحوظا ، وارتقت

---

(١) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ٠

رقيا ملموسا ، فارتقت فنــون النقش والتصوير والصنعة والمعمار الى درجة رفيعة ، كما اثبت الدارسون من المتخصصين فى هذه الفنــون لأن سلاطين السلاجقة كانوا يعشقونها(١) ، ويجزلون العطاء للمشتغلين بها ، ويرعون رجالهــا(٢) ٠

وهكذا أثر ظهور قوة السلاجقة ، وقيــام دولة لهم ، وغلبــة البداوة عليهم فى كثير من مظاهر الحياة فى عصرهم وفى مختلف ألوان الحضــارة الاسلاميــة فى ايران والعراق وسائر البـــلاد الاسلاميــة التى كانت تحت سيطرتهم ، وينبغى على الدارس للعصر السلجوقى أن يتنبه الى هذه الظاهرة وأثرها فى ألوان النشاط البشرى المختلفة فى ذلك العصر حتى تقوم دراسته على أسس صحيحة تؤدى الى فهم صحيح ونتائج علمية تصور واقع العصر السلجوقى تصويرا دقيقا ، وقــد فضلت التنبيه الى تلك الظاهرة منذ البداية قبل دراسة قيــام الدولة السلجوقية وما تم فى عصرها فى ايران والعراق ، والله الموفق ٠

قيام الدولة السلجوقية :

شهد النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ظهور قوة السلاجقــة وقيام دولتهم ، وقد تهيأت لهم الأسباب التى أدت الى قيام هذه الدولة ، فقد طابت لهم الحياة فىبلا د ما وراء النهر فى أوائل ذلك القرن ــ كما وضحنا ــ وكثر عــددهم ، وازدادوا ثراء وعتادا . وتمكنوا فى خــلال سنوات قليلة من اعداد جيش قوى كبير ، فصاروا قوة يخشى بأسها ويرهب جانبها(٣) ٠

وشعر جيران السلاجقة من الخانيين والغزنويين بازدياد قوة هــؤلاء السلاجقة ، وما يمكن أن ينجم عن ازديــاد قوتهم من خطر عليهم ، فأخــــذ الخانيون يتدارسون مع الغزنويين خطة لاضعاف السلاجقة ، وفل شوكتهم ٠

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع ايران (ترجمة فريار) ، ص ١٤٢ ٠

(٢) M. S. Diman : A Handbook of Mohammad an Art. P. 179.

(٣) الراوندى : راحة الصــدور ، ص ٨٦ ــ ٨٧ ، ابن الأثير : الــكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ ٠

وكان الغزنويون حينذاك فى أوج قوتهم فى عهد السلطان محمود الذى كان قائدا مظفرا ، مرهوب الجانب ، يقوم بغزو بلاد الهند بين حين وآخر ، ويوطد حكم المسلمين فى ربوعها المختلفة وينشر الاسلام فى أرجائها ، ويحظى بتأييد الخليفة العباسى امام أهل السنة فى ذلك الوقت ، فكان يستطيع بقوته ونفوذه القضاء على الخفر السلجوقى فى مهده ، فلما شكا اليه الخانيون من ذلك الخطر المتوقع ، وطلبوا منه تدبير خطة لدفعــه والقضــاء عليه ، بــادر السلطان محمود بالايقاع بالسلاجقة باستعمال الحيلة والدهاء والغدر للتخلص من خطرهم القــائم وراء ظهره(١) ، بينما هــو مشغول بمواصلة غزو بلاد الهنــــــد ٠

وكان السلاجقة قد زادوا من مخاوف السلطان محمود من نــاحيتهم ، بمحاولتهم توسيع دائرة ممتلكاتهم بالاغارة على الأراضى المجاورة لأمــاكن نزولهم ، فأدرك محمود خطر وجود قبائل كثيرة العدد والعدد وراء ظهره ، وكان يعرف جيدا نتائج تجمع القبائل وتكوينها الجيوش ، فبادر بالاستجابــة لرغبة الخانيين فى القضاء على الخطر السلجوقى ، قبل أن يتمكن السلاجقة من اقامة دولة لهم ، كما فعل الخانيون والغزنويون من قبل ٠

وفى عــام ٤١٥هـ (١٠٢٤م)(٢) اتفق السلطان محمــود الغزنوى مع الخــانيين ــ الذين كانوا حينذاك أصهاره وأصــدقاءه ــ على تبرير مؤامرة للايقــاع بالسلاجقة عن طريق الحيلة والخداع والغــدر ، فأرســل السلطان محمــود الى اسرائيل زعيم السلاجقــة يدعوه الى الالتقــاء به بالقــرب من شاطىء نهر جيحون(٣) حيث أعــد مخيما لاستقباله لعقد اتفاق بين الطرفين لتنظيم وسائل التعــاون بينهما ، لتوثيق أواصر الأخوة وحسن الجوار بين الغزنويين والسلاجقة ٠

وخدع اسرائيل بما جــاء فى رسالة السلطان محمود فأسرع بصحبة وجوه قومه الى لقائه فى المكان الذى حدده ، وأحسن محمود استقبال زعيم

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٧ ــ ٨٨ ٠
(٢) گرديزى : زين الأخبار ص ٧٠ ــ ٧١ ٠
(٣) المرجع السابق ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٨ ٠

السلاجقة والذين معه . وأكرم وفادتهم . ثم عرض عليهم عقد ميثاق معهم . يسجل الود والصداقة والرغبة فى التعاون بين الطرفين . لأن المسلمين ينبغى أن يسود بينهم الود والاخاء ، فلا يكون بأسهم بينهم شديداً ، فرحب اسرائيل زعيم السلاجقة بما عرضه محمود الغزنوى وهو لا يعلم أن هذا السلطان يدبر أمرا للقضاء على قوة السلاجقة . ويتظاهر بالمدبة وهو يضمر الغدر ، وينوى القبض على اسرائيل ورفاقه فى أثناء استضافتهم .

وقد صور الراوندى(١) مؤرخ السلاجقة فى كتابه راحة الصدور وآية السرور كيفية الغدر باسرائيل ومن معه من وجوه السلاجقة بواسطة الاسراف فى تكريمهم واقامة الولائم لهم ، ثم تقديم قدر كبير من الشراب لهم فى الليلة المحددة للقبض عليهم ، فلما أسرف قادة السلاجقة فى الشراب تلك الليلة سكروا واستغرقوا فى النوم . فكبلوا بالحديد . وحملوا الى السجون ، فظل اسرائيل زعيم السلاجقة فى السجن فى قلعة كالنجار بالهند بعيدا عن أهله وعشيرته سبع سنوات الى أن توفى فى سجنه ٤٢٢هـ (١٠٣٠م) بعد وفاة السلطان محمود بعام .

وقد أغضب هذا العمل الغادر السلاجقة أيما اغضاب ، فملأ نفوسهم كرها للغزنويين ، وجعلهم يعقدون العزم على الأخذ بالثأر لزعيمهم اسرائيل ورفاقه متى وجدوا الى ذلك سبيلا .

وخلف ميكائيل بن سلجوق أخاه اسرائيل فى زعامة السلاجقة ، وكان عاقلا حكيما ، فلم يبادر بالاشتباك فى حرب ضد الغزنويين ، لما كان يعلمه علم اليقين من قوة السلطان محمود ، ومكانته عند الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، فآثر التريث والانتظار ، حتى لايعصف اظهار العداوة للغزنويين بالبقية الباقية من قوة السلاجقة ، وأخذ يحارب الغزنويين بسلاحهم ، سلاح الحيلة والدهاء الذى استعمله محمود ضد قادة السلاجقة . فأرسل ميكائيل الى السلطان محمود يلتمس منه الاذن للسلاجقة بالمرور من الأراضى

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ٨٨ ــ ٩٠ .

الخاضعة لنفوذه من بلاد ما وراء النهر فى طريق انتقالهم الى اقليم خراسان وكان ذلك فى عام ٤١٨هـ (١٠٢٧م) ٠

وعلم والى طوس بما التمسه السلاجقة من السلطان محمود الغزنوى ، فأرسل اليه يحذر من اجابتهم الى ملتمسهم ، والسماح لهـم بالوصول الى خراسان ، وبين له أن وجـود السلاجقة فى اقليم خراسان بعيـدا عن رقابة السلطان أمر خطير يهدد دولته بأوخم العواقب ، غير أن السلطان الغزنوى لم يأبه بتحـذير والى طوس ، ولم يستمع الى نصحيته ظانا أن السلاجقة قد ضعفوا وذهبت ريحهم بعـد ايقاعه بزعيمهم اسرائيل واعتقاله وسجنه هـو وعدد من كبار قومه ، بدليـل أنهم خنعوا ، فلم يثوروا احتجاجا على ما حل بقادتهم ، ولم تصدر منهم حـركة معادية للغزنويين ، ولم يفكروا فى الأخـذ بالثـأر طوال السنوات الثلاث التى أعقبت اعتقال زعيمهم اسرائيل والذين كانوا معـه ، وكل ما طلبوه أنهم التمسوا من السلطان الاذن لهم بالعبور الى خراسان ، كما ظن السلطان محمود أن أجابتهم الى ملتمسهم فيه تطييب لخواطرهم ، واسترضاء لهم بعـد تعديه عليهم باعتقاله قادتهم ، وخيـل اليه كـذلك أن رحيلهـم الى اقليم خراسان سيجعلهم يكتفون بحيـاتهم القبليـة الموزعة بين رحلتى الشـتاء والصيف ، فلا يتطلعون الى شىء غير الحيـــاة المريحة ، ولا يمـدون أبصارهم الى ما وراء أماكن اقامتهم ، وهكـذا وافق السلطان محمود الغزنوى على ما طلبـه السلاجقة ، فسمح لهم بالرحيل الى خراسان ، فعبروا نهر جيحون واستقروا فى هـذا الاقليم(١) ، وأقاموا فى المنطقة الواقعة بين مدينتى « نسا » و « باورد » ٠

وكما أخطـأ السلطان محمود فى الموافقـة على انتقـال السلاجقة من بلاد ما وراء النهر الى اقليم خراسان ، فقـد أصاب السلاجقـة حين انتقلوا الى هذا الاقليم ، فقد يسـر لهم هذا الانتقال حـرية الحـركة ، وكان بداية لمرحلة جـديدة من مراحل سعيهم وكفاحهم من أجل استكمال أسباب القوة ،

---

(١) البندارى : مختصـر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦ ، الراوندى : راحـة الصدور ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ٠

حتى يتمكنوا من اقامة دولة كدولة الغزنويين ، وهكـذا كان انتقال السلاجقة الى خراسان نقطة تحول فى تاريخهم كما كان ذا نتائج بعيدة المدى فى تاريخ ايران والعراق وكثيـر من بلدان الشرق فى القرن الخامس الهجرى والقرون التالية له مازالت آثارها ملموسة الى يومنا هذا ٠

ولم يكـد السلاجقـة ينزلون باقليم خراسان ، حتى أخـذوا يدعمون قواتهم ، وينتشرون فى المنـاطق المجـاورة لمنـازلهم ، ويتحينون الفـرص للانقضـاض على ممتلـكات الغزنويين واقتلاع جـذور دولتهم من خراسان وبلاد ما وراء النهر ٠

وقـد شعر سكان المنطقة التى تنزل فيهـا قبائل السلاجقة بين « نسا » و « باورد » بقـوة السلاجقة العظيمـة ، وبأنهم لا طاقة لهم بدفع السلاجقـة اذا أرادوا التوسع والسيطرة ، فاشتكوا فى أواخـر عـام ٤١٨هـ (١٠٢٧م) الى السلطان محمـود الغزنوى ، فأفاق السلطـان من غفلتـه ، وتنبـه الى خطئـه ، وأمر والى طوس بمهاجمتهم واجـلائهم من المنطقـة ، فبادر والى طوس بالهجوم على معسكرات السلاجقة ، فهبوا لقتاله وصد هجومه ودارت بين الطرفين معارك حامية رجحت فيها كفة السلاجقة فأوقعوا هزائم ساحقة بوالى طوس وجنوده ، ولم يجد الوالى بدا من الاستنجاد بالسلطان محمود الغزنوى فكان حضـور قوات السلطان الغزنوى لقتـال السلاجقة واشتراكها فى قتال السلاجقة هو الذى وضع حـدا لتفوقهم ، وحول نصـرهم الى هزيمة ساحقة(١) ٠

ويبدو أن ميكائيل زعيم السلاجقة قـد توفى قبل عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) الذى توفى فيه السلطان محمـود الغزنوى(٢) ـ فخلفه فى زعامة السلاجقة ابنه طغرل الذى أعاد توحيد صفوف القبـائل السلجوقيـة ، وتدعيم قوتها ، وكان يساعده فى ذلك أخـوه الأكبـر جغرى ، وكان طغرل وجغرى فارسين

---

(١) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٧٠ ـ ٧١ ٠
(٢) لم يرد ذكر صريح لسنة وفاة ميكائيل ، غير أنه يفهم من كلام ابن الأثير فى تاريخه أن ميكائيل توفى قبل محمود الغزنوى ٠ ارجع الى ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٣٢هـ ٠

مقـدامين ، يتمتعان بنفوذ كبير بين القبـائل السلجوقيـة ، ويحظيان بحب الجنـد وثقتهم ، فنجحا فى تقوية جبهـة السلاجقة وأخـذا يتحينان الفرص المواتية للأخذ بالثـأر من الغزنويين ؛ وكانت وفاة السلطان محمود فى عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) واضطراب الدولة الغزنوية بعـد وفاته ـ لاختـلاف أبنائه وتنازعهم على العرش ـ خير فرصـة واتت السلاجقـة حينذاك ، فحـاولوا الاستفادة منهـا ، وأخـذوا بزعامة طغرل يسيطرون على الأراضى المجاورة لمساكنهم ، وينتشـرون نفوذهم على أنحـاء كثيرة من اقليم خراسان ، حتى تمكنوا فى خـلال بضع سنوات من توسيع سيطرتهم على الأجزاء المهمة من هذا الاقليم والاقتراب من نيسابور ·

وفى عام ٤٢٦هـ (١٠٣٤م) طلب السلاجقة من والى نيسابور أن يسمح لهـم بالنزول بالقـرب من المدينـة والاقامة حولها ، فرفض الوالى ، وأحس بالخطر الذى يتهـدده ، فاستنجـد بالسلطان مسعود بن محمـود الغزنوى ، وطلب منه الحضـور الى نيسابور ، للقضاء على هـذا الخطر السلجوقى الداهم ، فأسـرع مسعود على رأس جيش قـوى لقتـال السلاجقـة وهاجم معسكراتهم بالقرب من مدينـة « نسا » وتمكن من انزال هزيمـة قاسية بهم ، غيـر أنهم ، لم يلبثوا أن أعادوا تنظيم صفوف قواتهم ، ثم هاجمـوا قوات مسعود الغزنوى وانتصروا عليها انتصارا باهرا ، فاضطر مسعود الى عقد صلح معهم ، ترك بمقتضـاه المنطقـة لهم ، وبادر بالرحيل الى بلاد الهنـد لترتيب أمورها واقرار الأوضاع فيها(١) لاشتغال الفتن والمنازعات فيها ·

وهكذا خلا الجـو للسلاجقة فى اقليم خراسان ، فتهيأت لهم الأسباب ، لتدعيم نفوذهم وبسط سلطانهم على هـذا الاقليم ثم التفـكير فى اقامة دولة لهم فى ربوعه تكون ندا للدولة الغزنوية ·

اعلان قيام دولة السلاجقة :

كان السلاجقـة بزعامة طغرل أقوياء متماسكين ، بينما كان الغزنويون فى عهـد مسعود متنازعين مختلفين ، فـكان مسعود مشغولا باخماد الفتن

---

(١) يمكن الرجوع الى تاريخ البيهقى ، ص ٥٧١ ـ ٥٩١ لمعـرفة مزيد من من المعلومات عن هذه الأحداث ·

التى تطل برأسها بين حين وآخر فى أنحـاء الدولة الغزنوية بعامة وفى بلاد الهنـد بخاصة ، مما جعـل الوقت فى صالح السلاجقة ، ومكنهم من تثبيت أقدامهم فى اقليـم خراسان ، والاستعداد لقتـال الغزنويين اذا فكروا فى معاودة الهجوم عليهم ، أو حاولوا اجلاءهم عن ذلك الاقليم ٠

ولم يستسلم السلطان مسعود الغزنوى للأمـر الواقع فى خراسان ، فيقبل وجـود السلاجقة سادة فى هـذا الاقليم ، فصمم فى عـام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) على وضع حـد لنفوذهم والقضاء عليهـم ، لاستعـادة سيطرته على خراسان ، فقـدم على رأس جيش جرار لقتال السلاجقة ، واجلائهم عن الاقيلم ، وهاجم معسكراتهم بالقرب من مدينـة سرخس فى آخـر شعبان من العام المذكور(١) ، فدرات بين الطرفين معركة حامية الوطيس ، قاتل فيهـا الطرفان ببسالة ، كل يريد تحقيق هـدفه ، غير أن كفـة السلاجقة رجحت فى النهاية ، فحققوا نصـرا باهرا على الجيش الغزنوى الذى انسحب من المنطقـة ، تاركا اقليم خراسان كله لقمـة سائغة للسلاجقة ، بعد أن صارت قوتهم أعظم قوة فى خراسان ٠

وكان انتصـار السلاجقة حافزا لهم على الاسراع باعلان قيام دولة لهم ، لجنى ثمار انتصاراتهم ، فبـادر زعيمهم طغرل بالسير على رأس جيش السلاجقة الى نيسابور ، ودخلها فى شهر ذى القعدة من عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) الذى تحقق فيـه النصر قبـل ذلك ، وجلس على عرش مسعود(٢) فى تلك المدينة معلنا قيام دولة السلاجقة ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه ، واتخذ لقب السلطان(٣) ، فكان بذلك أول سلطان للسلاجقة ٠

---

(١) يوجد مزيد من المعلومات عن هذه الموقعة فى تاريخ البيهقى ، ص٦٥٩ وما بعدها ٠

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٣ وما بعدها ٠

(٣) كان لـكل فرد من أفراد البيت السلجوقى اسمان اسـم قبلى واسـم اسلامى ؛ فطغرل الاسم القبلى لهـذا السلطان أما اسمه الاسـلامى محمد وكنيتـه أبو طالب ولقبـه بك قبل توليه العرش فهـو طغرل بك أبو طالب محمد أما أخـوه چغرى فلقبـه بك واسمه الاسـلامى داود وكنيته أبو سليمان ، فهو چغرى بك ، أبو سليمان داود ٠

والواقع أن عـام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ينبغى أن يعـد البداية الفعليـة والحقيقية لقيـام الدولة السلجوقية ، فقد باشر طغرل مهامه باعتباره سلطانا للدولة منذ ذلك التاريخ ؛ صحيح أن الخليفـة العباسى لم يعترف بقيام دولة للسلاجقة ، وبطغرل سلطانا عليها الا فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) حين وصلت اليه رسالة السلاجقة تطلب الاعتـراف بدولتهم ، مما جعـل أكثر المؤرخين يعدون هـذا العام بداية لدولة السلاجقة . غير أن من الانصاف أن نقرر أن هـذه الدولة قامت فعلا فى عـام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ، لأن اعتـراف الخليفـة العباسى حينذاك كان من الأمور الشكليـة ، لاعطاء الدولة صفة شرعيـة ، حتى يرضى الناس عنها ، ويقبلوا حكمها ، لأن الخيلفـة العباسى لم تكن له قوة مادية فى ذلك الوقت ، بحيث يستطيع التدخل والمساهمة فى توجيه سير الأحداث ، بل كان سلطانه روحيا باعتبـاره امام المسلمين ، وخليفـة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يجعـل الحكام الجـدد يحرصون على الحصول على اعتراف منـه بسلطانهم ، حتى يكسبوه صفـة شرعية ، فيلتف النـاس حـولهم .

وكان الخليفـة العباسى يعترف غالبـا بسلطان من غلب وانتصر ، كما أجمعت على ذلك الكتب المختلفـة على اختلاف مذاهب مؤلفيهـا ، وسنرى عند عرض الأحـداث فى الدولة السلجوقيـة فى القـرن السادس الهجرى الدلائل على ضعف الخليفة العبـاسى واعترافه بسلطنة أى فرد من أفراد البيت السلجوقى يدخل بغداد على رأس جيش ، ثم يسحب اعترافه به بمجرد دخول فرد آخر بغداد ، وتغلبه على الأول وهكذا ، مما يثبت بما لايدع مجالا للشك أن اعتـراف الخيلفـة العباسى كان شكليـا لاكسـاب الوضع صفـة شرعيـة ، ولذلك يمكن اعتبـار عـام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) بداية حقيقية للدولة السلجوقية ، وعام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) بداية رسمية لهذه الدولة .

وكان قيـام دولة السلاجقة حـدثا بارزا فى تاريخ ايران والعراق بخاصة ، وفى تاريخ العالم الاسلامى بعامة لأن السلاجقة ظهروا على مسرح التاريخ فى صـورة دولة فتيـة قوية ، ساهمت مساهمة واضحة ملموسة فى

توجيه سير الأحداث فى الشرق الاسلامى ، ثم فى توجيه سير الأحداث فى الغرب النصرانى ، مما مهد لاشتعال نيران الحروب الصليبية بعد ذلك ·

وقد سيطر السلاجقة فى عصرهم على جزء كبير من العالم الاسلامى ، وعلى جزء من أراضى الدولة الرومانية (البيزنطية) فى آسيا الصغرى ، ونشروا الاسلام فيها ، وكان لهذا أثر باق حتى يومنا هذا ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها مما يجعل العصر السلجوقى فى ايران والعراق جديرا بدراسة المسلمين وغير المسلمين على السواء ·

ولم يمر اعلان قيام دولة السلاجقة دون مقاومة من جانب الغزنويين ، فقد جن جنون السلطان مسعود الغزنوى حين علم بجلوس طغرل السلجوقى على العرش فى نيسابور واعلانه قيام دولة للسلاجقة وتلقبه بالسلطان ، فعزم على قتال السلاجقة واسقاط دولتهم ، وقتلها فى مهدها ، فأعد جيشا لمحاربة السلاجقة ، وبذل جهودا متوالية بين عامى ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) و ٤٣١هـ (١٠٣٩م) للقضاء عليهم ، ولكن جهوده باءت بالفشل فى النهاية ، وأدت الى تمكين السلاجقة واحكام قبضتهم على خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وقطع كل أمل للغزنويين فى عهد مسعود وفى عهود خلفائه للسيطرة على شىء من ايران أو بلاد ما وراء النهر ·

وكان آخر قتال بين مسعود والسلاجقة فى عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م) عند « دندا نقان » حين دارت الدائرة على جيش مسعود بعد انتصاره فى البداية ، فهزم هزيمة نكراء ، انقلب بعدها الى غزنه مدحورا ، بينما رجع طغرل الى نيسابور عزيزا منصورا ·

وكانت موقعة « دندا نقان » من المواقع الحاسمة الفاصلة فى تاريخ كل من الغزنويين والسلاجقة ، لأنها كانت موجهة لتاريخ كل من الدولتين ، كما كانت ذات نتائج وآثار عظيمة فى تاريخ ايران والعراق وما جاورهما من بلاد المسلمين وغير المسلمين ، فقد أدى انتصار السلاجقة الى ظفرهم بمغانم كثيرة مادية ومعنوية ، فأحكموا بعدها سيطرتهم على خراسان وما وراء النهر ، وظفروا باعتراف الخليفة العباسى بقيام دولتهم ، وأخذوا يستعدون لبسط سلطانهم على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام ، وكل

ما يستطيعون اليه وصولا من بلاد المسلمين وغير المسلمين ، بينما انحسرت الدولة الغزنوية عن ايران وما جاورها من بلاد ما وراء النهر ، فلم يفكر الغزنويون بعدها فى مناوأة السلاجقة ، بل صاروا يخشون بأسهم وتدخلهم فى أمور الدولة الغزنوية نفسها ، كما لم يحاول أحد من حكام الأقاليم فى ذلك الوقت معاداة السلاجقة ، فقوى أمرهم قوة عجيبة ، والتف حولهم جند كثيرون من جميع أطراف خراسان ، فأصبحت دولتهم وطيدة الأركان ، راسخة البنيان ، مرهوبة الجانب ممن حولها من الجيران ٠ الى درجة أن المسلمين فى ايران والعراق رحبوا بحكم السلاجقة وسيطرتهم على البلاد الاسلامية المختلفة ، وأخذ الخليفة العباسى ـ بعد اعترافه بقيام دولة السلاجقة ـ يكرر الدعوة للسلطان طغرل لزيارة بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية السنية ، مما شجع السلطان السلجوقى الأول على مواصلة العمل لبسط سيطرة السلاجقة على ايران والعراق ودخول عاصمة الخلافة دخول الفاتحين ٠

فبدأت منذ عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) مرحلة جديدة من مراحل تاريخ السلاجقة سنتبين أبعادها فيما يلى ٠

الفصـــل الثالث

سيطرة السلاجقة على إيران والعراق

أولا : سيطرة السلاجقة على ايران

شـــرع السلاجقــة بعــد نصــرهم المبين على الغزنويين فى موقعــــة « دندا نقان » الفاصلة فى عــام ٤٣١هـ (١٠٣٩م) واعتراف الخليفة العباسى القائم بأمر الله بقيــام دولتهم ، وهو الاعتــراف الذى صدر فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) ، شرعوا فى السيطرة على أجزاء ايران المختلفـــة ، حتى يزدادوا قدرا فى نظر الخليفــة العباسى ، فتعلو كلمتهم فى ايران والعراق ، فبدأ منذ عــام ٤٣٢هـ تكوين دولة السلاجقــة الـكبرى التى احتلت مـكانا بارزا فى التاريخ ٠

وكان طغرل أول سلاطين السلاجقة قائدا ماهرا حكيمــا فعرف بطبيعته القبلية أن كبــار أفراد أسرته يحبون الرئاسة والجــاه ، فمن الخيــر توزيع المناصب عليهم حتى يمكن سد الثغرات التى قد تثير المنازعات بينهم ، فتتوحد بذلك صفوفهم ، فيظلون قوة كبيــرة فى وجه أعدائهم ، فاجتمع طغرل لهــذا الغرض بأخيه الأكبر جغرى وعمه بيغو(١) ، وأبنــاء عمه وكبــار رجالات السلاجقة ، وتدارس معهــم الخطــوات التى ينبغى عليهم أن يخطــوها بعــد اعلان قيام دولتهم ، واعتــراف الخلافة العباسيــة بهــا ، فاتفق رأيهم على التحــرك غــربا للسيطرة على ايران ثم العراق ، وتعاهــدوا على أن يظلوا متحــدين متماسكين حتى يظلوا أقوياء مظفرين ، وعلى أن يدعــوا التنازع

---

(١) هــذا هو اسمه القبلى أما اسمه الاسلامى فهو موسى لأن كل واحد من ولاة السلاجقة الأول كان له اسم قبلى واسم اسلامى كما ذكرنا ٠

حتى لا تتفرق صفوفهم فتذهب ريحهم ، وبايعوا طغرل سلطانا على الدولة السلجوقية الكبرى ، مهما اتسعت حدودها ، عينوه قائدا أعلى للجيوش السلجوقية مهما كثرت ، وأقسموا جميعا على أن يدينوا له بالطاعة والولاء دائما ٠

وكان طغرل خير من يحمل الأمانة من السلاجقة ، لأنه كان ذا شخصية قوية ، وذكاء حاد ، وشجاعة فائقة ، وتدين ملحوظ ، فأدت هذه المقومات جميعها الى التفاف الجند والقبائل حوله ، واسنادهم القيادة العليا اليه(١) ٠

وقد أحسن طغرل التصرف منذ البداية ، فوزع المناصب بين أفراد أسرته ، فعين كل واحد منهم واليا على ولاية من الولايات التى ينوى السلاجقة فتحها ، وسيره على رأس جيش اليها ، وأذن له بأن يفتح مايستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها ، وبأن يضم ما يفتحه الى منطقة نفوذه ، على أن يحرص على عدم التنازع مع عضو آخر من أعضاء الأسرة السلجوقية على منطقة من المناطق ، وبذلك أرضى طغرل طبيعة السلاجقة القبلية المحبة للرئاسة والجاه ، ووجهها الوجهة الصحيحة النافعة التى تحقق الخير للسلاجقة ، وتبعد عنهم الشر والتفرق ٠

وقرر طغرل أن يسير هو على رأس أكبر جيوش السلاجقة لفتح قلب ايران ثم يسير بعد استكمال سيطرة السلاجقة على ايران لفتح العراق وبسط نفوذ السلاجقة على عاصمة الخلافة الاسلامية ، كما قرر اتخاذ مدينة « الرى »(٢) ٠ عاصمة لدولة السلاجقة الكبرى ، بدلا من نيسابور حتى تكون العاصمة الجديدة فى مكان وسط بالنسبة لأقاليم الدولة المختلفة ٠

وهكذا بدا واضحا أن طغرل كان مصمما على ارساء دعائم دولة كبرى للسلاجقة ، تضم ايران والعراق وما تستطيع الى ضمه سبيلا من

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ ٠

(٢) هى مدينة طهران الحالية ، فقد كانت الرى هى المدينة وطهران قرية تابعة لها ثم تغيرت الحال منذ أكثر من قرنين فأصبحت الرى قرية تابعة لمدينة طهران ٠

من أرجاء العالم الاسلامى الاخـرى ، وهو هدف يحتـاج تحقيقة الى جمع الكلمـة ، مما جعله يجمع شـمل أفراد أسـرته ويستعين بهم ، فى بلوغ ذلك الهدف المنشود ٠

وأخذ طغرل يحقق آماله بعـد تنظيم صفوف السلاجقة وتحقيق هدفهم ، فبدأ بالكتابة الى الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، طالبا منه الاعتراف بقيام دولة السلاجقة ، حتى تأخذ صفة رسمية ، وتصطبغ بصبغة شرعية ، فيستطيع السلاجقة التحرك وفتح الأقاليم المختلفة ، على أنهم جنود الخلافة العباسية ٠

وكانت رسالة طغرل الى الخليفـة القـائم بأمر الله العباسى فى عـام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) متضمنة ولاء السلاجقة للخـلافة العباسية ، وحبهم للجهاد فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، ومبينـة ما فعله السلطان محمود الغزنوى بعمهم اسرائيل بن سلجوق ومن معه من رجالات السلاجقة ، كما شرحوا فى رسالتهم حالة المسلمين تحت حكم السلطان مسعود بن محمود الغزنوى الذى انشغل باللهو والشـراب ، وأهمل أمر الرعيـة ، فكثرت الفتن والاضطرابات فى أنحاء الدولة الغزنوية ، مما جعـل عظماء خراسان يختـارون السلاجقة لحمـاية المسلمين ، ورعاية مصالحهم ، ثم ذكروا هجـوم مسعود الغزنوى عليهم أكثر من مرة ، وما حدث بين الطرفين من حروب طاحنة ، انتصر فيها السلاجقة بتأييد من الله ، ثم طلب السلاجقة فى نهاية رسالتهم من الخليفة العباسى الموافقة على قيام دولتهم ، والاعتراف بشرعية قيامها على أساس من الدين وأمر من أمير المؤمنين(١) ٠

وبعد ارسال هـذه الرسالة الى الخليفة العبـاسى توجه أفراد البيت السلجوقى كل الى المنطقة التى عين واليـا عليهـا ، وخصصت لفتوحاته وتحركاته ، وصـار يتخـذ لقب ملك على منطقته ، أما الرئيس الأعلى للدولة السلجوقية كلهـا ، وهـو طغرل ، فكان يتخذ لقب السلطان ، وهكـذا كان للطبيعة القبليـة أثرها فى سلوك أفراد البيت السلجوقى ، وحبهـم للرئاسة والجاه ، وقد أرضى زعيمهم طغرل هـذه النزعة فيهم ، فعينهم حكاما وقوادا

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ٠

وملوكا ، وكان كل ملك منهم مطلق الحرية فى حكم المنطقة المخصصة له ، وفى فتح الأقاليم المجاورة لها ، دون أن يتعدى على غيره من أفراد أسرته ــ كما ذكرنا ، كما كان لكل ملك منهم جيشه الخاص ووزيره وحجابه ، ومعاونوه فى الحكم والادارة ، وكأن منطقته دولة قائمة بذاتها ، مع التزام أفراد البيت السلجوقى جميعا بالطاعة والولاء للسلطان الرئيس الأعلى لهم وللدولة السلجوقية مهما امتدت أطرافها ٠

وكان هذا التنظيم مفيدا للدولة فى عهد قوتها وتماسكها ، فقد حرص كل فرد حاكم من أفراد البيت السلجوقى على الالتزام بالعدل والخلق الحسن ، حتى ينضم الناس اليه ، كما حرص على تكريم علماء الدين وشيوخ الصوفية حتى يثنوا عليه ، فيزداد حكمه قوة وثباتا ٠

غير أن تقسيم الدولة الى ولايات شبه مستقلة أصبح شرا فى عهود ضعف السلاجقة وكثرة المنازعات فى أرجاء الدولة ، فساعد على تمزقها ، وسرعة انهيارها وزوالها ٠

ومهما يكن من شىء فقد سارت الدولة السلجوقية منذ قيامها وفق هذا التنظيم الذى ظهرت فيه الروح القبلية البدوية ، وشعر طغرل أول سلاطينها بالاطمئنان بعد أن أعلن الخليفة العباسى القائم بأمر الله موافقته على قيام دولة السلاجقة وعلى تعيين طغرل سلطانا عليها ، وأقر حكم السلاجقة على المناطق التى تحت سيطرتهم ، كما فرح طغرل بسير أفراد أسرته الى الأقاليم المخصصة لكل منهم ، فبدأ هو بتنفيذ ما بقى من خطته بهدف اتمام سيطرة السلاجقة على ايران ثم الانطلاق منها للسيطرة على العراق ٠

وقد تحرك طغرل على رأس جيش قوى كبير فى عام ٤٢٣هـ (١٠٣١م) لتحقيق ذلك الهدف ، وكان الديالمة يسيطرون على أكثر أجزاء ايران ، ويغلب نفوذهم على العراق ، ولكنهم كانوا حينذاك ضعافا متنازعين ، مما يسر للسلطان طغرل السلجوقى مهمة الانتصار عليهم ، والقضاء على حكمهم فكان النصر حليفه فى جميع الحروب التى انتهت بسيطرته على ايران والعراق ، والوصول الى مقر الخلافة العباسية ودخولها دخول الفاتحين ٠

وقد بدأ طغرل بالهجوم على جرجان وطبرستان للقضاء على حكم آنوشيروان الزيارى الديلمى الذى كان يسيطر على هذين الاقليمين ، فلما أدرك آنوشيروان قوة طغرل ، وأيقن أنه لاطاقة له بقتاله ، أعلن خضوعه له ، وتعهد باطاعته ، وأداء ضريبة سنوية له ، وهكذا ضم طغرل تلك المنطقة الى دولة السلاجقة(١) ثم لم يلبث أن أزال حكم الزياريين الديالمة منها ، وعين واليا من قبله عليها ، فكان هذا ايذانا بسقوط الدولة الزيارية وغروب شمسها فى ايران(٢) ٠

ثم سار طغرل بعد ذلك لفتح خوارزم ، فغزا هذه المدينة فى عام ٤٣٤هـ (١٠٤٢م) ، وتمكن من فتحها ثم سيطر على المنطقة المجاورة لها ، وبسط نفوذ السلاجقة عليها فأصبحت قوة السلاجقة أكبر قوة فى ايران وبلاد ما وراء النهر ، بحيث سارع حكام الأقاليم باعلان الطاعة والولاء للسلاجقة ، وأظهروا استعدادهم لدفع ضريبة سنوية لهم ، فلم يجد طغرل مانعا من التوجه الى وسط ايران لغزو مدينة الرى ، فسار على رأس جيشة الكبير نحو هذه المدينة فى العام نفسه ، ودخلها دخول الفاتحين ، واتخذها عاصمة له ، ومقرا لحكومته(٣) ٠

وشعر الخلفة العباسى القائم بأمر الله بازدياد قوة السلاجقة وارتفاع نجمهم ، واطراد تقدمهم ، فبادر بارسال مبعوث من قبله الى مدينة الرىيحمل دعوة من الخليفة للسلطان السلجوقى لزيارة بغداد ٠

وقد ابلغ مبعوث الخليفة السلطان السلجوقى بأن الخليفة سر برسالة السلاجقة اليه أيما سرور ، وتقبلها بقبول حسن ، ورد عليها ردا رقيقا يتضمن موافقته على قيام دولة السلاجقة ، وأن الخليفة يسره أن يرى سلطانالسلاجقة فى بغداد مقر الخلافة ضيفا عزيزا وزائرا كريما ، فأحسن طغرل استقبال

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٣هـ ٠

(٢) ينتسب الزياريون الى وشمسگير أخى مرداويج ، وكانت الدولة الزيارية تسيطر على أجزاء كثيرة من ايران من أهمها جرجان وطبرستان وجيلان وقد استمر حكمها من ٣١٦ ــ ٤٣٣هـ (٩٢٨ ــ ١٠٤١م) ٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤هـ ٠

مبعوث الخليفة ، ورحب بدعوته اياه لزيارة بغداد ، ووعد بالقيام بها فى الوقت المناسب(١) ، وظل مبعوث الخلافة مقيما فى الرى ثلاث سنوات لاصطحاب طغرل حين يتوجه لزيارة بغداد ثم رجع وحده بعد أن أكد له طغرل حرصه على هذه الزيارة بعد فراغه من غزو الأقاليم الغربية والجنوبية من ايران بعد أن بسط سيطرة السلاجقة على الأقاليم الشرقية منها ٠

ثم أخذ طغرل يبسط سيطرة السلاجقة على الأقاليم الغربية من ايران ، وتمكن من السيطرة عليها دون عناء كبير لضعف أمراء الديلم فى تلك الأقاليم، فخضعت له قزوين وأبهر وزنجان وهمذان واذربيجان ، ودان له أمراء الديلم حكام هذه الأقاليم بالطاعة والولاء ، كما أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان(٢) وهكذا سيطر السلاجقة على أجزاء كثيرة من ايران بعد بضع سنوات من قيام دولتهم ، وأخذ طغرل يتفقد تلك الأجزاء حتى يطمئن بنفسه الى رسوخ قواعد دولة السلاجقة فى ايران ٠

كما أرسل طغرل أخاه من أمه ــ ابراهيم اينال ــ الى همذان والأجزاء الغربية المجاورة لها لتثبيت نفوذ السلاجقة فيها ، فتوجه فى عام ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) للقيام بهذه المهمة(٣) ، ورجل من كرمان الى همذان ، وحدثته نفسه بالتمرد ، واتخاذ مدينة همذان قاعدة له ، فاضطر طغرل الى التوجه بنفسه فى عام ٤٤١هـ (١٠٤٩م) الى المناطق الغربية لاخماد الفتنة واقرار الأوضاع فيها ، فتوجه ــ أولا ــ الى همذان ،فلما اقترب منها ، أرسل الى أخيه يطلب منه تسليم القلاع التى تحت يده ، غير أن أخاه رفض الاستجابة الى طلبه ، فهاجمه طغرل وانتصر عليه ، ثم عفا عنه بعد استسلامه ، ولم يعاقبه على تمرده هذه المرة ٠

ثم أخذ طغرل يتفقد الأقاليم الغربية فى ايران ، ويحكم سيطرة السلاجقة عليها ، كما تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ديار بكر بعد أن قبل حاكمها ذكر اسم طغرل فى الخطبة(٤) ،واعلان الطاعة والولاء للسلاجقة ٠

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٥ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤هـ ٠
(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٣٧هـ ٠
(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٤١هـ ٠

ثم قاد طغرل الجيش فى أوائل عام ٤٤٢هـ (١٠٥٠م) وتوجه صوب اصفهان لفتحها وبسط سيطرة السلاجقة على الأجزاء الجنوبية من أيران ، وكانت اصفهان تحت حكم الديالمة من آل كاكويه ، وكانت حصينة منيعةفعكف طغرل على حصارها عاما الى أن استسلمت فى شهر المحرم من عام ٤٤٣هـ (١٠٥١م) وسقطت بسقوطها دولة الديالمة فى تلك المنطقة .

كما أرسل طغرل ــ فى أثناء حصار أصفهان ــ جزءا من الجيش لفتح فارس وما جاورها ، وتمت له السيطرة على المنطقة الجنوبية من ايران ، كما تمكن فى الوقت نفسه من السيطرة على يزد وما جاورها(١) .

ثم قاد طغرل الجيش بعد ذلك لتفقد المناطق الشمالية الغربية من ايران وتثبيت سيطرة السلاجقة عليها ، فتوجه فى عام ٤٤٦هـ (١٠٥٤) الى اقليم آذربيجان ، ودخل مدينة تبريز عاصمة الاقليم ، وبسط نفوذ السلاجقة على جميع أجزاء آذربيجان ، وعلى بعض الأجزاء من بلاد الروم (آسية الصغرى) المتاخمة لآذربيجان ، ثم رجع بعد ذلك الى مدينة الرى(٢) عاصمة دولة السلاجقة ، وهكذا اتسع نفوذ السلاجقة حتى شمل أكثر أجزاء ايران وأجزاء من الدول المجاورة لها ، وبذلك صار طغرل مستعدا لدخول بغداد دخول الظافرين تمهيدا لبسط سيطرة السلاجقة على العراق .

ثانيا : سيطرة السلاجقة على العراق

كان السلاجقة فى عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) أكبر قوة فى العالم الاسلامى بعد أن بسطوا سيطرتهم على ايران ، وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين ، بينما كانت الخلافة العباسية قوة روحية لا حول لها ولا طول فى ميدانى الحرب والسياسة ، وكانت الأحوال فى بغداد مضطربة ، نتيجة لتدخل البويهيين وقواد الجند فى توجيه سير الأمور ، وعجز الخليفة عن الصمود فى وجه تيار الأحداث ، أو القيام بدور ايجابى فى توجيه هذه الأحداث لأن نفوذ قائد جند الأتراك كان طاغيا فى بغداد وما جاورها ، فلم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقوم على معارضة القائد التركى وجنوده ، كما ذكرنا .

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٤٢هـ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٦هـ .

وكان هـذا القائد حينـذاك يسمى أبا الحـارث آرسلان بن بساسيرى وكان شيعيا يميل الى الفاطميين فى مصـر ، ويتصـل بهم فى الخفاء ، بينما كان نفوذ البويهيين المتمسكين بالمذهب الشيعى مازال معترفا به فى بغـداد عاصمة الخـلافة العباسية ، فكان اسم الملك الرحيم أبى نصر البويهى ، فى ذلك الوقت يذكر فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، غير أن الحاكم البويهى ، كان ضعيفا كذلك أمام القائد التركى وجنـوده ، ولم يكن على وفاق معه ، فانعدم التعـاون بينهما ، كما لم يكن هنـاك وفاق بين الخليفـة والقـائد التـركى البساسيرى(١) الذى كان يحاول بسط نفـوذ الفاطميين على بغـداد اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، حتى يحقق لهم حلما ، طالما راودهم منذ استيلائهم على مصر فى عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ، ألا وهو الانتقام للعلويين من العباسيين ، واسقاط الخلافة العباسية ، والسيطرة على العراق ٠

وهكـذا كانت الأحـوال فى العراق مضطربة ، مما ييسر لقـوة فتيـة صاعدة كقوة السلاجقة بقيادة السلطان طغرل الأول مهمة التدخل والسيطرة على العراق ، حتى ينفـرد السلاجقـة بالامسـاك بزمام الأمـور فى كل من ايران والعرق ، فتصبح لهم الكلمـة العليـا فى دولة الخـلافة العباسية ، ويصيروا مرهوبى الجانب فى العالم الاسلامى كله ٠

وقد شجعت هـذه العوامل جميعهـا السلطان طغرل على التوجه الى بغداد فى شهر المحرم من عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) بحجة تلبيـة دعوة الخليفـة العباسى له من قبل لزيارة عاصمة الخـلافة كما أظهر رغبته فى أداء فريضة الحج ، واصلاح الطريق الى مكة ثم التوجه الى الشام ومصر للقضـاى على الفاطميين بهزيمة المستنصر بالله الخليفة الفاطمى فى القاهرة والاطاحة به ، فأمر طغرل عمـاله فى العراق العربى بجمع الجند ، ثم دخل العراق دخـول الفاتحين ، وكان الملك الرحيم البويهى قد توجه للقـائه غير أنه أيقن بعجزه عن قتاله والانتصار عليـه ، فآثر العودة الى بغـداد ، واتفق مع الخليفـة العباسى القائم بأمر الله على التعاون مع طغرل(٢) وذكر اسمه فى الخطبة

---

(١) ارجع فى بيان هـذه الأحـداث تفصيليا الى ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنتى ٤٤٦ ، ٤٤٧هـ ٠
(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٧هـ ٠

بعد الخليفــة مباشرة على أن يذكر أســم الملك الرحيم البويهى بعــد طغرل السلجوقى وقــد أصدر الخليفة العباسى أمرا بذلك قبــل وصول طغرل الى بغداد ، وبأن يكون لقب طغرل السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد ابن ميكائيل يمين أمير المؤمنين ، فلم يكد طغرل يصل الى بغداد حتى أصبح زمام الأمــور فى يده ، بعــد أن استقبل أروع استقبال ، واعترف الخليفــة العبــاسى به سلطانا على جميع المناطق التى سيطر عليهــا السلاجقة(١) ، فــكان هـــذا ايذانـــا بسقوط دولة البويهيين ، ولم يلبث طغـــرل أن أمر بالقبض على الملـــك الرحيـــم البويهى ، وارســـاله أسيــرا الى الرى ، حيث ظل أسيرا بها الى أن توفى فى عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م)(٢) وقبل الخليفة العباسى الأمــر الواقع ، فأمر فى رمضان من عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) باسقاط أسم الملك الرحيم من الخطبة(٣) ، واسدال الستار على الدولة البويهية ٠

أما البساسيرى قائد جنــد الأتراك فى بغداد ، فقــد انسحب منهــا ، وتوجه الى الموصل حيث والى الاتصــال بالفاطميين ، تمهيدا لاعلان خروجه عن طاعة الخليفة العباسى ٠

وهكذا كان دخــول طغرل بغداد بداية لسيطرة السلاجقة على العراق بعد سيطرتهم على ايران ، فاتسعت بذلك رقعــة دولتهم الفتية ، وصاروا أكبر قوة حربية فى العالم الاسلامى حينذاك ، فأخــذوا يوجهون سير الأحداث فى الشرق أكثر من قرن من الزمان منذ ذلك الوقت ٠

وقــد أقام طغرل فى بغداد ثلاثة عشر شهرا ، توثقت فى خلالها صلاته بالخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وازدادت هــذه الصــلات توثقــا بزواج الخليفة بابنــة أخى طغرل المسمى جغرى بك حاكم خراسان وما وراء النهر ، وكان ذلك فى عــام ٤٤٨هـ (١٠٥٦م) فساعدت المصاهرة على زيادة التقارب بين العباسيين والسلاجقة ، فازداد طغرل قوة ونفوذا ٠

غير أن البساسيرى قائد الجنــد لم يلبث أن جاهر بالعصيان وأخـــذ

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٦ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠هـ ٠
(٣) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٠ ، حمــد الله : تاريخ گزيدة ، ص ٤٣٧ ٠

يعد العدة للسيطرة على منطقة الموصل ، فاشتبك فى قتال مع أنصار طغرل فى شــوال من عـــام ٤٤٨هـ(١) (١٠٥٦م) بالقــرب من سنجار ، وتمكن من الانتصـــار عليهم ، فتم له ما أراد من السيطرة على الموصــل وما حولهــا ، ثم أمر بقراءة الخطبة فيهــا باسم الخليفــة الفــاطمى ، فاضطرب الخليفــة العباسى فى بغــداد اضطرابا شــديدا ، واحتمى بالسلطان طغرل السلجوقى وعينه واليــا على الموصــل وبلاد الجزيرة ، فوجد طغرل واجبــا عليــه أن يسير الى الموصل لقمع فتنــة البساسيرى قبل أن يعظم أمره ، ويشتد خطره ، فترك طغرل دار الخلافة فى العاشر من ذى القعدة من عام ٤٤٨هـ (١٠٥٦م) ، وقصد الموصول وتمكن من قمع فتنة البساسيرى ، واجبــاره على الانسحاب من المنطقة والفرار الى الشام فى عــام ٤٤٩هـ (١٠٥٧م) ، وبسط طغرل نفوذ السلاجقة على الموصــل والجزيرة وديار بكر ، وعين أخــاه ابراهيم اينال واليا من قبله على الموصــل والجزيرة ، ثم قفل راجعا الى بغــداد ، فأحسن الخليفة العبــاسى استقباله ، ولقبه بملك المشــرق والمغرب ، واعترف بنفوذ السلاجقة على جميع البلاد التى تحت سلطانهم(٢) .

غير أن ابراهيم انيال حدثته نفسه بالخرج مرة ثانية على أخيــه ـ من أمه ـ طغرل ، فترك الموصل فى عــام ٤٥٠هـ(٣) (١٠٥٨م) ، وســار على رأس جيش الى همذان ، فاضطر طغرل الى ترك بغــداد مرة أخــرى ، ليقطع الطريق على أخيــه المتمرد قبل وصوله الى همذان وأدركه بالقرب من مدينة الرى ، وأوقع بــه هزيمــة شنيعة فى معركة فاصــلة وضعت نهايــة لتمرده ولحياته ، لأن طغرل ، لم يصفح عن أخه هذه المرة ، بل أمر بقتله ، ليستريح من شره ، وتخمد فتنة نهائيا(٤) ، ويجعل من نهايته عبرة لكل متمرد .

وانتهز البساسيرى فرصــة ظهور شقاق بين أفراد البيت السلجوقى ، فعاود التوجه الى الموصــل واحتلالهــا مرة أخــرى ، ثم أغراه ترك طغرل لبغداد ، بالتوجه لغزو دار الخلافة نفسهــا ، حيث لم يجرؤ الخليفة العباسى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٨هـ .
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٧ .
(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٤٥٠هـ .
(٤) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥ ـ ١٦ .

على التصدى لقتـاله ، فآثر الهرب ، غير أن البساسيرى تمكن من أسـرة ، فأرسله الى عانة حيث سجن هنـاك ، بينما احتـل البساسيرى بغـداد فى اليوم الثـامن من شهر ذوى القعـدة من عـام ٤٥٠هـ(١) (١٠٥٨م) ثم أمر بقراءة الخطبة فى بغداد باسم الخليفـة المستنصر بالله الفاطمى وحذف اسم العباسيين منهـا ، فحقق بذلك أمنيـة طالما تاقت اليهـا نفوس الفاطميين منذ قيام دولتهم ٠

وعظم أمر البساسيرى بعـد استيلائه على بغـداد فتمكن من الاستيلاء على واسط ، وظل نفـوذه فى اتساع حتى وصـل الى البصـرة ، واستنجد أنصار الخـلافة العباسية بالسلطان طغرل السلجوقى ، وبخاصة بعد فراغه من القضـاء على ثورة أخيه ، فأسـرع فى السير الى بغـداد ، وأرسـل الى الخليفة العباسى من يفك أسـرة ويصحبه الى دار الخـلافة ، بعـد أكثر من عام من تركه لها ، بينما آثر البساسيرى الخروج من العراق ، والفرار الى الشـام ٠

ودخل الخليفـة العباسى القـائم بأمر الله بغداد كما دخلها السلطان طغرل السلجوقى ، فأسقط اسم الفاطميين من الخطبة ، وأعيد ذكر العباسيين، ثم بادر طغرل بارسال جيش للحـاق بالبساسيرى فتمكن جيش السلطان من الالتقـاء بجيش البساسيرى قرب الـكوفة حيث دارت بين الطرفين معـركة طاحنة انتهت بهزيمة البساسيرى وقتله فى منتصف ذى الحجة من عام ٤٥١هـ (١٠٥٩م) ، وأرسلت رأسه الى الخليفة العباسى(٢) ، وهكـذا تمكن طغرل من القضاء على البساسيرى قضاء تاما ، فقضى بذلك على كل أمل للفاطميين فى الوصول الى بغداد مرة أخـرى ، وأصبح السلاجقـة يسيطرون على بلاد الخـلافة العباسية سيطرة تامة بعـد أن استقر نفـوذهم فى ايران والعراق استقرارا تاما ، وصار السلطان طغرل سيد الموقف بعد انتصاراته المتلاحقة ،

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٨ ؛ البنـدارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٦ ٠

(٢) الراوندى : راحة الصـدور ، ص ١٠٩ ؛ البنـدارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠هـ ٠

وانقاذه للخليفة العباسى ، فأصبح يستطيع كسب موافقة الخليفة على كل ما يريده السلاجقة ٠

وأخذ طغرل منذ ذلك الوقت يتصرف فى كل شىء ، حتى فى ممتلكات الخليفة الخاصة ، فيجرى على الخليفة أرزاقه ، ويرتب له ما يكفى لسد جميع نفقاته(١) ، ويسيطر على الخليفة العباسى سيطرة تامة ٠ ثم فكر طغرل فى مصاهرة الخليفة بالزواج من ابنته(٢) ، فكلف وزيره أبا نصر الكندرى بالقيام بهذه المهمة ، وكانت هذه المرة الأولى التى يفكر فيها حاكم غير عربى فى مصاهرة بيت الخلافة ، والزواج بفتاة من الأسرة العباسية ، ولذلك فزع الخليفة القائم بأمر الله حين طلب طغرل السلجوقى ذلك بواسطة وزيره أبى نصر الكندرى ، ورفض فى بداية الأمر فكرة زواج ابنته من السلطان السلجوقى برغم ما وصل اليه من قوة وسيطرة على ايران والعراق، وظل الخليفة العباسى رافضا لتلك الفكرة أكثر من ثلاث سنوات تعرض فى أثنائها لأنواع من الضغط والتهديد واضطر فى النهاية الى الموافقة فى أوائل عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) حفاظا على خلافته ، فزفت بنت الخليفة الى السلطان طغرل فى مدينة الرى عاصمة السلاجقة ، غير أن طغرل لم يهنأ بهذا الزواج طويلا(٣) ، لأنه كان شيخا هرما قد بلغ السبعين من عمره ، وكان المرض قد أصابه ، وألزمه الفراش ، فظل أسير المرض حتى توفى فى الثامن من رمضان من عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) بعد أن تمكن السلاجقة فى عهده من السيطرة على ايران والعراق فاحتلت دولتهم مكانا مرموقا على مسرح التاريخ ، وأخذت تساهم فى توجيه سير الأحداث فى الشرق والغرب على

---

(١) حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٨ ٠

(٢) هذا ما ذكره البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٩ ــ ٢٢ وابن الأثير فى حوادث سنة ٤٥٥هـ أما الراوندى فقد ذكر فى راحة الصدور أن الخليفة تزوج أخت الخليفة لا أبنته ٠

(٣) ذكر البندارى فى كتابه المذكور ص ٢٥ وابن الأثير فى حوادث سنة ٤٥٥هـ أن طغرل دخل بيته الخليفة وعاش معه سبعة سهور أما الراوندى فقد ذكر فى راحة الصدور فى ١١١ ــ ١١٢ أن طغرل مرض وتوفى قبل الزفاف ٠

السواء مما سنبينه فى الفصول التالية ، حتى تظهر أهمية العصر السلجوقى فى التاريخ الاسلامى بعامة ، وفى تاريخ ايران والعراق بخاصة ٠

والواقع أن طغرل الأول هو المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة فهو الذى أعلن قيامها ، وأرس قواعدها ، بعد أن بسط نفوذ السلاجقة على ايران والعراق ، فأظهر بذلك قوتهم ، وانتصر على منافسيهم ، وجعلهم أكبر قوة فى جميع أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى ٠

ولقد كان طغرل سلطانا مظفرا موفقا منتصرا فى جميع الحروب التى خاض غمارها ، مما ساعده على تحقيق آمال السلاجقة ، والوصول بهم الى أهدافهم التى كان أهمها اقامة دولة قوية نافذة الكلمة فى مقر الخلافة العباسية فى بغداد ٠

كما كان طغرل مسلما متمسكا بالمذهب السنى ، مما يجعله يتقرب الى الله بأداء الفرائض ، واحترام أئمة الدين(١) ، والولاء للخليفة العباسى امام أهل السنة فى ذلك العصر ، فساعد ذلك على ازدياد التقارب بين ايران والعراق طوال العصر السلجوقى ، وأدى هذا التقارب الى اختلاط الايرانيين بالعراقيين وحدوث امتزاج حضارى ، اذ اختلطت حضارة كل من البلدين بالأخرى ، فأصبح البلدان فى العصر السلجوقى ٠ صورة واضحة صادقة للحضارة الاسلامية فى مرحلة من أهم مراحلها فى التاريخ الاسلامى ٠

وقد وضع طغرل أساسا متينا لدولة السلاجقة ببسط نفوذها على ايران والعراق ، فاستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ، ومجدا عظيما ، فكان عصر طغرل هو عصر التأسيس ، وأخذ السلاجقة بعده يرتفعون بالبناء حتى أشرف على بلاد الروم(٢) ، وسواحل البحر

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ٠
(٢) المقصود ببلاد الروم فى ذلك الوقت البلاد التى سميت بعد ذلك بآسيا الصغرى ٠

الأبيض المتوسط(١) ، والهنـد والصين ، حين بلغ السلاجقـة أوج قوتهم ، وأعلى درجات رفعتهم ·

وتجمع كتب التاريخ على أن وزير طغرل أبا نصـر منصور بن محمـد الكندرى(٢) الذى كان يلقب بعميد الملك ، قد ساهم فى ارسـاء أساس دولة السلاجقة ، فى تدعيم أركانها ، بما كان له من الكفـاءة وثقافة واسعة ، كما أنه كان من الكتاب المجيدين باللغتين العربية والفارسية ·

وكان لمنصب الوزارة فى العصـر السلجوقى أهميـة كبيرة باعتبـاره منصبا يلى منصب السلطان فى أهميـة ، مما جعـل تولى الوزارة هـدفا ، تتولع اليه الأبصار ، وتهفوا اليـه النفوس فصار مثارا للتنافس بين كبـار رجال الدول من غير أفراد البيت السلجوقى ، وقـد ادى التنافس على منصب الوزارة الى كثيـر من المنـازعات حين ضعفت دولة السلاجقـة ، مما كان له أثر فى سير الأحداث فى هذه الدولة فى أضربات أيامها ، كما سيأتى ·

---

(١) كان البحر الأبيض يسمى حينذاك « بحر الروم » ·

(٢) يمكن الرجوع الى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنـة ٤٥٦هـ لمعـرفة معلومات مفصلة عن الكندرى وسيرته ·

الفصل الرابع

السلاجقة فى أوج قوتهم

كانت دولة السلاجقة حين وفاة طغرل ـ أول سلطان لها ـ دولة قوية ، راسخة الأركان ، متينة البنيان ، ولم يكن له ولد يرث العرش من بعده ، كما لم يضع نظاما لولاية العهد يلتزم به أفراد البيت السلجوقى بعد وفاته ، فغلب النظام القبلى على السلاجقة ، وصار العرش مطمعا للأقوياء من أفراد البيت السلجوقى ، ومثارا للتنافس والتنازع بينهم . وأصبح مشكلة تطل برأسها عقب وفاة كل سلطان سلجوقى . وتساهم فى الاطاحة بالدولة السلجوقية نفسها ، حين أصاب هذه الدولة الضعف والتصدع والتشقق ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

وكان التنازع على العرش بين أفراد البيت السلجوقى يعقبه تنازع على الوزارة بين كبار رجال الدولة ، لأن السلطان الجديد كان يختار وزيرا جديدا ممن يطمئن الى ولائهم له ، مما جعل العرش والوزارة مشكلتين تظهران عقب وفاة كل سلطان تقريبا ، لذلك أجد من الضرورى فى دراسة دولة السلاجقة فى ايران والعراق أن أعرض التنازع حول العرش والوزارة . سواء فى عصر قوة السلاجقة أو فى عصر ضعفها ، لالقاء ضوء على الأحداث ، وبيان تأثير هاتين المشكلتين فى توجيه سير الأحداث المختلفة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى .

١ ـ التنازع على العرش بعد طغرل :

كانت وفاة طغرل دون أن يترك ولدا فى رمضان من عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) ووفاة أخيه الأكبر جغرى حاكم خراسان وما وراء النهر قبله فى رجب من عام ٤٥١هـ (١٠٥٩م) سببا فى اثارة التنازع على عرش السلاجقة

بين أفراد البيت السلجوقى وكان ألب آرسلان أكبر أبناء چغرى ، وأحد قواد الجيش السلجوقى ى عصر عمه طغرل ، وقد أصبح حاكما على خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه ، فتطلع الى الجلوس على عرش السلاجقة بعد وفاة عمه ، وكان يعاونه وزيره الذى كان اسمه أبو على حسن بن على ابن اسحق الطوسى ، اشتهر بلقب نظام الملك ، كما اشتهر بالذكاء والدهاء وقوة النفوذ ، وسعة الحيلة ، وتنوع الثقافة ، فتطلع الى تولى منصب الوزارة فى الدولة السلجوقية كلها حين يصير ألب آرسلان سلطانا على هذه الدولة ، وقد دفع هذا نظام الملك الى تشجيع ألب آرسلان على اعلان نفسه سلطانا على السلاجقة وخليفة لعمه السلطان الراحل طغرل الأول ٠

غير أن طغرل كان قد تزوج باحدى أرامل أخيه الراحل چغرى وكانت شابة جميلة قد أنجبت ابنا من چغرى اسمه سليمان ، وقد أقام ابنها معها فى كنف عمه بالرى ، فاستطاعت التأثير على زوجها الجديد طغرل ، وجعله يختار ابنها وليا للعهد فلما توفى طغرل فى عام ٤٥٥هـ ، طلبت من الوزير أبى نصر الكندرى اعلان ابنها سليمان سلطانا على السلاجقة برغم أنه كان طفلا ، لم يجاوز الرابعة من عمره الا ببضعة أشهر ٠

وقد وجد الكندرى فى تعيين سليمان مصلحة له ، فصغر سن السلطان ، يمكنه من الاحتفاظ بالوزارة ، والانفراد بالسلطان وتوجيه سير الأمور فى الدولة السلجوقية ، مما جعله يبادر باعلان سليمان بن چغرى الأصغر سلطانا على السلاجقة ـ برغم صغر سنه ـ ويأمر بقراءة الخطبة باسمه(١) ، متجاهلا أخاه الأكبر ألب آرسلان ٠

وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، وبرز التنازع على العرش فى صورة سافرة ، تهدد بحدوث اشتباك بين الطرفين ، وكانت كفة ألب آرسلان هى الأرجح ، لكبر سنه ، وتجاربه السابقة فى الحروب التى خاضها تحت قيادة عمه طغرل ، ولذلك لم يتردد ألب آرسلان فى التحرك نحو الرى عاصمة الدولة للقضاء على تمرد الكندرى وأخيه الطفل والجلوس على عرش السلاجقة ٠

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٦ ٠

ولم يكد ألپ آرسلان يتحرك صوب الرى فى أواخر عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) حتى بادر أكثر أفراد البيت السلجوقى باعلان تأييدهم له ، وموافقتهم على تولى عرش السلاجقة بعد عمه طغرل ، مما قوى مركزه ، وأضعف موقف الكندرى والسلطان الطفل سليمان ، فأيقن الكندرى أن من مصلحته أن يخضع للأمر الواقع ، ويعلن تأييده لتولى ألپ آرسلان عرش السلاجقة على أن يكون أخوه الأصغر سليمان وليا لعهده(١) ، وظن الكندرى أنه يستطيع بذلك تجنب غضب السلطان ألپ آرسلان ، والظفر بشىء من الجاه والنفوذ ، والاحتفاظ بالوزارة اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، وقد أمر الكندرى بقراءة الخطبة فى الرى عاصمة السلاجقة باسم ألپ آرسلان ٠

وقد قبل ألپ آرسلان ما أعنك الكندرى ، فاستتب له الأمر وتهيأ له دخول مدينة الرى دخول الظافرين ، وبرفقته وزيره نظام الملك وكان ذلك فى ذى الحجة من عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) ، بعد أن اعترف أكثر أفراد البيت السلجوقى به سلطانا عليهم ، غير أن فتنة أخرى لم تلبث أن أطلت براسها حينذاك ، فأجل ألب أرسلان دخول الرى والجلوس على العرش ، حتى يتم له القضاء على هذه الفتنة الجديدة التى أيقظها ابن عم والده ، وكان اسمه شهاب الدولة قتلمش بن اسرائيل ، وهكذا استمر التنازع على العرش دون هوادة ، ووصل الى درجة القتال بين الطرفين المتنازعين فقد تقدم قتلمش على رأس جيش ، رافعا علم الثورة على ألب آرسلان ، ومعلنا أنه أحق بالسلطنة منه ، لأنه فى منزلة عمه ، ثم توجه الى الرى عاصمة دولة السلاجقة ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، والجلوس على عرش السلاجقة فيها ، واعلان نفسه سلطانا على الدولة ٠

غير أن ألپ آرسلان واصل فى الوقت نفسه سيرة صوب الرى على رأس جيش كبير ، فخرج قتلمش للقائه ، والتحم الجيشان فى معركة طاحنة فاصلة بالقرب من الرى ، انتهت بهزيمة قتلمش وقتله ، ودخول الپ آرسلان عاصمة السلاجقة فى آخر المحرم من عام ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) ، فانتهت بذلك معركة

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٥هـ ٠

السلطنة ، وحلت مشكلتها ، واستتب الأمر لألب آرسلان دون منازع ، فأصبح سلطانا على السلاجقة ، وأخذ يكمل مسيرة عمه طغرل ، فيعمل على تقوية دولة السلاجقة ، ورفع بنيانها ، حتى تبلغ أوج قوتها ٠

٢ ـ التنافس على الوزارة :

لم يكد التنافس على عرش السلاجقة ينتهى بجلوس ألب آرسلان على عرش السلاجقة حتى بدأ التنافس على الوزارة بين عميد الملك الذى كان وزيرا للسلطان طغرل الأول مؤسس دولة السلاجقة وبين نظام الملك الذى كان وزيرا لألب آرسلان حين كان واليا على خراسان وما وراء النهر ، وكان نظام الملك أقوى أنصار ألب آرسلان وقد شجعه على اعلان نفسه سلطانا على السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل ، وظل يؤازره حتى انتصر على منافسيه ، وتمكن من استخلاص عرش السلاجقة لنفسه ، بينما أيد عميد الملك تولى سليمان أخى ألب آرسلان الأصغر عرش السلاجقة ، مما جعل كفن نظام الملك أرجح من كفة عميد الملك فى تولى وزارة السلاجقة فى عهد السلطان الجديد ألب آرسلان ٠

وكان عميد الملك مقيما فى الرى حين دخلها ألب آرسلان سلطانا وبصبحته نظام الملك ، فبادر عميد الملك باظهار ولائه للسلطان الجديد ،وتقرب اليه بالهدايا ، وحاول كسب رضاه بالقول والعمل أملا فى الاحتفاظ بمنصب الوزارة غير أن نظام الملك كان له بالمرصاد ، فخوف السلطان من غدره ، وبخاصة بعد أن ككثيرا من جند السلطان الراحل طغرل يحبون عميد الملك الكندرى ويلتفون حوله ، مما جعل نظام الملك يخشى بأسه ، ويصمم على البطش به فى أسرع وقت ممكن ، فأخذ نظام الملك يحرض السلطان على عميد الملك ، ويجسم له خطره ، حتى أوجس السلطان فى نفسه خيفة من عميد الملك ، فأمر بالقبض عليه ، وايداعه السجن فى مدينة نسا(١) ، وهكذا أطاح نظام الملك بمنافسه عميد الملك ، وظفر بكرسى الوزارة دون منازع ٠

غير أن نظام الملك لم يقتنع بايداع عميد الملك السجن ، بل ظل يحرض السلطان عليه ، ويخفه من بقائه على قيد الحياة ، حتى أمر السلطان بقتله

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٧ ٠

بعد أن ظل فى السجن عاما ، ورؤى أن قتله تم فى مدينة مرو الروذ(١) ٠

وكان قتل عميد الملك وزير السلطان طغرل سنة سيئة فى عصر السلاجقة فقد أدى العمل بها الى قتل عدد من وزراء السلاجقة ، واكتوى نظام الملك نفسه بنارها فيما بعد ٠

وقد ورد فى بعض كتب التاريخ أن عميد الملك الكندرى نبه الى خطر هذه السنة السيئة قبيل تنفيذ حكم الاعدام فيه ، فالتمس من قاتله أن يحمل عنه رسالتين شفويتين ، وأن يبلغ احداهما للسلطان والأخرى للوزير ٠

أما رسالة الكندرى الى السلطان فهى قوله : « ان هذه أجل خدمة أديتها لى ، فقد منحنى عمك الدنيا لأحكمها ، ومنحتنى أنت الآخرة ، لأن أمرك بقتلى جعلنى أحظى بالشهادة ، وأظفر بأجر الشهداء ، فظفرت بخدمتك هذه بالدنيا والآخرة معا » ٠

وأما رسالته الى الوزير نظام الملك فهى قوله : « انك قد سننت سنة سيئة بقتل الوزراء ، وانى لأرجو أن تنفذ هذه السنة فيك وفى أولادك »(٢) ٠

ومهما يكن من شىء ؛ فان قتل عميد الملك الكندى ، قد وضع حدا للتنافس على الوزارة ، بعد انتهاء التنافس على العرش ، فكما خلص عرش السلاجقة ألب آرسلان ، خلصت الوزارة فى عهده لنظام الملك ، وأخذت الأوضاع فى الدولة السلجوقية تستقر فى أوائل عام ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) ، وأخذ السلطان ألب آرسلان بمعاونة وزيره نظام الملك يرتفع ببناء دولة السلاجقة ، على الأساس الذى أرساه عمه طغرل فى ايران والعراق من قبل ، وقد بلغ السلاجقة فى عهد ألب أرسلان وفى عهد ابنه ملكشاه أوج

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٩ ؛ وابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٥٦هـ ٠

(٢) الراوندى : راحة الصدر ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ، ونص الرسالتين اللتين وجههما عميد الملك الكندرى للسلطان ألب آرسلان ووزير نظام الملك منقول من الترجمة العربية لكتاب راحة الصدر وآية السرور للراوندى المذكورة فى ثبت المراجع فى آخر كتابنا هذا أما أصل الرسالتين فمذكور فى أصل كتاب الراوندى باللغة الفارسية ٠

قوتهم ، وكان نظام الملك وزيرا للدولة فى العهدين ، فساهم بحكمته وحسن تدبيره فى تدقيق أهداف السلاجقة حتى بلغوا أوج قوتهم ٠

أهداف السلاجقة في عهد ألب أرسلان :

ورث ألب أرسلان دولة راسخة القواعد ، متينة الأساس ، نافذة الحكم فى ايران والعراق ، يدعمها جيش قوى ، وكان ألب أرسلان قائدا ماهرا مظفرا ، مارس الحرب ، واشترك فى المعارك فى عهد عمه طغرل ، وساهم فى بسط نفوذ السلاجقة فى ايران والعراق ، كما كان وزيره نظام الملك رجلا حكيما ، واسع الثقافة ، وسياسيا محنكا ، ثاقب الفكر ، بعيد النظر ، ذا ذكاء ودهاء ، وهكذا اجتمع لدولة السلاجقة حسن القيادة ، وحسن السياسة ٠

وقد تدارس السلطان ووزيره الأوضاع فى دولة السلاجقة ، كما درسا أحوال الدول المجاورة لها ، وحددا أهداف السلاجقة القريبة والبعيدة على ضوء تلك الدراسة ، فاتفق رأيهما على أن تكون أهداف السلاجقة فى جميع الأراضى الخاضعة لهم فى ايران والعراق ، وأن تكون أهدافهم البعيدة بسط نفوذ السلاجقة على مناطق جديدة ، حتى تتسع رقعة دولتهم ، فيعظم شأنهم ، ويرتفع قدرهم ، ورجح السلطان والوزير أن تكون المناطق الجديدة التى تتحقق بها أهداف السلاجقة البعيدة ، هى المناطق النصرانية المجاورة لايران كبلاد الأرض وبلاد الروم ، بهدف نشر الاسلام فيها ، الأمر الذى يكسب حروب السلاجقة طابع الجهاد فى سبيل الله ، لنصرت دينه الحق ، واعلاء كلمته ، فترتفع بذلك راية الاسلام خفاقة فى أرجاء جديدة من العالم(١) ، مما يرفع من قدر السلاجقة ويكسبهم حب المسلمين جميعا ، ويرهب أعداءهم ، وأعداء الاسلام والمسلمين فى كل مكان ٠

أولا : تحقيق الأهداف القريبة

بدأ ألب أرسلان منذ أوائل عام ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) بتنفيذ أهداف السلاجقة القريبة ، بتثبيت سلطانهم فى ايران والعراق ، وكان أول عمل قام به اخماد فتنة جديدة أيقظها عمه بيغو الذى كان واليا على هراة ، فقد

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص١١٨ وما بعدها ٠

عز على نفسه أن يصير تابعا لابن اخيــه ، فرفع راية العصيان ، وحــاول الاستقلال بحكم المناطق الخاضعة لنفوذه ، فسار اليــه ألب أرسلان ، فلما اقترب من هراة خرج بيغو لقتاله ، ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس بالقرب من هــذه المدينة ، انتهت بانتصــار السلطان على عمــه المتمرد فى اواخر عام ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) ، وتعهد هــذا العم ، بالتزام الطــاعة والولاء لابن أخيه السلطان الذى انتهز فرصــة وجوده فى منطقة هراة ، فقام بتأديب كل من يخشى أن يصــدر عنهم تمرد فى أنحــاء ما وراء النهر وخراسان ثم رجع الى نيسابور بعد أن أعــاد سيطرته ، وسلطان الدولة السلجوقية على المناطق الشرقية والشمالية من ايران ·

ثم أخذ ألب أرسلان بعــد ذلك يتفقد الأجزاء الأخرى من دولة السلاجقة فى ايران والعراق ، حتى يحقق أهــداف السلاجقة القريبة ، ويثبت سلطانهم فى سائر أرجــاء الدولة وقد شغل بهذا الأمــر ست سنوات الى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وبــدأ بالأجــزاء الجنوبيــة من ايران ، فتوجه من خراسان الى اصفهان ، وثبت سيطرته على المنــاطق الجنوبية من ايران ، وأمن حــدود دولته الجنوبية بالاستيلاء شبانكاره فى عام ٤٥٨هـ (١٠٦٥م) ، والسيطرة على فارس فى عـــام ٤٥٩هـ(١) (١٠٦٦م) ، ثم توجــه الى كرمان(٢) ، فأحسن أخوه قاورد استقباله ، وكان واليا على هــذه المنطقــة ، فطمأنه على استتباب الأمن فيهـــا ، ثم توجه ألب أرســلان الى مرو ، للاطمئنان على سيطرة أعوانه على أجزاء ما وراء النهر المختلفة ·

وظــل ألب أرســلان يتفقد أجزاء دولة السلاجقــة فى ايران والعراق ويزور الأقاليم المختلفة فيها الى عــام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) حتى أيقن أن جميع أقاليم الدولة تدين له بالطــاعة والولاء ، وأن الفتن الداخليــة قـــد خمدت تمــاما ، وأن الوقت قــد حان لتحقيق أهــدافه البعيــدة ، بفتح بلاد غيــر اسلامية ، ونشر الاسلام فيها ·

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٩هـ ·
(٢) كان قاورد حاكما على ولاية كرمان منذ عام ٤٣٣هـ (١٠٤١م) ·

ثانيا : تحقيق الأهــداف البعيدة(١)

كان السلاجقة بزعامة ألب أرسلان أكبر قــوة فى العالم الاسلامى فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، مما شجع ألب أرســلان على التفكير فى غزو بلاد الروم ، كما أنه وثق صلاته بالدولتين الغزنونية والخانية حتى يؤمن ظهره ، فلا يطعن من الخلف ، وهــو مشغول بغزو بلاد الروم ، فربط دولة السلاجقــة برباط المصــاهرة مع هاتين الدولتين ، بأن تزوج أحد أبنائه ابنــة السلطان ابراهيم الغزنوى وتزوج ابنه الأكبر ملكشاه ابنة طمغاخ خان ملك الخانيين ، وهيــأت المصاهرة للسلطان ألب أرســلان أن يتفرغ لغزو بلاد الروم ببــال هــادىء ٠

وقد قاد ألب أرسلان جيشه المــكون من أربعين ألف جنــدى جنــوب أذربيجان ، ثم بدأ بفتح الاقاليم النصرانيــة المجــاورة لحــدود السلاجقة ، فاتجه غربا لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المطلة على بلاد الروم ٠

وكان أهل هذه الأقاليم يكثرون من الاغارة على منطقة أذربيجان ، حتى أصبحوا مصدر قلق لسكان هــذه المنطقة ، فوضع ألب أرسلان حدا لغاراتهم بفتحه لتلك الأقاليم ، وأصبح بعد فتحها يهدد ممتلكات الروم(٢) ٠

غزو بلاد الروم :

كان تقــدم ألب أرســلان بجيشه نحــــو بلاد الروم ، واستيلاؤه على جورجيا وبلاد الأرمن ، وعلى الجزء الاكبر من البــلاد الواقعة بين بحيرتى وان وأورميــة ، والسيطرة على قلاعها بمثــابة اعــلان للحرب على الروم وبخاصة بعد أن أدركوا أن ألب أرســلان يصبغ غزوة بصبغة الجهــــاد فى سبيل الـــه من أجــل نصــرة الاســلام ونشــره ، وصبغ المنطقة بالصبغــة الاسلامية ، مما جعل حدوث قتال بين السلاجقة والروم أمرا لامفر منه ٠

وقــد تحرك رومانوس ديوجينس Romanos Diogines قيصــر الروم

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٨ ، وقد بالغ فقال ان ألب أرسلان غزا جميع أنحاء العالم ٠

(٢) المقصــود ممتلكات الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانيــة الشرقيــة ، وكانت آسيا الصغرى تسمى حينذاك بلاد الروم ٠

على رأس جيش كبير لمواجهة غزو السلاجقة لممتلكاته فى منتصف عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وذرع القيصر بجيشه آسيا الصغرى فى محاولة لتطويق الجيش السلجوقى كما استولى على منطقة حلب ، وكان أميرها يدين بالطاعة والولاء للخليفة الفاطمى فى مصر ، فأصبح القيصر بذلك فى موقع يهدد السلاجقة بخطر التطويق ٠

وفطن ألب أرسلان الى هدف القيصر ، فأرسل جزءا من الجيش بقيادة ابنه مكلشاه ، لغزو الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ، وفتح حلب ، حتى يحبط ما قام به القيصر ويفسد خطته ، وينقذ جيش السلاجقة من خطر التطويق ٠

وقد حقق جيش السلاجقة الهدف الذى توجه من أجله الى بلاد الشام فسيطر على منطقة حلب ، وأعلن واليها ولاءة للسلاجقة السنيين بعد أن كان مواليا للفاطميين الشيعة ، فحذف أسم الفاطميين من الخطبة ، وأحل محله اسم العباسيين ، كما تمكن الجيش السلجوقى من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، والاستيلاء على بيت المقدس ، وقد تم كل ذلك فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، كما حاصر الجيش السلجوقى دمشق ، غير أنه لم يتمكن من فتحها فى ذلك الوقت ٠

وهكذا نجح الجيش السلجوقى فى بلاد الشام فى تأمين سلامة الجيش السلجوقى الزاحف الى بلاد الروم ، وانقاذه من خطر جيش قيصر الروم له ، فلم يجد قيصر الروم بدا من الهجوم المباشر على جيش ألب أرسلان ، فتوجه بجيش جرار يضم فرقا من الشعوب النصرانية المختلفة(١) نحو المنطقة التى يعسكر فيها جيش السلاجقة فى نواحى « ملازكرد » وعسكر بالقرب من مدينة « أخلاط » فى مواجهة جيش السلاجقة ٠

وأحس ألب أرسلان بضخامة عدد جيش الروم ، وكثرة عتاده وشعر بأنه أمام خطر داهم ، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم ،

---

(١) وردت فى كتب التاريخ أن الجيش الرومى كان كثير العدد قوى العدد يفوق جيش السلاجقة عددا وتسليحا وكان يضم أخلاطا من الشعوب النصرانية تمثل الروس والجورجيين والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين ، ويبلغ عدده مائتى ألف جندى ٠

واستطاع احراز نصر يمكنه من التفاوض مع قيصر الروم ، لتسوية الموقف صلحا ، لأن ألب أرسلان أدرك أن من الصعب على جيشه أن يقاتل جيشا ضخما كجيش الروم ، ففضل ارجاء غزو بلاد الروم الى فرصة أخرى ، وحاول الاستفادة من انتصاره على مقدمة جيش الروم فى التفاوض مع الروم ، لعقد صلح بين الطرفين ، فأرسل مبعوثا من قبله الى قيصر الروم ليعرض عليه الصلح مع السلاجقة ، فرفض القيصر ، وأشاح بوجهه فى غطرسة وكبرياء ، ولم يحاول استماع الى كلام مبعوث السلاجقة ، وطلب ابلاغ ألب أرسلان أن الصلح لن يتم الا فى مدينة الرى عاصمة السلاجقة ، فأيقن ألب أرسلان أن الروم يريدون القضاء على دولة السلاجقة والاطاحة بها ، فأعلن بين جنوده أن الاسلام فى خطر ، ولا سبيل الى انقاذه من هذا الخطر الا بالقضاء على جيش الروم ، ودعا جنوده الى الاستماتة فى القتال ، دفاعا عن الاسلام ، وحفاظا على دولة المسلمين ، وابقاء لمبادىء الاسلام ، دين الله الحق ، الذى يزيغ أمامه كل باطل ، وهكذا بين ألب أرسلان لجنوده أن قتال الروم جهاد فى سبيل الله ، ووسيلة للظفر باحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ٠

موقعة ملازكرد :

كان صبغ الحرب بين السلاجقة والروم بصبغة دينية سببا فى ازدياد حماس جنود السلاجقة ، وتسابقهم الى الهجوم على جيش الروم المعسكر فى نواحى ملازكرد ، فدارت بين الطرفين معركة طاحنة فاصلة من أشهر المعارك الحربية التى شهدها التاريخ ، عرفت باسم موقعة ملازكرد ٠

وكان وقوع هذه المعركة فى أواخر عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، وقد أبلى جنود السلاجقة فيها بلاء حسنا ، وهجموا على جيش الروم فى جرأة ، وأمعنوا فى الروم تقتيلا وتجريحا ، حتى فرشوا ساحة القتال بجثثهم ، ووقع القيصر رومانوس نفسه أسيرا فى أيديهم ، وحاقت الهزيمة بجنوده ، فتفرقوا ، ووقع العديد منهم أسرى فى أيدى جنود السلاجقة الذين ظفروا بمغانم كثيرة ، نتيجة لانتصارهم الباهر على جيش الروم ٠

وسيق قيصر الروم رومانوس الى ألب أرسلان أسيرا ذليلا ، فأمر بجلده ثم سجنه ، وكان رومانوس يتوقع القتل ، غير أن السلاجقة لم

يقتلوه ، وقبلوا أن يفتديه قومه بالمال ، وبأن يعقد صلح بينهم وبين الروم ، ينظم العلاقات بين الطرفين ٠

وقد افتدى الروم قيصرهم بدفع مبلغ كبير من المال دية له(١) ، وعقدوا معاهدة صلح مع السلاجقة مدتها خمسون عاما ، تعهدوا فيها بدفع جزية للسلاجقة طوال مدة المعاهدة ، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق التى فتحوها من بلاد الروم ، كما تعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات دولة السلاجقة ٠

نتائج موقعة ملازكرد :

وقد كانت موقعة ملازكرد ــ فى الحقيقة ــ نقطة تحول فى تاريخ غربى آسيا بخاصة وفى التاريخ الاسلامى بعامة ، لأنها يسرت القضاء على سيطرة الروم على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى ، مما ساعد على القضاء على دولة الروم نفسها ــ بعد ذلك ــ على أيدى الأتراك العثمانيين ٠

فمنذ هزيمة الروم فى موقعة ملازكرد صرفوا نظرهم عن هذا الجزء من آسيا الصغرى ، ثم عجزوا عن الاحتفاظ بالأجزاء الأخرى منها أمام غزوات المسلمين الأتراك من السلاجقة والعثمانيين ، وقد توالت هذه الغزوات فى القرون الثلاثة التالية لموقعة ملازكرد ، وانتهت بالاطاحة بدولة الروم ، والاستيلاء على القسطنطينية عاصمتها ، واتخاذها عاصمة للدولة الاسلامية العثمانية ، وتسميتها اسلامبول(٢) ٠

وهكذا تابع المسلمون الأتراك من السلاجقة الكفاح الذى قام به العرب ضد الروم ، فلقد كانت كفة الروم راجحة فى بلاد الأرمن وما جاورها من بلاد آسيا الصغرى التى لم تلبث أن سميت باسمهم ، فظلت قرونا عديدة

---

(١) ورد فى كتب التاريخ المختلفة ــ أن الدية التى دفعها الروم لفك أسر قيصرهم رومانوس كانت خمسمائة ألف دينار مغربى من الذهب الخالص وأن الجزية كانت مائة ألف دينار سنويا ، ارجع الى المراجع التى سبق ذكرها لمعرفة معلومات أكثر تفصيلا ٠

(٢) معناها عاصمة الاسلام ٠

تعرف باسـم بلاد الروم(١) ، كمـا كان البحر الأبيض المتوسط يعرف كذلك باسم بحر الروم جينذاك ٠

وكان الروم يعدون هذه المنطقة قنطرة بين الشرق والغرب ، ويحرصون على السيطرة عليها مما جعـل المنطقة موضع نزاع بين الروم والفرس قبل الاسلام غير أن كفة الروم كانت هى الراجحة غالبا ، ثم حاول المسلمون بعد الفرس ،أن يضعوا أيديهم عليها أى على جزء منها فـلم يوفقوا ، لأن نفوذ الروم فيهـا كان قويا طاغيـا ، مما جعـل مظاهر الحضارة الرومية واضحة فى المنطقـة المذكورة وضوحا قويا ، كان من أبرز معالمه انتشار النصرانية بين سكانها ٠

ولم يكـد السلاجقـة المسلمون ينتصـرون على الروم النصـارى فى موقعة ملازكرد فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) حتى تغيرت صورة الحياة وصورة الحضارة فى المنطقة ، فأخذت الحياة تصطبغ بالصبغة الاسلامية ، منـذ أن أشرقت عليها شمس الاسلام بعـد انتصار الاسلام فى ملازكرد ، وانحسار النفـوذ الرومى تدريجيا عن هـذه المنطقة ، فقـد أخذ سكانهـا يدخلون فى الاسلام ، ويتعلمون مبادئه ، ويلتزمون بهـذه المبادىء فى سلوكهم ومظاهر حياتهم ، فظهرت آثارها فى مظاهر حضارتهم المختلفة ٠

وقـد واصل الأتراك السلاجقة المسلمون غزوهم لمناطق أخرى من بلاد الروم بعد انتصـارهم فى ملازكرد ، حتى توغلوا فى قلب آسـيا الصغرى ، ففتحـوا قونيـه وآق سـرا ، ووصلوا الى كوتاهيا وأسسوا فرعا لـدولة السلاجقة فى هـذه المنطقة عرف باسم سلاجقة الروم ، ظل حكامه يتناوبون الحـكم أكثـر من قرنين من الزمان ، بعـد انتصار السلاجقـة الحاسم فى ملازكرد ، مما ساعد على تثبيت حـكم المسلمين ، وغلبـة الصبغة الاسلامية على ألوان الحياة المختلفـة فى منطقة آسيا الصغرى ، بحيث أصبحت هـذه المنطقة جزءا من بلاد المسلمين الى يومنـا هذا ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ٠

وكان من ثمار تحول المنطقـة هذا التحول الجـذرى انتشـار اللغـة

---

(١) مازالت هناك مدينـة فى المنطقة اسمها أرمروم أى أرمن الروم أو بلاد الروم ٠

الفارسية لغة الجنود الفاتحين ، واللغة التركيـة لغـة السلاطين الحاكمين ، واللغة العربية لغة الاســلام دين رب العالمين فى تلك المنطقــة ، مما كان له آثار ملموسة فى مظاهر حضارتهــا منــذ ذلك الوقت الى الوقت الحاضر ، وهى آثار واضحة وضوحا بينا ٠

وهكــذا كان انتصار السلاجقة فى ملازكرد نقطة تحول فى تاريخ منطقة آسيا الصغرى بخاصة ، فقـد غير صورتها النصرانيــة التى ظلت ملامحها قرونا عــديدة دون تغيير ، وجعلها صــورة اسلامية ، ظهرت ملامحهــا فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب وسائر الفنون وفى اللغات المستعملة فى الحديث والأدب والعــلم وكل لون من ألوان النشــاط البشــرى فى تلك المنطقــة ٠

كما كانت موقعــة ملازكرد نقطــة تحول فى التاريخ الاســلامى بعامة لأنهــا فتحت باب الحروب بين الشرق الاســلامى والغرب النصــرانى وهى مختلفة ، واتخذت أســماء متنوعة ، كالغزو الاقتصــادى والغزو الثقــافى والغزو الفكرى ٠

حروب استمرت مــدة طويلة باسم الحروب الصليبية ، ثم بقيت فى صــور

وقــد قامت الحروب الصليبية بعــد معركة ملازكرد بربع قرن تقريبا ، واتخذت صبغة دينية مثلها ، مما سنبينه بعد هذا فى مكانه المناسب ٠

وهكذا تتضح أهمية موقعة ملازكرد بالنسبة لمنطقة غربى آسيا بخاصة ، وبالنسبة لتاريخ المسلمين بعــامة مما يجعل هذه الموقعة من المواقع الحاسمة فى التاريخ ويجعلها جــديرة بالدراسة التفصيلية الكاشفة لنتائجها وآثارها الباقية الى الوقت الحاضر ٠

نهاية ألپ أرسلان :

ارتفع شــأن ألپ أرسلان بعــد انتصــاره الباهر فى موقعة ملازكرد ، وصار مرهوب الجانب فى الشرق الاسلامى والغرب النصرانى على السواء ، كما صــار محبوبا من جانب المسلمين فى جميع أنحــاء العــالم الاسلامى ، ومقدرا من الخليفــة العباسى كما ارتفع شأن وزيره نظام الملك الذى ساهم فى رسم سياسة السلاجقة وتحديد أهدافهم القريبة والبعيدة ٠

غير أن ألب أرسلان لم يعيش طويلا ، ليجنى ثمار نصره العظيم ، ويواصل فتوحاته ، ويحقق كل أهدافه البعيدة ، فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من حدوث موقعة ملازكرد على يد أحد الثائرين(١) ٠

ففى أوائل عام ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) قتل ذلك السلطان القوى ، والقائد البطل ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره(٢) ، اثر فتنة ظهرت فى بلاد ما وراء النهر حيث يوجد أصهاره الخانيون ، وفكر ألب أرسلان فى اخمادها بعد فراغه من قتال الروم والانتصار عليهم فتوجه الى الشرق فى أوائل عام ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) ، ثم عبر نهر جيحون ، وهاجم احدى القلاع المتمردة(٣) ، واستولى عليها ، وقبض على قائدها(٤) ، ونظرا لما أبداه هذا القائد المتمرد من عناد فى مقاومته ، فقد رغب ألب أرسلان فى أن يقوم هو نفسه بقتله متأثرا فى ذلك بالتقاليد البدوية وروى أن ألب أرسلان أمر باحضاره أمامه ، فلما مثل بين يديه رماه بسهم ، ولكن السهم أخطأه ، وكان القائد يخفى سكينا فى رباط ساقه ، فأخرجها ، وهاجم بها السلطان على حين غرة ، وطعنه بها طعنة نافذة قاتلة ، وكان ذلك فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول من العام المذكور ، وقد توفى ألب أرسلان متأثرا بجراحة ، بعد أربعة أيام من طعنه ، أى فى اليوم العاشر من الشهر المذكور ، ودفن فى مدينة مرو ، بعد أن حكم تسعة أعوام ونصف عام تقريبا(٥) ٠

وهكذا طويت صفحة سلطان عظيم ، وقائد مظفر من قواد السلاجقة وسلاطينهم العظام ، استطاع فى أثناء مدة حكمه القصيرة أن يرفع شأن دولة السلاجقة ، ويدعم قدرتها ، ويجعلها أكبر قوة فى العالم فى ذلك

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ٠

(٢) ولد ألب أرسلان فى عام ٤٢١ فى العام الذى توفى فيه السلطان محمود الغزنوى فاستبشر السلاجقة جولده ٠

(٣) كانت هذه القلعة تسمى قلعة خوارزم أو قلعة برزم لأنها كانت قريبة من بحيرة تسمى بهذا الاسم ٠

(٤) كان اسم القائد المتمرد يوسف الخوارزمى ، كما ذكر باسم يوسف البرزمى ٠

(٥) الراوندى : راحة الصدور : فى ١٢٠ ـ ١٢١ ؛ ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥هـ ٠

الوقت ، فلقد تمكن ألب أرسلان من توطيد دعائم الدولة ، ثم ارتفع ببنيانها حتى صار شامخا يحس العالم كله بوجوده فى ذلك الوقت ، ويستشعر قوته وتماسكه ، مما أظهر قوة السلاجقة بخاصة ، وقوة العالم الاسلامى بعامة ، بحيث أصبحت دول العالم غير الاسلامى تحسب لها ألف حساب ، وتخشى الاحتكاك بها ، وقد صار تاريخ السلاجقة بذلك مرتبطا بالتاريخ العالمى ، مما يجعل عصر ألب أرسلان من أهم عصور سلاطين السلاجقة العظام ، كما يجعله جدير بالدراسة الكاشفة لجوانبه المختلفة ·

وقد ساهم وزيره نظام الملك بحسن تفكيره ، ودقة تدبيره فى نجاح السلطان ألب أرسلان فى تحقيق أهدافه ، فأعطى بذلك أهمية ورونقا لمنصب الوزارة ، حتى أصبح كبار رجال الدولة أكثر تطلعا الى هذا المنصب ، وأشد حرصا على الظفر به ، فزاد التنافس عليه بعد ذلك ·

وقد ظهرت قوة الوزير نظام الملك بوضوح بعد مصرع ألب أرسلان فقد وقف بجوار ابنه الأكبر ملكشاه ، وساعده على الجلوس على عرش السلاجقة خليفة لأبيه الراحل ، فظل نظام الملك بذلك محتفظا بالوزارة ، واستطاع مواصلة تنفيذ السياسة التى ساهم فى رسمها فى عهد السلطان ألب أرسلان ، فلم تذهب جهوده سدى بعد صرعه ، بل ظل البناء قائما شامخا ، لأن نظام الملك استطاع بكفاءته ، وحسن تدبيره أن ينفذ السياسة الناجحة التى كانت تنفذ فى عهد ألب أرسلان ، فازداد بناء دولة السلاجقة علوا وشموخا واتسعت رقعتها وعظم سلطانها ·

تجدد النزاع على عرش السلاجقة

وقد جدد مصرع ألب أرسلان النزاع على عرش السلاجقة بين أفراد البيت السلجوقى ، غير أن ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر كان أرجحهم كفة ، لأنه كان يرافق أباه حين توجهه الى بلاد الخانيين لقمع الفتنة ، وكان معه الجيش السلجوقى ، كما كان يناصره الوزير نظام الملك الذى عرف بدهائه وحسن تدبيره ، فلما توفى السلطان ألب أرسلان ، قاد ابنه ملكشاه الجيش ، وتوجه به الى خراسان ، فلما بلغ نيسابور ، أعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وأسند الوزارة الى نظام الملك حتى تستقر الأوضاع ، بعد الاضطراب الذى سادها اثر مصرع السلطان ألب أرسلان ، وكان ما تم

بتدبير من نظام الملك ، ثم كتب السلطان الجديد ملكشاه الى حكام الأطراف يدعوهم الى طاعته والولاء له ، كما كتب الى الخليفة العباسى فى بغداد طالبا موافقته على أن يخلف أباه على عرش السلاجقة ، بأن يصدر الخليفة منشورا بتوليته ، ويأمر بذكر أسمه فى الخطبة(١) ٠

وهكذا بادر ملكشاه بالامساك بزمام الأمور ، قبل أن تزداد الفتنة ، ويفلت الزمام من يده ، ثم توجه من نيسابور الى الرى عاصمة الدولة ، لتصريف الأمور ، غير أن عمه قاورد حاكم كرمان لم يعجبه ما فعله ابن أخيه ، فأعلن مخالفته لما تم ، كما أعلن أنه أحق بعرش السلطنة بعد وفاة أخيه ألب أرسلان ، ثم توجه على رأس جيش الى الرى ليجلس على عرش السلاجقة فى عاصمة دولتهم ،وأخذ يستولى على الأقاليم المختلفة الواقعة بين كرمان والرى ، ويبسط نفوذه فيها ٠

غير أن ملكشاه استطاع هو ووزيره نظام الملك أن يصلا الى الرى قبل وصول قاورد ، فتمكن ملكشاه بهذا من السيطرة على العاصمة ، والجلوس على العرش ، واعلان تمرد عمه قاورد ، وخروجه على الدولة ، الأمر الذى يوجب قتاله وتأديبه ، ثم توجه ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك على رأس جيش كبير للقاء قاورد فى الطريق ، قبل اقترابه من الرى ، وتمكن ملكشاه من الوصول الى همذان قبل عمه ، ثم اشتبك بجيش عمه بالقرب من هذه المدينة ودارت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بانتصار ملكشاه ، ووقوع عمه قاورد أسيرا فلما أحضر أمام ابن أخيه أمر بقتله ، ليكون عبرة لمن يفكر فى التمرد عليه(٢) ، ووافق على أن تظل كرمان تحت حكم أبناء عمه قاورد ، فظلوا يتوارثو من حكمها الى عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) فكانوا فرعا من فروع شجرة السلاجقة عرفوا فى التاريخ باسم سلاجقة كرمان وكان القضاء على فتنة قاورد سببا فى اعلان سائر الحكام الولاء لملكشاه ، مما وضع حدا للنزاع على العرش ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥هـ ٠

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص٤٨ ، محمد بن ابراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص١٣ ٠

وكان انتصار ملكشاه انتصارا لوزيره القوى نظام الملك الذى كان عالما ناضجا قد جاوز الخمسة والخمسين من عمره(١) ، بينما كان السلطان الجديد شابا فى العشرين من عمره(٢) ، مما جعله يستمع الى نصائحه ، ويجله ويحترمه ، ويناديه بالعم ، ويقطعه اقطاعا وأفرا ، ويخلع عليه ، ويمنحه ألقاب التبجيل والاجلال(٣) ، لما ظهر من كفايته ، وحسن سيرته(٤) ٠

وأخذ نظام الملك بعد استقرار الأوضاع يواصل تنفيذ سياسة السلاجقة التى رسمت فى عهد ألب أرسلان ، وكانت تهدف الى بسط نفوذ السلاجقة على أقاليم جديدة ؛ حتى تبلغ دولة السلاجقة أوج قوتها ، ويتسع سلطانها ويرتفع بنيانها ، الى أعلى ارتفاع ممكن ، فبدأت بذلك مرحلة جديدة من الفتوحات ٠

فتوحات ملكشاه :

كانت دولة السلاجقة قوية مرهوبة الجانب حين أمسك ملكشاه بزمام الأمور فيها ، يعاونه الوزير نظام الملك الذى ثبتت كفاءته فى مدة وزارته لألب أرسلان ، ما شجع السلطان الشاب ملكشاه ، على مواصلة انتهاج سياسة فتح أقاليم جديدة ، وبسط سيطرة السلاجقة عليها ، لتوسيع رقعة الدولة من جهة الغرب ٠

وقد يسر انتصار السلاجقة الباهر فى ملازكرد فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) فتح أبواب بلاد الروم فى وجه السلاجقة ، كما يسر فتح أجزاء من بلاد الشام ـ فى نفس العام ـ السبيل أمام سيطرة السلاجقة على بلاد الشام كلها ، والتطلع الى فتح مصر واسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية التى كانت

---

(١) من المرجح أن نظام الملك قد ولد فى عام ٤١٠هـ وهناك قول بأنه ولد فى ٤٠٨هـ ٠

(٢) من المرجح أن ملكشاه قد ولد فى عام ٤٤٥هـ وهناك قول بأنه ولد فى عام ٤٤٧هـ ٠

(٣) ذكر الراوندى فى راحة الصدور وابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة ٤٦٥هـ أن ملكشاه منح نظام الملك القابا منها « أتابك » ومعناه « السيد الوالد » أو « الأمير الوالد » ٠

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥هـ ٠

ضعيفة ، آخذة فى الانهيار ، وكان القضاء عليها أهم الأهداف البعيدة فى نظر السلاجقة ٠

وهكذا وضحت معالم الطريق الى توسيع رقعة الدولة ، والاقاليم التى يستطيع جيش السلاجقة فى عهد ملكشاه ٠ أن يتجه اليها ، ويغزوها ، ويبسط سيطرة السلاجقة عليها ، ألا وهى بلاد الروم ، وبلاد الشام ومصر ٠

فتح بلاد الشام :

وقد بدأ ملكشاه بفتح بلاد الشام ، لأنه كان قد قاد جيشا فى عهد أبيه لفتح هذه البلاد ، وتمكن من فتح جزء منها ، والوصول الى بيت المقدس فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، ولذلك حرص ملكشاه بعد توليه عرش السلاجقة على استكمال ما بدأه ، فأعد جيشا ، وأسند قيادته الى أخيه تاج الدين تتش ، وأرسله الى بلاد الشام فى عام ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) ، فتمكن هذا الجيش من اعادة سيطرة السلاجقة على حلب ودمشق وبيت المقدس ، مما جعل السلطان ملكشاه يسند حكم بلاد الشام الى أخيه تتش فى عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) ،حتى يثبت أقدام السلاجقة فيها ، وسمح ملكشاه لأخيه بفتح ما يستطيع فتحه من أجزاء بلاد الشام ، ومن البلاد المجاورة لها ، لضمها الى حوزة السلاجقة ، وتأسيس فرع لدولة السلاجقة فى بلاد الشام واتخاذ مدينة دمشق مقرا لهذا الفرع الذى عرف فى التاريخ باسم « سلاجقة الشام » ، فأخذ تتش منذ ذلك الوقت يعمل على تثبيت نفوذ السلاجقة فى هذا الجزء من دولتهم ، فتوجه فى عام ٤٧١هـ (١٠٧٨م) الى حلب(١) ليردها الى منطقة نفوذه ، بعد أن علم باستمرار صلة حاكمها سرا بالفاطميين فى مصر ، ولما وصل تتش الى تلك المدينة حاصرها حصارا شديدا ، حتى نفدت الأقوات فيها ، فانتشرت فيها المجاعة ، واضطرت فى النهاية الى التسليم ، والخضوع لحكم السلاجقة ، وقطع كل علاقة بالفاطميين ٠

وكان الفاطميون قد انتهزوا فرصة انشغال تتش باعادة فتح حلب ، فحاولوا فتح دمشق ، واعادة سيطرتهم عليها فأرسلوا جيشا لهذا الغرض ، نجح فى الوصول الى دمشق وعكف على حصارها ، غير أنه لم يستطع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١هـ ٠

فتحها ، لأن تتش تمكن من السيطرة على حلب ، ثم أسرع الى دمشق لقتال الفاطميين ، فتركوا حصارها ، وانسحبوا قبل الاشتباك فى قتال مع السلاجقة(١) ، فدخل تتش دمشق دخول الظافرين فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) ، وقرر الاقامة فيها ، وجعلها مقرا لفرع دولة السلاجقة فى الشام ، وحاول تحسين سيرته ، وأن يحكم بالعدل بين الناس ، حتى يطمئنوا الى حكم السلاجقة ويقطعوا كل صلة لهم بالفاطميين ، ويرجعوا الى اتباع المذهب السنى ، ويدينون بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ٠

وقد نجح تتش فى تثبيت نفوذ السلاجقة فى بلاد الشام واستطاع فى أثناء خمس سنوات(٢) أن يبسط نفوذ السلاجقة على أكثر أجزاء بلاد الشام، بحيث صارت قلعة من قلاع السلاجقة المنيعة ، فخرجت نهائيا من قبضة الفاطميين وانضمت الى دولة السلاجقة ، وصارت داخل دائرة نفوذ المذهب السنى ، مما زاد الدولة الفاطمية ضعفا ، وكان عاملا من العوامل التى ساعدت على اسقاط هذه الدولة بعد ذلك(٣) ٠

فتح بلاد الروم :

وفى عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) قرر ملكشاه استئناف بسط سيطرة السلاجقة ، على أجزاء جديدة من بلاد الروم ، لتوسيع رقعة الدولة ، وتثبيت أقدامها فى تلك المنطقة ، وجنى ثمار الانتصار على الروم فى موقعة ملازكرد وتحقيقا لهذا الهدف عين ملكشاه أحد أفراد البيت السلجوقى الأقوياء ،وهو سليمان بن تتلش بن اسرائيل(٤) واليا على بلاد الروم ، ومؤسسا لفرع جديد من فروع الدولة عرف فى التاريخ باسم سلاجقة الروم(٥) ، فتوجه سليمان الى بلاد الروم فى ذلك العام ، ووضع يده على ولايتى قونيه وآق سرا(٦) ، واتخذ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١هـ ٠
(٢) تمكن تتش من السيطرة على بقية أجزاء بلاد الشام فى المدة من ٤٧٢ الى ٤٧٧هـ ، حتى وصل الى حدد مصر ٠
(٣) سقطت الدولة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ على يد صلاح الدين الأيوبى ٠
(٤) سليمان هذا هو ابن عم جغرى بك جد السلطان ملكشاه ٠
(٥) ظلت دولة سلاجقة الروم قائمة حتى عام ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ثم حل محلها العثمانيون ٠
(٦) فتحت هاتان الولايتان بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملازكرد ، وكان فتحها فى المدة بين ٤٦٣ و ٤٦٨هـ ٠

قونيه مقرا لفرع دولة السلاجقة فى بلاد الروم ، وبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الأتراك المسلمين والروم النصارى ، انتهت بسقوط دولة الروم(١) ، وسيطرة المسلمين على المنطقة بعد ذلك ٠

وقد تمكن سليمان فى المدة من ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) الى ٤٧٦هـ (١٠٨٣م) من توطيد نفوذ السلاجقة فى أكثر أجزاء بلاد الروم حتى وصل الى كوتاهيه، فصارت بلاد الروم قلعة قوية من قلاع السلاجقة المسلمين فى غربى آسيا ، وأصبحت معولا قويا من معامل هدم دولة الروم التى تزعمت الحروب الصليبية ٠

كما حاول سليمان فى عام ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) أن يفتح مدينة انطاكية التى كانت حينذاك تحت سيطرة الروم(٢) ، برغم أنها كانت جزءا من بلاد الشام ونجح سليمان فى فتحها ، وضمها الى ممتلكاته ، وكانت سيطرة المسلمين عليها أمرا بالغ الأهمية لأنه جعل نفوذهم يمتد الى سواحل البحر الأبيض المتوسط(٣) ، مما زاد الدولة السلجوقية قوة واتساعا ٠

غير أن استيلاء سليمان على انطاكية ، وهى داخلة حينذاك ٠ فى حدود بلاد الشام أحدث خلافا بين سليمان بن قتلمش مؤسس دولة سلاجقة الروم ، وتتش مؤسس دولة سلاجقة الشام ، لأن كلا منهما كان يحاول توسيع منطقة نفوذه مما أدى الى حدوث احتكاك ، ونشوب قتال بينهما ٠

وكان سليمان هو البادىء بالعدوان ، فقد فكر فى السيطرة على حلب وما جاورها ، بعد استيلائه على انطاكية ، حتى يتسع سلطان سلاجقة الروم، فتوجه بجيشه الى حلب ، وحاصرها حصارا شديدا ، فاستنجد حاكمها بتتش فصادف ذلك هوى فى نفسه ، لأنه كان قد أوجس خيفة من اتساع نفوذ سليمان ، وامتداد هذا النفوذ الى أجزاء من بلاد الشام ، فأسرع تتش على رأس جيش كبير ، لانقاذ حلب من السقوط فى يد سليمان ، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة عنيفة بالقرب من تلك المدينة انتهت بانتصار تتش ، وهزيمة

---

(١) كان سقوط دولة الروم بعد ذلك بأربعة قرون تقريبا أى فى القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى » على أيدى العثمانيين ٠

(٢) كانت أنطاكية تحت سيطرة الروم منذ عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ٠

(٣) كان هذا البحر يسمى حينذاك بحر الروم كما مر ٠

سليمان وقتله فى صفر من عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)(١) ، فدخل تتش حلب دخول الظافرين ، وضمها الى منطقة نفوذ سلاجقة الشام ٠

وكان اقتتال تتش وسليمان من الأمور التى أقلقت السلطان ملكشاه ، فآثر أن يتوجه بنفسه ، لاقرار الأوضاع فى بلاد الشام وبلاد الروم ، ومنع احتكاك أفراد البيت السلجوقى ، واقتتالهم فيما بعد ٠ طمعا فى مزيد من الممتلكات النفوذ ، فتوجه ملكشاه فى شهر جمادى الآخره من العام المذكور الى بلاد الجزيرة ثم الى بلاد الشام عن طريق الموصل وسيطر فى أثناء الطريق على عدد من القلاع التى كانت لاتزال تحت سيطرة الروم(٢) ، فلما وصل الى مشارف حلب ، أخلاها أخوه تتش ورحل الى دمشق ، فدخل ملكشاه مدينة حلب ، وطمأن أهلها ، ثم رحل منها الى بغداد ، وأصدر قرارا باقرار حكم تتش وأبنائه من بعده على بلاد الشام ، واقرار حكم أبناء سليمان بن قتلمش على بلاد الروم ٠

وهكذا اتسعت دولة السلاجقة فى عصر ملكشاه ، حتى شمل سلطانها بلاد الشام ، وجزءا كبير من بلاد الروم(٣) ، وصار لها فروع فى كرمان والشام ومنطقة آسيا الصغرى فأصبحت دولة مترامية الأطراف ، تمتد من حدود الهند والصين شرقا الى البحر الأبيض المتوسط غربا ومن البحر الأسود شمالا الى الخليج جنوبا ، حتى يمكن القول بأنها صارت أكبر قوة ضاربة فى العالم فى ذلك الوقت ، الى جانب تمسك السلاجقة بالاسلام ، وظهور صبغته فى جميع ألوان النشاط البشرى فى عصرهم ، فكانوا حينذاك يسمون جنود الخلافة العباسية المخلصين ، الذين يحمون دولة الخلافة ، وينشرون الاسلام ومبادئه القويمة ، فى بلاد غير اسلامية ، يزيدون بها دولة الاسلام قوة واتساعا ، وبذلك بلغ السلاجقة فى عهد ملكشاه أوج قوتهم ورفعتهم ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩هـ ٠
(٢) من أهم هذه القلاع قلعة الرها ٠
(٣) حاول ملكشاه فتح مصر ولكنه فشل ، فانصرف نهائيا عن التفكير فى هذا العمل ، وحرص على تأمين حكم السلاجقة فى بلاد الشام ٠

ازدياد التقارب بين العباسيين والسلاجقة :

وقد تمت مصاهرة بين ملكشاه والخليفة العباسى المقتدى بأمر الله فى أائل عام ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) ، حين تزوج الخليفة بنت السلطان من زوجته تركان خاتون بنت ملك الخانيين ، فازداد التقارب بين العباسيين والسلاجقة، كما ازداد نفوذ السلاجقة استقرارا فى جميع المناطق التى كانت تحت سيطرتهم وأدى ازدياد التقارب بين العباسيين والسلاجقة الى امتزاج حضارى بين الفرس والعرب والترك والكرد وسائر الشعوب التى تسكن دولة الخلافة العباسية وتخضع لنفوذ السلاجقة حماة هذه الدولة ، وظهرت آثار هذا الامتزاج فى جميع مظاهر النشاط البشرى ، وفى مختلف ميادين الحضارة فى بلدان الشرق اسلامى .

السيطرة على اقليم ما وراء النهر :

وقد أصبحت دولة السلاجقة فى عصر ملكشاه فى أوج قوتها ، فلم تجرؤ قوة فى الشرق أو الغرب على الوقوف فى وجهها ، ولم يبق أمام ملكشاه الا أن يبسط سيطرته التامة على اقليم ما وراء النهر ، ويخضع هذا الاقليم لحكمه ، حتى يثأر بذلك لوالده الذى قتل فى هذه المنطقة من قبل ، ولذلك توجه ملكشاه فى عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) على رأس جيش كبير الى ذلك الاقليم استجابة لطلب من علماء ما وراء النهر(١) ، الذين شكوا له من ظلم أحمد خان حاكم الاقليم ، فوجد ملكشاه الفرصة مواتية لغزو ما وراء النهر واخضاعه ، وبسط سيطرة السلاجقة التامة عليه .

وقد تحرك ملكشاه يرافقه وزيره نظام الملك من اصفهان الى خراسان ، ثم عبر بجيشه نهر جيجون الى بلاد ما وراء النهر ، وتمكن من فتح بخارى وسمرقند ، وهزم أحمد خان ، وقبض عليه ، وأخذه أسيرا ، وبسط سيطرة السلاجقة على اقليم ما وراء النهر ، فخضع هذا الاقليم لنفوذ السلاجقة خضوعا تاما ، كما أعلن والى كاشغر ولاءه للسلاجقة ، وخضوعه لحكمهم ، وهكذا اتسعت دولة السلاجقة شرقا وغربا(٢) ، وأصبحت تضم بلاد ما وراء النهر وايران وآسيا الصغرى والعراق والشام .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٣هـ .

(٢) الوارندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ ـ ١٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢هـ .

وظهرت براعة الوزير نظام الملك فى اظهار اتساع الدولة السلجوقية حين أشار على السلطان ملكشاه بأن يأمر بأن ترسل الجزية المفروضة على الروم بعد هزيمتهم فى موقعة ملازكرد الى كاشغر بدلا من اصفهان ، حتى يظهر للعالم كله مدى اتساع دولة السلاجقة ، كما أشار الوزير على السلطان بأن يأمر بأن ترسل الرسوم المفروضة على الملاحين العاملين فى نهر جيجون الى انطاكية ، حتى يظهر الى أى حد بلغ اتساع الدولة شرقا وغربا(١) ٠

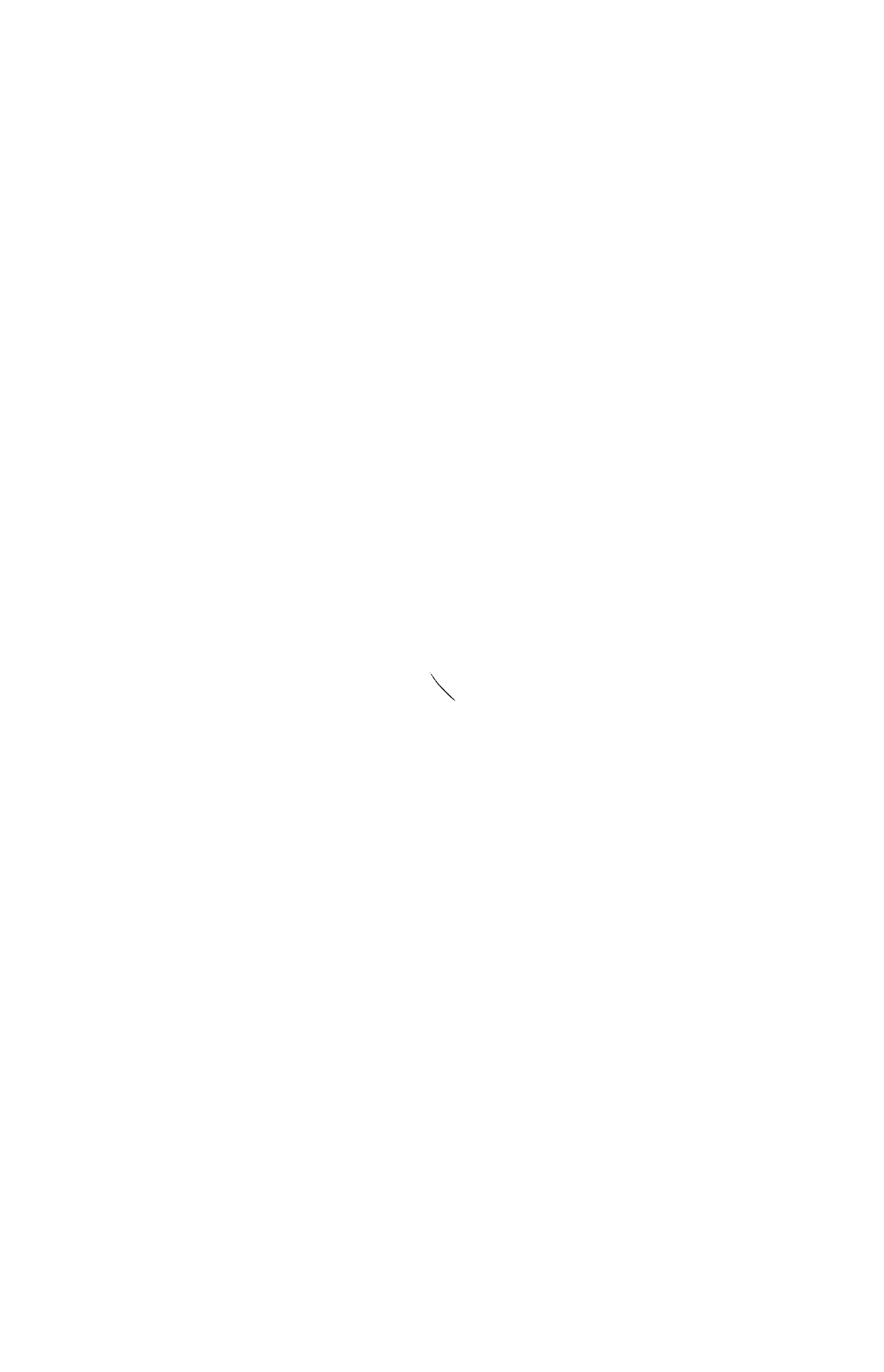
ولم يترك ملكشاه القسم الشرقى من دولته الا بعد أن ثبت نفوذ السلاجقة فى أرجائه ، فقد أخمد فتنة أثارتها قبائل الاتراك التى كانت تسكن بالقرب من سمرقند ، بحجة أن مرتباتها لاتصل اليها بانتظام ، وانضم الى الفتنة أمير فرغانة ، وزعماء بعض القبائل الأخرى الساكنة فى تلك المنطقة ٠ وقد تمكن ملكشاه من اخماد الفتنة دون قتال ، مستفيدا من حكمة وزيره ودهائه ، وبنفوذ زوجته تركان خاتون التى تنتمى فى أصلها الى المنطقة ، وهكذا استقرت الأوضاع فى بلاد ما وراء النهر ، ونامت الفتن ، واطمأن ملكشاه الى سيطرته التامة على تلك البلاد ، فرجع الى اصفهان واثقا من وصول السلاجقة الى أوج قوتهم ٠

وذاع صيت نظام الملك على أنه من أنجح الوزراء الذين شهدهم التاريخ حتى ذلك العصر ، فقد ساهم بحسن تدبيره وصواب تفكيره ، وذكائه ودهائه فى رسم سياسة حكمية اتبعتها دولة السلاجقة فى عصر ألب أرسلان وابنه ملكشاه فتقدمت الدولة ، وانتقلت من نصر الى نصر ، فارتفع شأنها وعظم نفوذها ، واتسعت حدودها ، وبلغت أوج قوتها ، وأصبحت مرهوبة الجانب من دول العالم كله حينذاك ، كما أصبحت محبوبة من المسلمين ، لأنها نشرت الاسلام فى مناطق جديدة ٠

غير أن دولة السلاجقة برغم بلوغها أوج قوتها لم تسلم من مواجهة مشاكل مختلفة ، كان لها أثر فى مستقبل هذه الدولة ، وفى اضعافها ، وهذه طبيعة حياة البشر منذ خلق آدم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو خير الوارثين وسأعرض المشاكل الخطيرة مرتبة حسب ظهورها زمنيا ، مبينا الآثار التى خلفتها كل مشكلة ٠

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢هـ ٠



الفصل الخامس

السلاجقة فى مواجهة المشاكل الخطيرة ·

واجه السلاجقة فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان ملكشاه مشاكل خطيرة ، هزت أركان دولتهم ، وهددت وحدتهم ، وكانت معاول هدم لدولتهم القوية ، بعد أن بلغت هذه الدولة أوج قوتهـا ، وأصبحت فسيحة الأركان ، عظيمة السلطان ونعرض فيما يلى أهم تلك المشاكل الخطيرة التى واجههـا السلاجقة ومدى تأثيرها فى استقرار دولتهم وتماسكها وثباتها :

أولا : ظهور الاسماعيلية فى ايران

الاسماعيلية فرقة شيعية تنتسب فى أصلها · الى اسماعيـل بن جعفر الصادق ، وكان اتباع هذه الفرقة يعتقدون أنه أحق بالامامة من أخيه موسى الكاظم(١) ، وهــم يؤمنون بسبعة أئمة أولهم على بن أبى طـالب وآخرهم اسماعيل الذى يؤمن الكثيرين من أتباعه بأنه اختفى ، وبأنه سوف يظهر فى آخر الزمان لاصلاح أحوال الدنيا الفاسدة ، ثم تقوم الساعة بعد ذلك ·

وللاسماعيلية أسماء كثيرة منها السبعية لأنهم يؤمنون بسبعة أئمة كما ذكرنا ؛ ومنها التعليمية(٢) لايمانهم بأن الامام هو المعلم ، لأن العقل البشرى وحده قاصرة عن معرفة الله معرفة حقة ، وأن الامام هو الذى يقوم بتعليـم الناس وارشادهم الى معرفة الله معرفة حقة ·

ومن أسمائهم كذلك الباطنية لأنهم يؤمنون بأن للعقيدة ظاهرا وباطنا ، وأن الراسخين فى العلم هم وحدهم الذين يدركون كنه الباطن ، وقد أدى بهم

---

(١) النوتجى فرق الشيعة ، ص ٥٧ ــ ٥٨ ·
(٢) اقبال : تاريخ ايران ، ص ١٦٤ ·

هذا الاعتقاد الى تأويل أحكاما الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة ظاهرا وباطنا فالظاهر للعوام ، والباطن للراسخين فى العلم ، وهم علماء الدين فسموا لذلك الباطنية(١) ٠

كما سماهم أهل السنة « الملاحدة » لأنهم أولوا كثيرا من أحكام الشريعة تأويلا ألغاها الغاء تاما بما يتنافى مع صريح قول الله فى محكم كتابه ، ويتنافى مع قول الرسول وفعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعد خروجا على الدين ، والحادا فيـه ٠

ومن أسماء اسماعيلية فى ايران « الحشاشون » لأنهم كانوا يدخنون حشيشة مخدرة تجعلهم ينقادون انقياد اعمى لقادتهم من الدعـاة وعلمـاء الدين ، فينفذون ما يأمرونهم به ، ولو كان قتل مخالفيهم ، معتقدين أنهم بهذه الطاعة العمياء يدخلون الجنة ٠

وسمى الاسماعيلية كذلك « السفاحين » لأنهم كونو فرقا من الفدائيين الذين ينتشرون فى أرجاء العالم السنى لقتل كبار مخالفيهم من أهل السنة ، وفى مقـدمتهم الخلفـاء العباسيون ، وسلاطين السلاجقـة ووزراؤهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا ، مؤمنين بأن سفك دماء أعـداء الاسماعيلية عمل مشروع يقرب من الله ، ويدخل الجنة ويعد جهادا فى سبيل الله ، فسموا لذلك « السفاحين » ٠

ومهما يكن الاسـم الذى يطلق على الشيعـة الاسماعيلية الذين ظهروا فى ايران فى عصـر السلاجقة ، وأصبحوا مشكلة خطيرة تواجه السلاجقة منذ أواخر عصر السلطان ملكشاه ، فانهم كانوا على صلة وثيقة بالفاطميين فى مصر ، وكانوا ينظرون الى السلاجقة والعباسيين على أنهم ألد أعدائهم ،

---

(١) حاول الشيعة على اختـلاف فرقهم ، أن يفسـروا قول الله تعـالى فى سورة آل عمران ، آية ٧ « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هى أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الـذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألبـاب » تفسيرا يتفق مع ما يؤمنون به ، وهـو أن ٠ الراسخين فى العلم يعلمون المعنى الباطن ٠

ويستبيحون دماءهم ، مما يبين مدى خطورة ظهورهم بصورة قوية فى ايران ، سواء على دولة السلاجقة أو على الخلافة العباسية نفسها ٠

وكان دعاة الاسماعيلية منتشرين فى الأقطار الاسلامية المختلفة ، وكانوا يروجون مبادىء المذهب الشيعى الاسماعيلى بكل الوسائل ، وكان انتشارهم فى العالم الاسلامى قبل قيام دولة السلاجقة بأكثر من قرنين من الزمان ، فكان دعاة الاسماعيلية يشاهدون فى اقليم السند بالهند ، وفى البحرين وايران والعراق والشام ومصر وشمال افريقية ، وقد نجحوا فى اقناع بعض الأمراء وشيوخ القبائل والعديد من الأفراد باتباع مذهبهم حتى تمكن الاسماعيلية من أقامة حكم لهم فى أجزاء مختلفة من العالم الاسلامى ، فقامت دولة القرامطة وهى دولة شيعية اسماعيلية فى عام ٢٨٧هـ (٨٩٩م) فى البحرين وتمكنت من بسط نفوذها على أجزاء من عمان والعراق والشام ، كما استولى القرامطة على مكة ، وظلوا يشيعون القتل والرعب بين المسلمين وقتا من الزمن ٠

كما استطاعت طائفة منهم اقامة دولة فى تونس بشمالى افريقية فى عام ٢٩٦هـ (٩٠٨م) ، وهى الدولة الفاطمية التى أرتفع شأنها حتى سيطرت على مصر وجزء كبير من بلاد الشام وبلاد العرب ، وصارت دولة للخلافة الشيعية اتخذ القاهرة عاصمة لها ، وأصبحت منافسا خطرا للخلافة العباسية التى مقرها بغداد ، وقد قرئت الخطبة فى بغداد نفسها باسم الفاطميين أكثر من عام من الزمان فى أثناء غلبة البساسيرى كما ذكرنا قبل ذلك ٠

وقد انتشر نفوذ الاسماعيلية كذلك ٠ فى بعض أجزاء ايران فى العصر السامانى فى أثناء حكم نصر بن أحمد ، كما انتشر فى أثناء حكم الديالمة من آل زياد ، غير أن هذا النفوذ أصابه ضعف شديد فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بعد غلبة الغزنويين ، وكان غير ملموس تقريبا ـ فى بداية حكم السلاجقة فى ايران والعراق ، وكان السلاجقة شديدى التمسك بالمذهب السنى ، فكانوا يقفون فى وجه النشاط الشيعى ، مما لا يتيح للاسماعيلية مجالا للنشاط ، ونشر النفوذ ٠

وظل الأمر كذلك الى عصر ملكشاه ، حين تهيأت لحسن الصباح أحد

دعاة الاسماعيلية الأقوياء فرصة التحرك ، والـدعوة للمذهب الاسماعيلى داخل ايران ، واقناع عدد من الناس بالانضمام اليه ٠

وكان حسن الصباح من أهـل مدينـــة الرى ـ أول عاصمة لـدولة السلاجقة ـ وقد رحل منهـا فى عام ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) اصفهان ، ثم أخـذ يطوف بالاقاليم الاسلامية المختلفة ، فزار آذربيجان وبلاد الشـام ، ثم زار مصــر فى عـام ٤٧١هـ (١٠٧٨م) ، وأقام فيهـا عاما ونصف عام ، ووجد فى أثناء اقامته بمصـر نزاعا حـول ولاية العهـد بين نزار والمستعلى ابنى الخليفـة الفاطمى المستنصر بالله ، وانقسم الشيعة نتيجة لذلك الى طائفتين كل منهما تؤيد ابنـا وتخالف الآخـر ٠ فانضم الصباح الى طائفـة نزار ، صارت النزارية فرعا من فروع الاسماعيلية(١) ٠

وغادر الصباح مصـر فى عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) متحمسا للدعـوة لمبادىء النزارية ، ورحل الى ايران لهذا الغرض ، وأخـذ يدعو الناس بكل وسيلة ممكنة للانضمام اليه ، فالتف حوله عـدد من النـاس ، وظل أنصاره يزدادون يوما بعـد يوم ، حتى تمكن فى خلال عشر سنوات من تكوين جيش قوى ، متحمس لمبـادىء الاسماعيلية النزارية ، مستعد لبذل الروح من أجل نصرتهـا ٠

واستطاع الصباح بهذا الجيش الاستيلاء على قلعة « ألموت »(٢) فى اليوم السادس من شهر رجب من عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، ثم اتخـذ هـذه

---

(١) انتشر أتباع النزارية فى ايران فى عصر ملكشاه ومن بعده من سلاطين السلاجقـة الى أن قضى عليهم هولاكو خان المغولى قبـل فتح بغداد بسنتين أى فى عام ٦٥٤هـ ، وقـد أحدث النزارية تحورا فى مبـادىء الاسماعيلية ٠ ارجع فى تفضيل هـذا الى كتاب تاريخ ايران لعبـاس اقبال ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ٠

(٢) « ألموت » كلمة ديلمية معناها « عن العقاب » ، ويقول اقبـال فى تاريخ ايران حاشية ص ١٦٥ ان معناها « المكان الذى أرشد اليه العقاب » ، لأنهـا كانت قلعة فى مكان مرتفع ، فكانت حصينة منيعـة ، وبرغم عدم توفيق نزار بن المستنصر بالله الفاطمى فى تولى الخـلافة بعـد موت أبيه ، لهزيمته ووقوعه أسيرا فى يد أخيه وسجنه وموته فى السجن ، فان أنصاره كانوا منتشرين فى ايران فى عصر السلاجقة ٠

القلعة الحصينة مقرا له ، ومركزا لدعوته ، وقاعدة ينطلق منهـا الى أجزاء أخرى من ايران ،وكثر مريدوه ، وتمكن من تكوين معاقل حصينة للاسماعيلية فى ايران ، وكانت هـذه المعـاقل تنتشر فى أماكن جيليـة فى شمالى ايران وشرقيها ، وتمتـد فى المنطقة الواقعـة بين آذربيجان وكرمان ،وكانت معاقل منيعة مرتفعة ، يصعب الوصول اليها ٠

وكان جيش الاسماعيليـة فى ايران ـ يمتـاز بالحماسـة والفدائيـة والاستعداد للتضحية فى سبيل نشـر الدعوة وحمايتها ، وكان فيـه عدد من الفدائيين الذين كانوا يرسلون لقتل أعداء الاسماعيلية وفى مقدمتهم الخلفاء والسلاطين والوزراء وكبـار القـواد ، وكان من يقف حجر عثرة فى طريق أنتشار المـذهب الاسماعيلى النزارى ، ولذلك كان استيلاء الاسماعيليـة على قلعة ألمـوت مشـكلة خطيرة واجهت دولة السلاجقـة فى عصـر السلطان ملكشاه ، وأثارت قلقـا فى جميع أنحـاء دولة السلاجقة ، خـوفا من تسلل فدايئى الاسماعيلية الى المدن المهمة ، وارتكابهم أعمال الاغتيال ضد أعدائهم من أهـل السنة ، ولم يلبث الاسماعيلية طويلا بعد استيلائهم على « ألموت » ، فقـد قاموا فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) باغتيال أقوى رجل فى دولة السلاجقة ، وفى العالم السنى فى ذلك الوقت ، ألا وهو الوزير نظام الملك ٠

ثانيا : مصـرع الوزير نظام الملك

قتـل الاسماعيلية الوزير نظام الملك فى عـام ٤٨٥هـ(١) (١٠٩٢م) ، وكان مصرع هـذا الوزير القوى ثانيـة المشـاكل الخطيرة التى تواجههـا السلاجقة فى عصر السلطان ملكشاه ، لأن نظام الملك كان فى الحقيقة ممسكا بزمام الأمور فى دولة السلاجقة ، وكان عالمـا حكيما ذا ذكاء ودهاء ، مما جعله أقوى رجل فى الدولة ، وفى أرجـاء العـالم السنى كله ، وجعـل قتله يحدث هزة شديدة فى أركان دولة السلاجقة ، تؤثر فى تماسكها ووحدتها ٠

وكانت الأحوال فى دولة السلاجقة حين ازدياد نفـوذ الاسماعيلية فى ايران ، واستيلائهم على قلعة ألموت تساعدهم على توجيه ضـربة قوية لتلك الدولة تهز كيانها مثل قتل وزيرها نظام الملك ، لأن خـلافا شديدا حـدث بين الوزير والسلطان حول ولاية العهـد ، واستغل أعداء الوزير هذا الخلاف ،

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص٦٣ ٠

فأوقعوا بينــه وبين السلطان ، وأقنعوا السلطان بأن الوزير ينفرد بتصريف الأمــور فى الدولة ويستعين بأهله وأتباعه فى السيطرة على مرافق الــدولة المختلفة ، وأن هؤلاء يصرفون الأمور وفقا لارادتهم ، ويتحكمون ويستبدون ، مستغلين مكانة نظام الملك ونفوذه فى الدولة ٠

والواقع أن نظام الملك كان فى ذلك الوقت شيخا كبيرا قد جاوز السبعين من عمره ، وكان يستعين بأبنائه(١) وأقاربه وأتباعه فى ادارة أقاليم الدولة المختلفة(٢) ، وكان لهؤلاء نفوذ كبير فى دولة السلاجقة ، استنادا الى نفوذ نظام الملك وكانوا كثيرا ما يستغلون نفــوذهم ، ويبتعدون عن جادة العــدل والصواب ، مما أتاح لمنافسى نظــام الملك وحساده فرصة الدس بينــه وبين السلطان ، حتى ينفروا السلطان من الوزير ، ويزيدو نار الخلاف اشتعالا ٠

وكان سبب الخــلاف حول ولاية العهد تركان خاتون زوجة السلطان ، لأنها كانت تريد أن يصبح ابنهــا محمود وليا للعهــد ، يلى العرش بعد أبيه ، وكان هذا الابن أصغر أبناء ملكشاه ، فقد كان فى ذلك الوقت طفلا صغيرا(٣) ، بينما كان ملكشاه أبناء آخرون من زوجات أخريات غير تركان خاتون ، وكان أكبرهم بركيارق الذى كان الوزير نظام الملك يفضل أن يلى العرش بعد أبيه ، حتى لا يحدث شقاق وقتال بين أفراد البيت السلجوقى ٠

وكانت تركان خاتون زوجــة جميلة مــدللة ، ذات تأثيــر كبيــر على السلطان ملكشــاه ، وذات نفــوذ فى الــدولة باعتبــارها زوجــة السلطان السلجوقى ، وأم زوجة الخليفة العباسى ، وقــد أدت معارضــة الوزير نظام الملك لتعيين ابنها محمود وليــا للعهد الى معاداتهــا للوزير ، واشتراكهــا فى تشويه صورته عنــد السلطان ، وتحريضه عليــه ، واقنــاعه بضرورة عــــزله ٠

وأخذ ملكشاه يتحين الفرصــة المناسبة لعزل نظــام الملك حتى واتتــه الفرصة فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) حين شكا قودن والى مرو من قبل السلطان

---

(١) كان لنظام الملك عدد كبير من الأبناء والأحفاد ، وقــد تولى عشــرة من أبنائه الوزارة بعده فى الدولة السلجوقية ٠

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص١٣٢ ٠

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص١٣٤ ٠

ملكشاه من عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك الذى كان جده قد ولاه رئاسه مرو ، لأنه استغل نفوذ جده فقبض عليه وأودعه السجن ـ زمنا ـ ، ثم أطلق سراحة ، فقصد السلطان مستغيثا شاكيا(١) ، فكانت هذه الشكوى المبرر الكافى لعزل نظام الملك من الوزارة ، والقضاء على نفوذ أبنائه وأتباعه ٠

ووجد التفكير فى عزل الوزير تأييدا من زوجة السلطان تركان خاتون ، والكثيرين من كبار رجال الدولة الطامعين فى أن يظفر كل منهم بالوزارة ، ويحل محل نظام الملك ، غير أن السلطان ملكشاه ، تردد فى اصدار قرار بعزل نظام الملك خوفا من حدوث فتنة ، ورأى أن يرسل له تهديدا بالعزل ، لعله بذلك يرهبه ، ويحد من نفوذه ، ويخوف أبناءه وأتباعه ، ومؤيديه من رجال الجيش ، فاتخذ ملكشاه من شكوى والى مرو سببا لتهديده بالعزل ، فأرسل اليه خطابا شديد اللهجة فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) يهدده فيه بالعزل ، وأرسل الخطاب مع جماعة من كبار رجال دولته منهم شخصان من ألد أعداء نظام الملك هما تاج الملك الشيرازى ، ومجد الملك القمى ، وذلك امعانا فى أغاظة نظام الملك واعضابه واحراجه ، وقد وجه ملكشاه فى هذا الخطاب الكلام الى وزيره قائلا : « ان كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة ، فلذلك حكم ، ان كنت نائبى وبحكمى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، وهؤلاء أولادك قد استولى كل منهم على كورة عظيمة ، وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك ، حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا الى فعل كذا وكذا وكذا ٠٠٠ » وأطال القول(٢) ٠

فلما وصلت رسالة السلطان الى نظام الملك تميز غيظا ، ورد عليها ردا جافا ، تحدى فيه السلطان ، وهدده من مغبه الاقدام على عزله ، وأظهر فيه قوته ومكانته ، فقال لمن حملوا له رسالة السلطان : « قولوا للسلطان ان كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأيى ؛ أما يذكر حينما قتل أبوه ، فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ؛ منهم فلان وفلان ـ وذكر جماعة ممن خرج عليه ـ وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ، ولايخالفنى ؛ فلما قدت الأمور اليه ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ ٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ ٠

وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعة القاصى والدانى ، أقبل يتجنى لى الزنوب ويسمع فى السعايات · قولوا له عنى : ان ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وان اتفاقهما رباط كل رغيبة ، سبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك ، فان عزم على تغيير ، فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الجذر من الحادث أمام طروقه » ثم قال لهم : « قولوا للسلطان عنى مهما أردتم ، فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه ، وقت فى عضدى(١) ·

وأحيط السلطان علما برد نظام الملك على رسالته ، فتضايق أشد الضيق ، وتدارس الأمر مع أعداء نظام الملك من كبار رجال الدولة ، ولم يجرؤ على عزل نظام الملك ، ففضل أن يسلك طريق التآمر على قتله ، للتخلص منه ·

وكانت تركان خاتون زوجة السلطان تتعجل التخلص من نظام الملك والقضاء عليه بأية وسيلة ممكنة ، ففكرت فى تأجير شخص لاغتيال نظام الملك ، وكان السلطان على علم بما تدبره ، وكان موافقا عليه ·

وفى بداية شهر رمضان من عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) تحرك السلطان ملكشاه ، وبرفقته زوجته تركان خاتون ، وكبار رجال دولته ، فى طريقهم الى بغداد ، حتى يزور السلطان وزوجته ابنتهم زوجة الخليفة العباسى ، ورأى نظام الملك أن من الخير أن يسير فى ركاب السلطان ، حتى لا يؤدى تخلفه الى الأقاويل ، ونشر الشائعات ؛ وفى العاشر من رمضان من ذلك العام ،وصل ركب السلطان الى اصفهان ، وكان نظام الملك فى مقدمة رجال السلطان السائرين فى ركابه ، بينما كان أعداؤه ، يتآمرون عليه لاغتياله فى أثناء السير الى بغداد ·

ووجد الاسماعيلية الفرصة مواتية لاغتيال الوزير نظام الملك أقوى رجل فى دولة السلاجقة ، وفى دولة الخلافة العباسية ، وفى تحميل دمه على أعدائه المتمثلين فى السلطان وزوجته وعدد من كبار رجال دولته ، فقتلوا

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ص٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥هـ ·

نظام الملك فى ذلك اليــوم ، وكان قتله بواسطة واحد من فدائييهم ، وقد تقدم هــذا الفدائى ، وهــو يرتدى ملابس الزهاد نحو نظــام الملك ، وتظاهر بأنه يريد تقــديم ملتمس للوزير ، ثم أخرج سكينا من طيات ثيابه طعن بهــا نظام الملك طعنــة قاتلة ، توفى على اثرها(١) ، ولم ينزعج السلطان وبقية رجاله المعادين لنظام الملك لما حدث ، فظهروا أمام الناس فى صورة المحرضين على قتل الوزير ٠

وقد حقق الاسماعيلية باغتيالهم نظــام الملك هدفين ، أولهما التخلص من أقوى رجــل فى العــالم السنى ، وثانيهما اثارة الفتنة فى ربوع الدولة السلجوقية بايهام النــاس ، أن السلطان ورجاله المعادين لنظــام الملك هــم الذين دبروا مؤامرة اغتياله ، وأن القتــل تم بأمــر السلطان ، فحملوا بذلك دم الوزير على السلطان وأنصاره ، الأمر الذى أشعل نيران الفتنة فى دولة السلاجقة ، وكانت له نتائج وخيمة ، وأوجد مشاكل خطيرة ، أدت الى ضعف هذه الدولة وتفككها وبخاصة بعد أن توفى السلطان ملكشاه بعــد مصرع نظام الملك بأقل من أربعين يوما ، وانتشرت الشائعات حول موته ٠٠

ثالثا : موت السلطان ملكشاه

وقد توجه ملكشاه بعد مصــرع وزيره الى بغــداد حيث عين تاج الملك الشيرازى وزيرا لدولة السلاجقة خلفا لنظــام الملك ، غيــر أن السلطان لم يلبث أن توفى فى الأربعين من عمــره فى منتصف شوال بعــد خمسة وثلاثين يوما من اغتيال نظام الملك(٢) ٠

وكانت وفاة ملكشاه فى ظروف غامضة ، أثارت الشائعات حول وفاته ، فقد كان ملكشاه فى قمــة الشباب ، ولم يكن مريضا ، فكان موته قبــل مرور أربعين يوما على اغتيال الوزير نظــام الملك مثيرا للشكوك والأقاويل والفتن فى أنحاء دولة السلاجقة ، وهــذا ما كان يهدف اليه الاسماعيلية ، وكان أهم ما راج من شائعات حول وفاة ملكشاه أن أنصــار نظــام الملك دسوا له السم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ ، وقد أشارت الى هذه الحادثة كذلك جميع الكتب التى سبق ذكرها ، قــد اعترف الاسماعيلية بقتلهم نظام الملك : بعد ذلك ، بنصف قرن تقريبا ٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ ٠

فى الطعـام حتى يأخـذوا بثأر نظـام الملك قبـل مرور أربعين يوما على قتـــله(١) ٠

ومهما يكن من شىء ، فان الدولة السلجوقية ، فقدت فى أثنـاء خمسة وثلاثين يوما الوزير والسلطان اللـذين كانا أعظـم رجلين فيهـا ، فانفرط بذلك عقد السلاجقة ، وتمزقت وحـدتهم ، ووهنت قوتهم ، وتحقق قول نظام الملك فى رده على رسالة السلطان ، وهـو أن السلطنة مربوطة بوزارته فان زالت الوزارة ، انهارت السلطنة ٠

* * *

دولة السلاجقة بعد اختفاء نظام الملك وملكشاه :

ان الدارس لـدولة السلاجقة فى حاجـة الى أن يقف وقفة طويلة فى هذه الدولة بعد اختفاء وزيرها القدير نظام الملك وسلطانها العظيم ملكشاه ، حتى يقارن بين أحوال تلك الدولة قبل موتهما وبين أحوالهـا بعد اختفائهما ، حتى يتبين الفرق بين الوضعين ، ويتضح أثر اختفـاء السلطان والوزير فى سير الأمور فى دولة السلاجقة والنتائج التى ترتبت على هذا الاختفاء ٠

والحقيقة التى لاشك فيها أن دولة السلاجقة بلغت أوج قوتها فى عصر السلطان ملكشاه ، واتسعت رقتها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ــ كما بينا ــ وكان لحسن سياسة الوزير نظـام الملك أثر كبير فى تقـدم هـذه الدولة فى الميادين السياسية والثقافيـة والاجتماعية ، وفى ألوان النشـاط البشـرى المختلفة ، وبخاصة أن ذلك الوزير القدير قـد تولى الوزارة طوال مدة حكم السلطان ألب أرسلان وابنـه السلطان ملكشاه ، فظـل وزيرا للدولة ثلاثين

(١) حفلت كتب التاريخ التى ذكرناها بأخبـــار وروايات كثيرة حول وفاة ملكشاه المفاجئة بعـد مقتل وزيره نظام الملك بأقـل من أربعين يوما ، فقيل انه توفى وفاة طبيعية ، وقيـل انه أصيب باختناق فى الحمام ، وقيل كذلك ان أنصار نظام الملك دسوا له السم فى الطعام ، وهو أرجح الأقوال ، كما قيـــل ان زوجتــه تركان خاتون تآمـرت مع تاج الملك الشيرازى على قتـل السلطان وهو قـول لا يمكن أن يكون صحيحا ، لأنها كانت الزوجة المدللة ذات التأثير والنفوذ ، فمن غير المعقول أن تتآمر على زوجها دون سبب ٠

عاما ، وهى مدة طويلة مكنتة من اظهار كفاءته ومهارته فى ادارة الدولة ، وتوجيه دفة الأمور فيها ، بما حقق لها التقدم فى مختلف الميادين ٠

وكان نظام الملك طوال المدة التى تولى فيها الوزارة ممسكا بزمام الأمور فى دولة السلاجقة المترامية الأطرف ، فكان يعد الأستاذ الأكبر وسيد الوزراء ، وقد أشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة فى الداخل والخارج ، وحدد أهدافها والطرق التى توصل الى هذه الأهداف ، واستطاع بحسن سياسته ، وسلامة تفكيره ، ودقة تدبيره أن يجعل الأمور منتظمة فى جميع أنحاء الدولة ، وأن يخمد الفتن التى أطلت برأسها بين حين وآخر طوال مدة وزارته ، وأن يجعل السلاجقة أكبر قوة فى العالم الاسلامى ، ويكسبهم احترام المسلمين وتقديرهم ، ويبث فى نفوس غير المسلمين رهبتهم ، فخشيهم الروم وسائر الدول النصرانية ، ودفع قياصرة الروم الجزية لهم ، وقبلوا ــ وهم صاغرون ــ أن يدفعوا الجزية للسلاجقة لمدة خمسين عاما هكذا بلغ السلاجقة أوج قوتهم ، وأعلى درجات رفعتهم ٠

وقد سجل نظام الملك آراءه فى السياسة ونظم الحكم فى كتابه المشهور « سياستنامة »(١) الذى ألفه فى هذا الموضوع ، وهو من أشهر الكتب التى تبين نظم الحكم ، وكيفية ادارة البلاد ، وكسب رضا المحكومين ، وقبولهم لسلطان الدولة دون تذمر أو ثورة ، مما يجعل ما تضمنه هذا الكتاب أساسا سليما لفن الحكم ، كما جعله يحظى بشهرة واسعة ، فأصبح مرجعا يرجع اليه الدارسون لنظم الحكم فى الشرق والغرب ، فترجم من اللغة الفارسية الى كثير من اللغات الحية فى العالم ٠

كما شجع نظام الملك على تعمير المدن واصلاح الطرق وتشييد المساجد والمدارس ، وفعل الخير ، والاستجابة لشكوى المظلومين وشيد نوعا من المدارس عرف باسم المدارس النظامية للتصدى لنشاط دعاة الاسماعيلية ، ومجادلتهم وافحامهم ، وبيان انحرافهم عن طريق الدين ، وأنشأ هذه

---

(١) « سياستنامة » معناها « كتاب السياسة » وقد ألفه نظام الملك فى أواخر حياته ، وضمنه خبرته وتجاربه فى الحكم ، وقد كتب أكبر من بحث عن نظام الملك ، كما ترجم الدكتور السيد محمد العزاوى ــ رحمه الله ــ هذا الكتاب الى اللغة العربية ــ ونشره فى القاهرة ٠

المدارس فى المدن المهمة مثل بغداد واصفهان ونيسابور وطوس وهراة ، وكانت للمدرسة النظامية فى بغداد شهرة علمية واسعة ، وقد بقيت أبنية وآثار عظيمة فى مختلف الأمصار تحمل اسم نظام الملك بعد وفاته ، وتدل على أعماله الطيبة ، وسياسته الحكيمة التى حققت العمران والتقدم فى مختلف أرجاء دولة السلاجقة ٠

وقد ساعدت سياسة نظام الملك الحكيمة على اقرار الأمن والنظام فى جميع أرجاء دولة السلاجقة ، فانتعش المجتمع فى ظل حكمهم وخمدت الفتن ، واتجه الناس الى خدمة أهداف الدولة ، ونظروا الى حروبها على أنها جهاد فى سبيل الله ، وبخاصة الحروب التى كانت بين السلاجقة والروم ، فقد عدت غزوات من أجل نصرة الاسلام ونشره ، واعلاء كلمة الله ، وبذلك بلغ السلاجقة فى عصر ملكشاه أوج قوتهم ٠

أما من الناحية الثقافية ، فقد انتشر العلم ، وكثر العلماء والمتخصصون فى مختلف العلوم والفنون ، لكثرة المدارس ودور العلم ومجالسه ، وتشجيع الدولة على طلبه ، وقد كان نظام الملك نفسه أديبا ، فشجع على نشر العلم وترويج الثقافة ، وشمل العلماء والأباء والمتخصصين فى مختلف الفنون برعايته وتشجيعه ، فاجتمعوا حوله ، وألفوا الكتب ، ونظموا الأشعار فى مدحه ، والاشارة بأعماله ، فراجت سوق العلم ، وازدهرت الثقافة فى ظل حكم السلاجقة ٠

ويستطيع الدارس بعد ذلك أن يتصور الأثر الذى يتركه اختفاء وزير مثل نظام الملك فى دولة السلاجقة ، فقد أدى مصرعه الى زلزلة أركان هذه الدولة زلزالا شديدا والى انتكاسها انتكاسا عنيفا ، فبدأت صفحة جديدة من تاريخها ، فقد انتهى عصر التماسك والقوة ، وبدأ عصر التفكك والضعف والانهيار ٠

وأوضح دليل على مكانة نظام الملك فى دولة السلاجقة أن نفوذ أفراد أسرته بقى بعد مصرعه ، بسبب حب الناس لرب هذه الأسرة ، والتفافهم حول أفرادها ، فوصل كثير منهم الى الوزارة فى أثناء حكم أبناء ملكشاه وأحفاده ، وكثيرا ما كان يكفى تأييد أسرة نظام الملك لفرد من أفراد البيت السلجوقى لغلبته وانتصاره وظفره بالعرش ، لأن الناس كانوا يلتفون حول

من تؤيده أسرة نظام الملك كما كان يكفى أن تتخلى هـذه الأسرة عن تأييد فرد من البيت السلجوقى لينصرف الناس عنه ، ويخذلوه . كما سنرى .

أما السلطان ملكشاه ، فقد كان كـذلك من أعظم سلاطين السلاجقة ، فصارت دولة السلاجقة فى أثناء حكمه دولة قـوية ، يحسب العالم كله لها ألف حسـاب ، واتسعت رقعتها شرقا غربا ـ كما بينا ـ وكان حكام الكرج والأنجاز والروم غيـر المسلمين ، يرسلون اليـه الخـراج ، ويدفعون له الجـــزية .

وقد انتشر العمران فى ظل حكمه ، وازدهرت الثقافة وارتقت الحضارة الاسلامية ، وظهر التقدم فى جميع ألوان النشـاط البشرى فى مختلف أنحاء دولة السلاجقة المترامية الأطراف .

وكان من أشهر الأعمال التى تمت فى عصـر ملكشاه التقويم المعروف باسم « التقويم الجلالى »(١) نسبة اليه . وقد تم وضع هذا التقويم فى مدينة اصفهـان(٢) فى عـام ٤٦٧هـ (١٠٧٤م) بتشجيع من الوزير نظـام الملك ، واشترك فى وضع هذا التقـويم واصلاحه الشاعر المشهور أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام النيسابورى .

وصفوة القول هنا أن اختفاء نظام الملك وملكشاه من أهم الأحـداث التى شهدها عصر السلاجقة ، وتظهر أهمية هـذا الأمر اذا قارنا بين حالة الدولة

---

(١) ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل عند ذكره حوادث سنـة ٤٦٧هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه جمعـا جماعة من أعيـان المنجمين فجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت صار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم وتبدأ السنة بمقتضى هذا التقويم فى ٢١ مارس من كل عام غالبـا ، وهو التقويم الشمسى المستعجل فى ايران فى الوقت الحاضر ..

(٢) أصبحت مدينة اصفهان فى عصر ملكشاه من المدن الكبرى فى العالم ، ومن أكثر مدن العـالم عمرانا وازدهارا فقد أنشـأ السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك وكبـار رجال السلاجقة كثيرا من الأبنيـة الفخمة فى تلك المدينـة ، لايزال بعضها قائمـا الى الوقت الحاضـر ، وكان سكان اصفهان يحبون نظام الملك ، فأثار مقتله فى هـذه المدينة شعور الناس ففيها فالتفوا حـول أفراد أسـرة نظام الملك ، وساندوا كل فرد من أفراد البيت السلجوقى تؤيدة أسرة نظام الملك .

فى أثناء حياة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك ، وحالتها بعد اختفائهما ، فقد تبدلت حالتها من القوة والتقدم الى الانقسام والضعف والتراجع ، فكثر التنـازع بين أفراد البيت السلجوقى من أجـل الظفر بالعرش ، كما كثر التنازع بين كبار رجال الدولة حول كرسى الوزارة ، فقامت الحروب الداخلية، واختفى التطلع الى الأهـداف الكبرى التى كان السلاجقة يتطلعون اليها فى أثناء حكم طغرل الأول وألب أرسلان وملكشاه ٠

ولا يبعـد الدارس للدولة السلجوقية عن الحقيقة ، اذا قال ان اختفاء السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك كان نهـاية لعصـر التماسك والقـوة والازدهار ، وبداية لعصر من التفكك والضعف والانهيار ٠

الفصل السادس

تنازع السلاجقة وتمزق دولتهم

النزاع حول العرش :

كان اختيار الشخص الذى يجلس على عرش السلاجقة بعد ملكشاه المشكلة الأولى التى مزقت وحدة السلاجقة ، وأشعلت نيران الفتن والحروب الداخلية فى دولتهم ·

وقد أطلت هذه المشكلة برأسها فى السنوات الأخيرة من حكم ملكشاه بعد أن وضعت زوجته المدللة تركان خاتون ابناذكرا ، سمى « محمودا » وحاولت أن يعين وليا للعهد برغم أنه أصغر أبناء ملكشاه الذكور سنا ، فلم يوافق الوزير نظام الملك على هذا الأمر ، حرصا على وحدة السلاجقة ، فلم يتخذ السلطان ملكشاه قرارا فى موضوع ولاية العهد ، وبدأ الانقسام فى الدولة ، وظل الانقسام الى أن قتل الوزير ، وتوفى السلطان فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ، فظهرت مشكلة من يخلف السلطان على عرش السلاجقة فى صورة تهدد السلاجقة بالانقسام والتقاتل ·

وكان التنافس على العرش ينحصر بين بركيارق ومحمود ، أما بركيارق فكان الابن الأكبر لملكشاه من زوجته العربية زبيدة خاتون ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، مؤيدا من أنصار نظام الملك الذى كان قبل مصرعه يرى أن الابن الأكبر ، هو أحق الناس بالعرش بعد أبيه ، كما حدث بعد مصرع ألب أرسلان والد ملكشاه ·

وأما محمود فكان الابن الأصغر لملكشاه من زوجته الأميرة التركية الرائعة الجمال المدللة ذات النفوم تركان خاتون بنت ملك الخانيين · وقد ولد قبل وفاة والده ملكشاه باربع سنوات وبضعة أشهر ، وكانت شقيقته

احدى زوجات الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، وكان مؤيدا من أعداء نظام الملك وفى مقدمتهم تاج الشيرازى الذى عين وزيرا للدولة ، بعد مصرع نظام الملك ·

وهكذا انقسم السلاجقة الى معسكرين متنازعين ، يجاهر كل منهما الآخر بالعداء ، أحدهما يعسكر فى بغداد والآخر يعسكر فى اصفهان ·

وكان كفة معسكر محمود أرجح فى بداية الأمر ، لأن ملكشاه توفى فى بغداد مقر الخليفة العباسى زوج شقيقة محمود ، كما أن الخليفة هو الذى تطلب موافقته على تعيين فرد من أفراد البيت السلجوقى سلطانا على الدولة حتى يصير حكمه شرعيا ، فكان من المنطقى أن تصدر موافقة الخليفة المقتدى بأمر الله على تعيين محمود سلطانا على السلاجقة برغم أنه أصغر أبناء ملكشاه سنا ، فكان تعيينه انتصارا لوالدته تركان خاتون على أعوان نظام الملك ·

وقد استطاعت تركان خاتون بمساعدة الوزير تاج الملك(١) أن تقنع الأمراء وحكام الأطراف بأحقية ابنها بتولى عرش السلطنة بعد أبيه فبايعوه ، ثم اعترف به الخليفة سلطانا ، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، وذلك فى ٢٢ شوال من عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) . ثم أمرت تركان خاتون أنصارها فى اصفهان بايداع بركيارق السجن ، فتم لها ما أرادت ، وخيل اليها أنها أصبحت فى مأمن من كل مناوأة ، وفى منجى من كل عداء(٢) ·

غير أن أتباع نظام الملك فى اصفهان ، ورجال المدرسة النظامية وطلابها فيها ، وكانوا لها بالمرصاد ، فما كادوا يعلمون بما حدث بأمر منها ، حتى أعلنوا الثورة عليها ، وهاجموا سجن اصفهان ، وأطلقوا سراح بركيارق ، وأعلنوه سلطانا على السلاجقة ، وجعلوا اصفهان عاصمة للدولة ، وهكذا وجد سلطانان لدولة السلاجقة فى وقت واحد ، أحدهما

---

(١) اتخذت تركان خاتون تاج الملك الشيرازى وزيرا خاصا لها ، يتولى تدبير أمورها مع كونه وزمرا للدولة ، وروى أنها اتفقت معه على اخفاء نبأ وفاة السلطان حتى تمت البيعة لابنها محمود ·

(٢) ارجع فى تفصيل ما حدث الى ابن الأثير : **الكامل** ، حوادث سنة ٤٨٥هـ ·

محمود أصغر أبناء ملكشاه المقيم فى بغداد والمعترف به من الخليفة العباسى والآخر بركيارق أكبر أبنـاء ملكشاه والمعين من قبـل أنصـار نظام الملك . وانضم مجـد الملك القمى معسكر بركيارق واتخذته أمه زبيدة خاتون وزيرا خاصا لها لتدبير أمورها وأمور ابنها .

ويكفى هـذا لتبين ما أصاب الدولة السلجوقية من تمزق نتيجة لقتـل الوزير نظام الملك وموت السلطان ملكشـاه ، فقد صار قيـام حروب داخلية فيها أمرا متوقعا بين حين وآخر .

وكانت تركان خاتون هى البـادئة بالهجـوم على معسكر بركيارق فى اصفهان فقد أصرت على الخـروج مع الجيش المناصر لهـا ومعها ابنهـا محمود ووزير الـدولة ووزيرها تاج الملك الشيرازى والتوجه الى اصفهان لاحتلالها والقضاء على بركيـارق وأعوانه وتمكنت القـوات المؤيدة لها من احتلال اصفهان(١) ، بينما انسحب بركيارق وأعوانه جهة الجنوب ، واتجهوا الى بروجرد ، فتعقبهم جيش تركان خاتون ، غيـر أن أنصـار نظـام الملك تجمعوا بكثـرة حول بركيـارق ، وتمكنوا من هزيمـة جيش تركان خاتون ، والقبض على الوزير تاج الملك وقتله ، وأسـرعت تركان خاتون بالهرب هى وابنها الى اصفهان ، فتحصنت فيها فى حماية البقية الباقية من قواتها(٢) .

وأخذت كفة بركيارق ترجح كفـة أخيه محمود منـذ ذلك الوقت فبـدأ أعوانه من النظامية(٣) يديرون دفة الأمـور فى الدولة السلجوقية ، وأشار مجد الملك القمى وزير زبيدة خاتون أم السلطان المنتصـر بتولية أحـد أبناء نظـام الملك وزيرا للدولة ، فتم تعيين الحسين بن نظام الملك وزيرا ومنح لقب عز الملك ، ثم تقدم بركيارق أنصـاره نحو اصفهان ، غير أنهم انصـرفوا عن فكرة الاستيلاء عليها ، تاركين هذا الأمر الى وقت آخـر ، بعـد أن تتم لهم السيطرة على أقاليم الدولة الأخـرى ، فيكون الاستيلاء عليها أمرا ميسورا ، لايحتاج الى جهد كبير ، وتوجه بركيارق وأنصاره الى همذان .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .
(٢) المرجع السابق فى حوادث السنة نفسها .
(٣) كان أنصار نظام الملك يذكرون فى كتب التاريخ باسم النظامية .

وفى تلك الأثنــاء ظهر مطالب جديد بعرش السلاجقة هــو تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان عــم بركيارق ومحمود ، وكان تتش حاكمــا على بلاد الشام من قبل أخيه ملكشاه ، وكان مقره دمشق فلما بلغــه نبــأ وفاة أخيه ملكشاه ،ووجد أن أبناء أخيه ، ليسوا فى سن تؤهلهم لتولى عرش السلطنة ، والامساك بزمام الأمور فى الــدولة ، أيقن بأنه أحق بالعرش منهم ، فأعلن نفسه سلطانا وتحرك على رأس جيش كبير نحو حلب ، فبسط سلطانه عليها ، ثم بسط سلطانه على انطاكيــة والرها وحــران والرحبة ونصيبين ثم توجه بعد ذلك صوب الموصل واستولى عليها ، ثم سيطر على ديار بكر وآذربيجان ، فاتسع سلطانه ، وبدأ يفــكر فى التــوجه الى بغــداد ، للاتصال بالخليفــة العباسى ، وطلب الاعتراف به سلطانا على السلاجقة .

وأحس أنصار بركيارق بالخطر الذى يتهــددهم من ناحية عمه تتش ، بعد توالى انتصاراته ، فأشاروا على بركيارق بالتوجه الى آذربيجان لصــد خطر عمــه عن ايران والعراق ، وكان بركيارق حينذاك قــــد استولى على همــذان والرى وســائر المناطق الواقعــة بينهما ، فتــوجه من الرى الى آذربيجان ، فلما اقترب من المنطقــة التى يعسكر فيها جيش عمه تتش ، اتصل بعدد من أمراء الجند فى جيش عمــه ، طلب منهم الانضمام اليــه فوافقوا ، فانضم من جيش تتش الى جيش بركيــارق ففضل تتش الانسحاب والرجوع الى بلاد الشــــام ، وبذلك ازدادت كفــة بركيــارق رجحانا ، وسيطر على آذربيجان فى عام ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) .

غير أنه لم يلبث أن واجه فتنــة أخرى أشعل نيرانهــا خاله اسماعيل ابن ياقوتى ، وكان واليــا على آذربيجان ،وكان لــديه جيش قوى ، فأرادت تركان خاتون المحصــورة فى اصفهــان أن تضمه الى جانبها ، فأرسلت اليه طالبــة الانضمــام الى جانبها ، وممنيــة له بالزواج منهــا(١) ، فأجابهــا اسماعيــل الى ما طلبت ، وسار اليهــا على رأس جيش وأفر العــــدد من التركمان ، ولــكن جيش بركيارق اعترض طريقــه واشتبك معــه فى قتــال عنيف انتهى بهزيمتــه وفراره الى اصفهــــان حيث أحسنت تركان خــاتون استقباله ، وأكرمت وفادته ، وأمرت بذكر اسمه فى الخطبة بعــد اسم ابنها

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

محمود ، وكادت تتزوج به ، لولا أن أمراء الجيش المناصر لها أصابتهم الغيرة منه ، لأن كل أمير منهم كان يطمع فى الزواج بها ، ويرى أنه أحق بالظفر بتركان خاتون من اسماعيل خال بركيارق عدوها اللدود ، فأخذ أمراء جيش تركان خاتون بذلك ، فآثر الهرب خوفا من القتل أو الأسرة ، وترك اصفهان الى الرى حيث لجأ الى أخته زبيدة خاتون بعد أن فقد كل شىء ،ولكن أنصار بركيارق تربصوا به قتلوه ، ووضعوا بذلك نهاية لفتنته(١) ٠

وكان نجم بركيارق يرتفع يوما بعد يوم ، بينما كان موقف تركان خاتون وابنها محمود يزداد ضعفا ،ولذلك توجه بركيارق الى بغداد ومعه وزيره عز الملك الحسين ،وطلب من الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله أن يعترف به سلطانا على السلاجقة فلم يجد الخليفة بدا من الاعتراف ،وأمر بقراءة الخطبة باسمه فى ١٤ من المحرم من عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ومنحه لقب ركن الدين ، وتصادف أن توفى الخليفة فى اليوم التالى للاعتراف ببركيارق ، فتولى الخلافة المستظهر بالله ابن الخليفة الراحل ولم يجد الخليفة الجديد ــ كذلك ــ بدأ من الاعتراف ببركيارق سلطانا ، مما زاده قوة ، وجعله السلطان الشرعى ، وجعل كل من ينازعه عرش السلاجقة ٠ بعد ذلك ــ متمردا ، ينبغى القضاء عليه ٠

وكان عمه تتش ــ حاكم بلاد الشام ــ مازال مصرا على أنه أحق بعرش السلاجقة من ابن أخيه ، فأخذ يجمع الجند ، ويستعد للتحرك من جديد ، لبسط سيطرته على كل ما يستطيع غزوه من أراضى دولة السلاجقة ، ثم يعلن نفسه سلطانا على الدولة ويقضى على بركبارق ومحمود ابنى أخيه ٠

وقد تحرك تتش فور اعتراف الخلافة العباسية ببركيارق سلطانا ووصل الى حلب ، وسيطر عليها وقتل الأمراء الموالين لبركيارق فى هذه المنطقة ، وتمكن فى مدة وجيزة من السيطرة على منطقة حلب وديار بكر وآذربيجان وهمذان(٢) ، ثم لاحظ تتش أن الناس يميلون الى أسرة نظام

---

(١) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٨٦هـ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٧هـ ٠

الملك ، وأن بركيارق ابن أخيه قد رجحت كفتــه بسبب تأييد أســرة نظام الملك له ، واتخاذه عزا الملك أحد أبنــاء نظام الملك وزيرا له ، ففكر تتش فى وسيلة لكسب تأييد النظاميــة له ، فأسند الوزارة الى فخــر الملك أكبر أبنــاء نظام الملك(١) ، وبذلك قوى نفوذ تتش ، وصار أكبر خطر يهدد بركيارق ٠

أما محمود أخو بركيارق الأصغر ، فقــد كان محصــورا فى اصفهان مع أمه تركان خوتان ٠ وكان نجمه آخذا فى الأفول ، وصــار موقفه ضعيفا بعد اعتراف الخلافة العباسية بأخيه بركيارق سلطانا ، وبعــد ازدياد قوة عمه تتش ، ولم يلبث أن مرض بمرض الحصبة فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) وتوفى بنتيجة لهذا المرض ، فاستبد الحزن بأمــه تركان خاتون فمرضت وماتت بعده بقليل ، فانحاز أنصارها الى بركيارق وبايعوه بالسلطنة ، وبسط بركيارق سيطرته على اصفهــان وما جاورها ، مما دعم قوته فى مواجهة عمه تتش ، كما انضم اليه مؤيد الملك أحد أبناء نظــام الملك ، وكان مقيمــا فى اصفهان وكان ــ باجمــاع المؤرخين ــ يسمى نظــام الملك الثــانى ، لكفاءته وذكائه ودهائه ،و كان يرجح سائر اخوته فى الكفــاءة ، والمهارة فى ادارة أمــور الدولة ، مما جعل أنصار بركيارق يشيرون عليــه باسناد الوزارة الى مؤيد الملك ، فأسند اليــه الوزارة فى ذى الحجــة من العــام نفســه(٢) ، فتمكن مؤيد الملك بكفــاءته من اعادة الاستقرار الى المناطق التى كانت تحت سيطرة بركيارق بعد أن كان اضطراب قد أخــذ يدب الى بعض المناطق ، كما استطاع مؤيد أن يسكب ود أمــراء الجيش من العراقيين والخراسانيين ، وأن يجعلهم يعلنون ولاءهم لبركيارق ، والتفــافهم حوله ، فعظم شأنه ، وكثــر جنــده ، وتحرك برفقــة وزيره على رأس جيش كبير لقتــال عمــه تتش ، ودارت بين الطرفين رحى معــركة فاصلة بالقرب من الرى فى صــفر من عــام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) انتهت بهزيمة تتش ومصــرعه(٣) ،وانتصار بركيارق وتخلصه من آخر منافسية على عرش السلاجقــة ، فاستقامت السلطنة له ، كما انتهى

---

(١) كان فخــر الدين يقيم فى همــذان حين استيلاء تتش عليهــا ، فحــال الاستفادة منه ، بضمه الى جانبه ، وتعيينه وزيرا له ٠

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣ ٠

(٣) البنــدارى : مختصــر تواريخ آل سلجــوق ، ص ٨٥ ؛ ابن الأثيــر : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨هـ ٠

بذلك النزاع حول العرش بعد أن ظل على أشدة سنتين وبضعة أشهر ، وكان سببا فى القضاء على وحدة السلاجقة وتماسكهم ، فأصبحوا شيعا وأحزابا ومعسكرات متباينة ، تتصارع فيما بينها ٠

وهكذا ترك السلاجقة التطلع الى العالم الخارجى ، ومحاولة بسط نفوذهم على أقاليم جديدة ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، وأخذوا يتقاتلون من أجل تحقيق مصالحهم الخاصة ، فأصبح الظفر بالعرش هدفا فى ذاته ، تقوم من أجله الحروب ، وقلدهم وزراؤهم وقوادهم ، فتنافسوا وتناحروا من أجل الظفر بالوزارة أو القيادة ، فأخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانهيار منذ ذلك الحين ، وأخذ نجمها يقل تلألؤا وبريقا جيلا بعد جيل حتى أفل فى النهاية ٠

* * *

التنازع على الوزارة :

لم يكد القتال من أجل الظفر بعرش السلاجقة ينتهى بانتصار معسكر بركيارق ، وانفراده بالعرش ، حتى بدأ التنازع على الوزارة بين الطامعين فيها من أبناء نظام الملك وبين مجد الملك القمى الوزير الخاص لزبيدة خاتون أم السلطان فعادت دولة السلاجقة مرة أخرى الى الانقسام ، وكان الانقسام هذه المرة أشد خطورة ، لأنه حدث داخل معسكر بركيارق نفسه ، وقد ظهر التنافس على الوزارة بين ابنين من أبناء نظام الملك هما فخر الملك أكبر أبنائه الذى عينه تتش وزيرا قبل أن يهزم ويقتل ، ومؤيد الملك أكفأ أبناء نظام الملك الذى عينه بركيارق وزيرا للدولة ، فتمكن من ترجيح كفة بركيارق ، وجعله ينفرد بعرش السلاجقة ٠

كما كان مجد الملك يسعى الى الوزارة ، ويجعل الوصول اليها أهم أهدافه التى يحاول بلوغها ، غير أنه كان يعلم علم اليقين أن الناس يحبون أسرة نظام الملك ، ويلتفون حول من تؤيده هذه الأسرة ، فآثر العمل من وراء حجاب ، وعدم الظهور ، حتى لاينكشف أمره فيخسر كل شىء ٠

وقد وجد مجد الملك فى تنافس فجر الملك ومؤيد الملك ابنى نظام الملك على الوزارة فرصة مواتية للتخلص من الاثنين ، وازاحتهما من طريقه ، حتى

يتمكن بعد ذلك من الظفر بالوزارة ، حين تتهيأ الظروف لمثل هذا الأمر ، ولذلك انضم مجد الملك ـ فى الظاهر ـ الى فخر الملك ، لأنه كان يعلم أن أخاه مؤيد الملك أكثر كفاءة منه ، وهو فى الوقت نفسه وزير الدولة المعين من قبل سلطانها الوحيد بركيارق ، فاذا تمكن مجد الملك ـ متسترا وراء فخر الملك ـ من عزل مؤيد الملك من الوزارة ، وتعيين أخيه فخر الملك محله ، فان مجد الملك يكون بذلك قد أزاح أكبر عقبة فى طريق وصوله الى الوزارة ويصير القضاء على فخر الملك أمرا يسيرا بعد القضاء على أخيه مؤيد الملك ٠

وكانت حجة مجد الملك فى تأييد فخر الملك أنه أكبر أبناء نظام الملك سنا ، فهو أحق بالوزارة بعد أبيه ، كما أن بركيارق أحق بالعرش بعد وفاة والده ملكشاه ، وكأن الوزارة مثل العرش قد أصبحت شيئا يورث ، وصارت مقصورة على أبناء نظام الملك ٠

وأخذ مجد الملك يقنع السلطان بذلك المنطق ، وهو أن فخر الملك أحق أبناء نظام الملك بالوزارة لأنه أكبرهم سنا ، كما أخذت زبيدة خاتون أم السلطان تنصح ابنها بعزل مؤيد الملك وتعيين أخيه الاكبر فخر الملك وزيرا للدولة وفاء لنظام الملك الذى قرر مبدأ أحقية أكبر الأبناء فى الحلول محل والده بعد موته ، وكان فخر الملك فى الوقت نفسه ، يحاول التقرب الى السلطان بكل وسيلة ممكنة ويبالغ فى اظهار الولاء له ٠ وفق نصائح مجد الملك حتى وافق ملكشاه فى النهاية على عزل مؤيد الملك وتعيين أخيه فخر الملك وزيرا لدولة السلاجقة ، وكان ذلك فى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)(١) ٠ فبدأت مرحلة جديدة من الانقسام والمنازعات الخطيرة داخل معسكر بركيارق نفسه ، كانت سببا فى تجزؤ دولة السلاجقة ، وسوقها نحو الانهيار ٠

وكانت سلطة فخر الملك ـ وزير دولة السلاجقة ـ اسمية ، بينما كانت السلطة الحقيقية الفعلية فى يد مجد الملك وزير زبيدة خاتون أم السلطان بركيارق ، وقد استطاع مجد الملك أن يبسط نفوذه على كل مرافق الدولة ،

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص١٤٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨هـ ٠

وأن يتصـرف فى جميع الأمور ، وصار فخر الملك دميـة فى يده ، يحركها كما يشاء ، وتعود الناس هـذا الوضع ، حتى انهم كانوا يرجعون الى مجـد الملك فى أمورهم المختلفـة ، فأصبحت الخطـوة التالية اسناد الوزارة الى مجد الملك اسنادا فعليا ، حتى تتفق الصفة الرسمية مع الواقع فعلا ٠

أما مؤيد المؤيد فانه لم يفـكر فى مناوأة أخيـه فخر الملك ، ولم يحاول أن يدبر المؤامرات ضده ، أو يضع العراقيل فى وجهه لأنه أدرك بفطنته حقيقة الأوضاع فى الدولة نتيجـة لضعف بركيارق أمام أمه زبيدة خاتون ووزيرها مجـد الملك ، ففكر فى التآمر ضـد السلطان نفسه ، للقضـاء عليه ، وعلى والدته ووزيرها وكل من حـوله من غير النظاميـة ، وأخـذ يتصـل بأعداء بركيارق ومنافسيه الطامعين فى عرش السلاجقـة حتى استقر به المطاف عند محمد بن ملكشـاه أخى بركيارق ، وكان واليا على اقليم آذربيجـان من قبل أخيه ، فأكرم محمد وفادته ، وعينه وزيرا له ، ليكسب بذلك تأييد النظاميـة له ، فيستطيع بذلك منافسة بركيارق نفسه على عرش السلاجقة ٠

وفى عـام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) توجه بركيارق الى خراسان لقمع فتنـة ظهرت فى هذه المنطقة ، ولـكن الفتنة خمدت قبـل وصوله ، فآثر السلطان مواصلة السير وبرفقته الوزير فخر الملك وأمـه ووزيرها مجـد الملك ، فلما اطمـأن السلطان على استقرار الأوضاع فى خراسان ، واصل السير حتى وصل الى بلخ ، فوجد مجد الملك أن الفرصة مواتية للتخلص من فخر الملك ، وتمكن بمساعدة أم السلطان من اقنـاع بركيارق بعزل فخـر الملك(١) من وزارة الدولة واحلال مجـد الملك محله ، وبذلك حقق مجـد الملك غرضه ، ووصل الى هدفه ، كما انتصرت زبيدة خاتون أم السلطان ، ونجحت فى تعيين وزيرها الخاص ، وزيرا للدولة كما فعلت تركان خاتون من قبل ٠

وأمسك مجـد الملك بزمام الأمور بصورة سافرة بعـد أن كان يعمل من وراء حجاب ، وكان توليه الوزارة يعنى تخلى النظامية عن تأييد بركيارق ،

---

(١) انزوى فخر الملك فى نيسابور بعد عزله من الوزارة ثم قربه سنجر حاكم خراسان ، وعينه وزيرا له ، وظل وزيرا الى أن اغتاله فدائيو الاسماعيلية فى العاشر من المحرم من عام ٥٠٠هـ ٠

وانتقال هذا التأييد الى جانب أخيه محمد(١) والى آذربيجان ، وهكذا حدث انقسام جديد فى صفوف السلاجقة ، مما أدى الى اشتعال نيران الحرب بين بركيارق وأخيه محمد الذى طمع فى العرش بتحريض من وزيره مؤيد الملك ٠

وكان تخلى النظامية عن الوقوف الى جانب بركيارق سببا فى تخلى عدد كبير من أفراد الجيش وحكام الاقاليم وكبار رجال الدولة عن نصرة بركيارق حين اشتبك فى قتال ضد أخيه محمد ٠

وقد أدى تخلى النظامية عن تأييد بركيارق الى اشعال نيران الفتن فى أقاليم مختلفة من دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، مما شجع أعداء السلاجقة فى داخل الدولة وخارجها على المجاهرة بالعداء للظفر بمغانم على حساب السلاجقة ٠

* * *

كثرة الحروب الداخلية :

وقد قضى بركيارق المدة الباقية من حكمه ـ بعد ذلك ـ منشغلا بالحروب الداخلية ، وكثرت هذه الحروب وتعددت ميادينها ، وتمزقت الدولة تبعا لها شر ممزق ٠

وكان مؤيد الملك أكثر المحرضين ضد بركيارق ووزيره مجد الملك ، لأنه لم ينس عزل السلطان له ، وقد استجاب له الأمير « أنر » فى اصفهان ، فأعلن الثورة ضد السلطان ، وأعد جيشا كبيرا ، وتوجه به الى مدينة الرى ، ثم أرسل الى السلطان(٢) يطلب منه تسليم مجد الملك ، غير أن السلطان رفض طلبه ، وسار لقتاله . ولكن « أنر » قتل على أيدى فدائيى الاسماعيلية(٣) قبل أن تقع الحرب بينه وبين السلطان ، فخمدت بذلك فتنته ٠

---

(١) كان محمد وسنجر أخوين شقيقين ، وكانت أمهما أم ولد ، وكان محمد أكبر سنا من سنجر ٠

(٢) كان ذلك فى عام ٤٩٠هـ وكان السلطان حينذاك موجودا فى خراسان ٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ ، وقد زاد نشاط فدائيى الاسماعيلية فى هذا الوقت ٠

ولم يكد السلطان بركيارق ووزيره مجد الملك يستريحان من خطر « أنر » حتى واجها ثورة أخرى فى آذربيجان ، أشعل نيرانها مؤيد الملك المحرك لكل الحركات المعادية للسلطان ووزيره ، فقد أقنع مؤيد الملك محمدا أخا السلطان بأحقيته فى عرش السلاجقة ، وكان محمد حاكما على هذه المنطقة من قبل أخيه ، فتأثر بكلام مؤيد الملك الذى اتخذه وزيرا له ، وشق عصا الطاعة ، وأخذ يستعد لقتال أخيه السلطان ، وقطع الخطبة لأخيه ، وأعلن نفسه سلطانا على دولة السلاجقة ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه ٠

وهكذا اشتعلت نيران الحروب الداخلية من جديد ، فتحرك محمد يصحبه وزيره مؤيد الملك على رأس جيش كبير قوى من آذربيجان متوجها الى همذان ثم الرى لبسط سلطانه فى أقاليم الدولة المختلفة ، وفى الوقت نفسه جمع بركيارق جيشا وفير العدد ، قوى التسليح ، وسار من الرى الى زنجان فى طريقه الى آذربيجان لاخماد الفتنة التى أشعلها أخوه ، وكان ذلك فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) وتقابل الطرفان بالقرب من زنجان ، غير أن جنود بركيارق تمردوا عليه ، لأن أكثرهم كان يميل الى أسرة نظام الملك ، ويكره مجد الملك الذى أبعد بركيارق عن تأييد أفراد هذه الأسرة وأنصارها ، فطالب جنود بركيارق بتسليم مجد الملك لهم ليقتلوه ، فتخمد نيران الفتن والحروب الداخلية ، ولكن بركيارق رفض تسليم الوزير ، فلم يجد الجنود بدا من الهجوم على خيمة مجد الملك ، حيث قتلوه ومزقوه اربا(١) ، فأصيب بركيارق بحالة من الذعر ، وانهزم ، وولى هاربا الى أصفهان ، غير أن الناس سدوا الطريق الى أصفهان فى وجهه ، فتوجه جنوبا الى منطقة الخليج، ليهرب من المناطق التى يزداد فيها نفوذ النظامية ، ويحاول جمع جنود جدد موالين له يثبت بهم عرشه المهتز ٠

أما أخوه محمد فقد واصل التقدم ومعه وزيره مؤيد الملك حتى بلغ مدينة الرى ، فاستولى عليها ، وكانت زبيدة خاتون أم السلطان بركيارق موجودة فيها ، فقبض عليها مؤيد الملك وأمر بقتلها(٢) ، ثم توجه محمد بعد ذلك الى همذان وسيطر عليها ، وأعلن نفسه سلطانا على دولة السلاجقة

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ ٠

كلها ، وطلب من الخليفة العباسى الاعتراف به ، فوافق الخليفة ، لما أحس بقوة محمد ، وغلبة نفوذه ، واعترف به سلطانا على السلاجقة ، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، ومنحه لقب غياث الدنيا والدين ·

وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد فى دولة السلاجقة ، وكان كل منهما معترفا به من قبل الخليفة العباسى ، مما يدل على ضعف الخلافة العباسية من ناحية ، وتمزق دولة السلاجقة من ناحية أخرى ·

ولم يعد عجيبا أن تضعف هذه الدولة ، وتسير بخطى واسعة نحو الانهيار ، لأن أفراد البيت السلجوقى تركوا الأهداف السامية للدولة ، وانشغلوا بقتال بعضهم البعض ، فذهبت ريحهم ، وغربت شمسهم ، بعد أن أصبح الظفر بالعرش أكبر ما يهمهم ·

وتوالت الحروب بين بركيارق وأخيه محمد ، واستمرت خمس سنوات متتالية تبادل فيها النصر والهزيمة ، فلم يستطيع واحد منهما أن ينتصر على الآخر انتصارا حاسما يجعله سيد الموقف ، بل كان كل منهما يجمع الجند بعد كل معركة سواء أكان منتصرا فيها أم مهزوما ، ليستعد للمعركة التالية ، كان بركيارق يسيطر على المناطق الجنوبية من ايران ، بينما كان محمد يسيطر على الأجزاء الشمالية منها ، وكانت الحرب تقع كل عام بين الطرفين منذ عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) الى عام ٤٩٦هـ (١١٠٢م)(١) ·

أما الخليفة العباسى فى بغداد فكان ضعيفا عاجزا عن التدخل لفض النزاع بين الآخوين ، وكان يعلن تأييده لمن يغلب منهما ، ولكل من يدخل بغداد ويسيطر عليها ، ويأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، مما جعله يتناقض فى قراراته وأحكامه ·

وقد أدت هذه الحروب المتكررة الى انتشار الفوضى والاضطراب والفساد فى أنحاء دولة السلاجقة ، فصارت الأموال منهوبة ، والدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة ، والقرى محرقة ، والسلطنة مطموعا فيها ، محكوما عليها بالخسران ، وأصبح السلاطين مقهورين بعد أن كانوا

---

(١) ارجع فى معرفة معلومات مفصلة عن هذه الحروب الى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٤٩٦هـ ·

قاهرين ، وكان الأمراء والأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ، ليدوم تحكمهم ، ونهبهم للأموال ·

وقد قتل فى تلك الحروب المتتالية مؤيد الملك ، كما قتل مجد الملك وزبيدة خاتون ، وهكذا اكتوى الطرفان المتحاربان بنيرانها ، وصا كل منهما يتمنى وضع حد لها ·

وفى عام ٤٩٧هـ (١١٠٣م) أرسل بركيارق الى أخيه محمد يدعوه الى تسوية النزاع بينهما عن طريق الصلح(١) ، فاستجاب محمد لدعوة أخيه ، وتم الاتفاق بين الأخوين على تقسيم أقاليم الدولة بينهما ، فتصير الأقاليم الشمالية خاضعة لحكم السلطان محمد ، بينما الأقاليم الجنوبية تحت حكم السلطان بركيارق ، وأن يحمل كل منهما لقب السلطنة ، وأن تظل منطقة خراسان وما جاورها تحت سيطرة سنجر ·

وقد ظل هذا الاتفاق قائما حتى توفى بركيارق فى الثانى من ربيع الثانى من عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) ، وكان بركيارق قد عين قبل وفاته ابنه ملكشاه وليا لعهده ، وكان طفلا دون الخامسة من عمره ، فعين بركيارق الأمير اياز أتابكا عليه(٢) ·

وهكذا توفى بركيارق وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، بعد اثنتى عشرة سنة وبضعة أشهر من توليه عرش السلاجقة ، وقضى أكثر هذه المدة فى حروب متتالية من أجل الاحتفاظ بعرش السلطنة ، وذاق طعم الانتصار كما تجرع كأس الهزيمة ، وعاش حياة قلقة مضطربة ·

وقد ترك بركيارق دولة السلاجقة مجزأة الى أجزاء كثيرة ، يتبع كل جزء منها حاكما ، يكاد يكون مستقلا بحكم المنطقة التى يسيطر عليها ، فكان الجزء الشرقى من الدولة خاضعا لحكم سنجر ، وكان الجزء الشمالى منها تحت سيطرة السلطان محمد ، كان الجزء الجنوبى من الدولة تحت سيطرة السلطان بركيارق ، بينما كانت منطقة كرمان تحت حكم أبناء قاورد ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧هـ ·
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٨هـ ، والأتابك هو المشرف على التربية وادارة الأمور ·

وكانت بلاد الشام تحت سيطرة أبنــاء تتش ، بينما كانت بلاد الروم (آسيا الصغرى) تحت حــكم ابنــاء سليمان بن قتلمش ، وكان كل حاكم من هؤلاء مستقلا استقلالا تاما فى ادارة المنطقة الخاضعة لنفوذه ٠

وهكذا تجزأت دولة السلاجقة ، بعد أن كانت قوية عظيمة ، فلم تعد لها تلك الصورة الرائعة من الاتحاد والتماسك والقوة والهيبة التى كانت معالمها واضحة طوال مــدة حكم طغرل الأول وألب أرســلان وملكشاه الذين يسمون بحق ـ سلاطين السلاجقة العظام(١) ٠

والحقيقة التى لاجــدال فيهــا أن دولة السلاجقة أخذت فى الانقسام والانهيار بعــد مصرع الوزير نظام الملك وموت السلطان ملكشاه بعد خمسة وثلاثين يوما ، فلم تعد دولة واحدة قوية ، بل صارت دولا مختلفة ، وتحولت من أعظم قوة فى العالم الاسلامى بخاصة ، وفى العالم كله بعامة الى عــدد من الدول المتناحرة التى يطمع فيها جيرانها فى كل من الشرق والغرب ، وظلت كذلك الى أن غربت شمسها ، مما سنبينه فى الفصول التالية :

---

(١) يضم كثير من المؤرخين السلطان سنجر بن ملكشاه الى قائمــة سلاطين السلاجقة العظــام لأنه استطاع أن يعيد التماسك الى أجــزاء الدولة فى جزء كبير من مدة حكمه ٠

الفصل السابع

السلاجقة فى مواجهة خطر الإسماعيلية والصليبيّة

تمهيـــــد :

كانت دولة السلاجقة منذ مقتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل مضطربة الأحوال ، لكثرة الخلافات بين أفراد البيت السلجوقى ، بين كبار رجال الدولة الطامعين فى الوزارة ، مما أشعل نيران الحروب الداخلية ، وجعل الدولة مجزأة ، لا تماسك بين أجزائها ، ولاتكاتف بين حكام أقاليمها المختلفة من أجل حماية الدولة نفسها من شر أعدائها فى الداخل ـ وفى مقدمتهم الاسماعيلية ـ ومن شر أعدائها فى الخارج ، وعلى رأسهم الروم ، مما أدى الى تعرض الدولة لخطر الاسماعيلية ، ثم لخطر الحروب الصليبية ٠ وكان الخطر الأول من داخل الدولة ، أما الخطر الثانى فكان من خارجها ، مما يبين الوضع السيىء الذى أصبحت فيه دولة السلاجقة نتيجة للتنازع على العرش والوزارة ، وكثرة الحروب الداخلية التى أدت الى تفكك الدولة وضعفها ، مما أغرى بها أعداءها فى الداخل والخارج ٠

وقد ظهر النزاع حول العرش بعد وفاة بركيارق بين ابنه الطفل ملكشاه وعم هذا الطفل محمد الذى كان سلطانا على الجزء الشمالى من دولة السلاجقة(١) ، وكان بركيارق قد عين ابنه ملكشاه وليا لعهد ، وعين مشرفا على تربيتههو اياز ، فلم يكد بركيارق يتوفى حتىحمل اياز ملكشاه بن بركيارق الى بغداد ، وحصل من الخليفة العباسى على التفويض له بالسلطنة ، غير أنه لم يحتفظ بالسلطنة طويلا ، لأن عمه السلطان محمدا تحرك بسرعة ، وتوجه الى بغداد ، وضم ابن أخيه الطفل اليه ووافق الخليفة العباسى على أن يكون محمد وحده سلطانا على السلاجقة ، وأن يكون ملكشاه بن بركيارق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨هـ ٠

وليا لعهده ، وبادر اياز باعلان ولائه للسلطان محمد الذى رحب به فى البداية ، ثم لم يلبث أن تخلص منه بالقتل بعد ذلك بقليل ، ووافق سنجر شقيق محمد وحاكم خراسان على كل ما تم ٠

غير أن السلطان محمدا لم يلبث أن واجه خطرا داخليا هو الخطر الاسماعيلى ، وخطرا خارجيا هو الخطر الصليبى ، فلننظر كيف واجه السلاجقة هذين الخطرين ٠

الخطر الاسماعيلى :

كان الاسماعيلية منذ استيلائهم على قلعة الموت فى عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) يزدادون قوة عاما بعد عام مستفيدين مما أصاب دولة السلاجقة من ضعف نتيجة لما يسودها من حروب داخلية وتفكك ، فزاد نشاطهم ، واتسعت منطقة نفوذهم ، وأخذوا ينشرون دعوتهم ، حتى وصلت الى اصفهان احدى عواصم السلاجقة ، كما انتهزوا فرصة انشغال بركيارق ومحمد بالحرب التى اشتعلت بينهما ، فسيطروا على مناطق جديدة ، وبلغت جرأتهم درجة جعلتهم يخطفون الناس بحيل مختلفة ، ويحملونهم الى أماكن غير معروفة حيث يسجنونهم ويعذبونهم ويقتلون بعضهم ٠

وقد تمكن أحمد بن عبد الملك بن عطاش احد قواد الاسماعيلية من الاستيلاء على قلعة « شاهدز »(١) بالقرب من اصفهان فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ، وكانت « شاهدز » احدى القلاع الحصينة التى بناها ملكشاه لحماية اصفهان وما جاورها ، مما جعل سيطرة الاسماعيلية عليها أمرا خطيرا ، يهدد دولة السلاجقة نفسها ٠

وهكذا قوى نفوذ الاسماعيلية داخل الدولة السلجوقية ، وصاروا يشكلون دولة داخل هذه الدولة ، وقد تحصن أحمد بن عبد الملك بن عطاش داخل قلعة « شاهدز » وجمع فيها كثيرا من الغلمان لتدريبهم ، واختزن فيها كثير من الأسلحة والأمتعة ، كما بنى دارا للدعوة بالقرب من القلعة ، ونشط فى دعوة الناس الى اتباع المذهب الاسماعيلى ، فاستجاب لدعوته عدد كبير من الناس ٠

---

(١) « شاهدز » معناها « القلعة الملكية » ٠

كما أمعن الاسماعيلية فى قتل مخالفيهم ، وأسندوا هذا الامر الى رجل منهم ـ اسمه علوى المدنى ـ فكان يشرف على خطف أعداء الاسماعيلية ثم يقوم بمهمة الجلاد ، فيعد لهم فى منزل أعده لهذا الغرض بالقرب من اصفهان(١) ، وظل يبطش بمخالفى الاسماعيلية حتى تنبه الناس الى هذا الخطر ، وأخذوا يتعقبون هذا الجلاد حتى عرفوا المنزل الذى خصصه للبطش بمخالفى الاسماعيلية ، وتمكنوا من القبض على علوى المدني وزوجته واحراقهما ٠

ولما ولى السلطان محمد عرش السلاجقة دون منازع فى عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) كانت قوة الاسماعيلية قد بلغت حدا خطيرا ، فكان عليه أن يواجه هذه القوة ، ويتصدى لها ، ويحاول القضاء عليها ، قبل أن يفكر فى التصدى لأى خطر خارجى(٢) ٠

وقد أمر السلطان محمد بمحاصرة قلعة « شاهدز » فى عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ، كما أمر بقتل وزيره سعد الملك الآبى بعد أن أحس بأنه متواطىء مع الاسماعيلية ، وأنه كان يتصل بهم فى الخفاء ، ويتآمر معهم ضد السلاجقة ٠

وأسند السلطان محمد الوزارة الى ضياء الملك أحمد(٣) أحد أبناء نظام الملك ، وعكف الجيش السلجوقى على حصار القلعة حتى استسلم أحمد بن عبد الملك بن عطاش فى النظام نفسه . فأمر السلطان محمد بقتله وقتل جميع أبنائه ، كما أمر بتخريب القلعة ، ثم أخذ يتعقب الاسماعيلية فى المناطق الأخرى التى انتشر نفوذهم فيها(٤) ٠

وكان حرص السلطان محمد على القضاء على الاسماعيلية من الأعمال

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ٠
(٢) كانت الحروب الصليبية قد بدأت فعلا فى ذلك الوقت ولكن السلطان محمد بدأ بمواجهة الخطر الداخلى قبل التصدى للخطر الخارجى ٠
(٣) كان ضياء الملك يلقب بنظام الملك الثانى كما كان أخوه مؤيد الملك من قبل يلقب بهذا اللقب ٠
(٤) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٥٨ ـ ١٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠هـ ٠

التى جعلته يذكر بالخير فى كتب المؤرخين من أهل السنة فأشادت هذه الكتب بغيرته الدينية وجهاده فى سبيل القضاء على الشيعة الغلاة ، من أجل اعلاء كلمة أهل السنة ، ونشر الأمن والطمأنينة فى ربوع دولة السلاجقة ، بعد أن أشاع الاسماعيلية فيها الفساد والاضطراب ٠

وقد اجتهد السلطان محمد فى الحد من نفوذ الاسماعيلية ثم القضاء عليه قضاء تاما ، بكل وسيلة ممكنة ، ففكر فى الاستيلاء على قلعة ألموت نفسها ، والقضاء على الحسن بن الصباح ، فأرسل جيشا لمحاصرة القلعة فى شهر المحرم من عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) ٠

وقد دافع الاسماعيلية عن القلعة ببسالة ، فلم يستطيع الجيش السلجوقى ـ بقيادة الوزير ضياء الملك أحمد ـ اقتحام القلعة ، فارتد عنها ، بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها ، وكان هذا العجز لطمة شديدة لهيبة السلاجقة ، فنشط الاسماعيلية من جديد فى نشر دعوتهم ، وفى تثبيت أقدامهم فى المناطق التى لهم نفوذ فيها ، كما دبروا مؤامرة لقتل الوزير ضياء الملك ، فضربوه بالسكاكين فى شهر شعبان من العام نفسه ، وهو فى طريقه الى المسجد ، فجرح فى رقبته جرحا بليغا ، وبقى مريضا مدة ثم برأ(١) ٠

وأخذ الاسماعيلية ـ كذلك ـ يغيرون على المناطق المجاورة لقلعة ألموت ، ويكثرون من السلب والنهب والقتل ، ويأسرون الرجال ويسبون النساء ، مما اضطر السلطان محمد الى الاستعداد لقتال الاسماعيلية ـ مرة أخرى ـ فكلف الأمير آنوشتكين شيركير صاحب آبه وساوه وما جاورها بالسير لقتال الاسماعيلية فى عام ٥٠٥هـ (١١١١م) ، فتمكن من الاستيلاء على كثير من قلاع الاسماعيلية فى تلك المنطقة(٢) ، ثم توجه بعد ذلك الى قلعة ألموت وعكف على حصارها ، وكان السلطان محمد يواليه بالمدد من الميرة والذخائر والرجال بين الحين والحين ، مما ساعد على تشديد الحصار على تلك القلعة ، وتضييق الخناق على الاسماعيلية حتى ضاق الأمر بهم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣هـ ٠
(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص١١٧ ٠

وعدمت عندهم الأقوات ، بعد أن استمر الحصار بضع سنوات ، وكاد الجيش السلجوقى يبلغ غايته ، ويصل الى هدفه ، لولا أن بلغه نبأ وفاة السلطان محمد ، فاضطر آنوشتگين الى فك الحصار والانسحاب ، لمراقبة الأحوال فى دولة السلاجقة بعد موت السلطان محمد ، وهكذا نجا الاسماعيلية من الهلاك(١) ، وغنموا كثيرا من المخلفات التى تركها الجيش السلجوقى حين انسحابه ٠

وهكذا توفى السلطان محمد قبل أن يقضى قضاء تاما على الاسماعيلية فبقى خطرهم يهدد دولة السلاجقة فى ايران والعراق بعد عصره ، برغم أنه بذل جهدا كبيرا ، فى الحد من سلطانهم ، وفل شوكتهم وفى القضاء على كثير من قلاعهم الحصينة ٠

الخطر الصليبى :

وقد واجه السلاجقة ـ منذ عصر السلطان بركيارق ـ خطرا آخر غير الخطر الاسماعيلى ، ألا وهو الخطر الصليبى ، وكان خطرا خارجيا جاءهم من الغرب ، ذلك أن الروم أغراهم تمزق السلاجقة وانشغالهم بالحروب الداخلية ، فتحركوا ليأخذوا بالثأر لأنفسهم من هزيمتهم على أيدى السلاجقة فى موقعة ملازكرد فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وتحالفوا مع الدول الأوربية النصرانية ، وصبغوا هجومهم على بلاد المسلمين بصبغة دينية ، فرفعوا الصليب شعارا ، وأعلنوا أن المسلمين يمنعون النصارى من زيارة بيت المقدس ، وأخذوا يرسلون الحملات الحربية لغزو بلاد المسلمين فى آسيا الصغرى وفى بلاد الشام ، وقد كانت الحملة الأولى من هذه الحملات الحربية الصليبية فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ، واستمرت الحروب الصليبية أكثر من قرنين من الزمان ، وكانت لها نتائج خطيرة بالنسبة للعالم الاسلامى فى عصر السلاجقة وفى العصور التالية للعصر السلجوقى ، ومازالت بعض آثارها باقية الى العصر الحاضر ٠

وكان انقسام السلاجقة على أنفسهم ، وتقاتلهم من أجل الظفر بعرش

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث ، سنة ٥١١هـ ٠

السلطنـة ، وانشغالهم بأهوائهم الشخصية عن التنبه لتحرك أعـدائهم فى الداخل والخـارج من العوامل التى مكنت الصليبيين من الانتصـــار على المسلمين فى حملاتهم الحربيـة الأولى على بلاد المسلمين ، حتى استطاعوا الاستيـلاء على بيت المقـــدس فى عــام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، ولـم يستطع السلاجقة فى الشام الوقوف فى وجه الصليبيين ، لأن أفراد البيت السلجوقى فى الشام كانوا لا يقلون انقساما وتنازعا عن غيرهم من السلاجقة فى ايران والعراق ، فقد اشتد النزاع بين رضــوان ودقاق ابنى تتش ، من أجل الظفر بحكم بلاد الشام ، واشتعلت الحروب بينهما منذ عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦)(١) ، وذلك بعـد أن انقسمت بلاد الشام فعلا منـذ عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) فاتخذ رضوان(٢) مدينة حلب عاصمة له ، بينما سيطر أخوه دقائق(٣) على دمشق وما جاورها واتخذها قاعدة لحكمه ، وقد شغل كل منهما بقتال أخيه من أجل تحقيق مآرب الشخصية ، فتمكن الصليبيون من غزو بلاد الشام والوصــول الى بيت المقدس فى فلسطين دون عناء كبير ، مستفيدين من انقسام المسلمين وتنازعهم فيما بينهم ٠

وكانت الحروب الصليبية ــ فى الحقيقة ــ فصــلا من فصــول الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، وهو الصراع الذى بدأ منـذ أقـدم العصور ، ولا يزال مستمرا الى يومنا هذا متخذا أسماء مختلفة ، وأشكالا متنوعة ٠

وقـد احتشد المشتركون فى الحملة الصليبية الأولى فى القسطنطينية بعد أن أرسل قيصر الروم الكسيوس كومنينوس فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) الى البابا أربانوس الثانى يستحثه على دعـوة النصارى الخاضعين لسلطـانه الروحى فى دول أوربا المختلفة الى التطوع لاستخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وكان ذلك بعد أن استولى السلاجقة على جزء كبير من ممتلكات الروم فى آسيا الصغرى، حتى وصلوا الى بحر مرمرة، وهددوا القسطنطينية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٠هـ ٠

(٢) ظل رضوان حاكما على منطقة حلب من عام ٤٨٨هـ الى عام ٥٠٧هـ وشغل بقتال أخيه دقاق عن قتال الصليبيين ٠

(٣) حكم دقاق منطقة دمشق من عام ٤٨٨هـ الى عام ٤٩٨هـ وقضى أكثر مدة حكمه فى قتال أخيه رضوان ٠

نفسها ، بعد أن أسسوا لهم دولة فى تلك المنطقة عرفت باسم « دولة سلاجقة الروم » فأراد قيصر الروم أن يصبغ حربه ضد السلاجقة بصبغة دينية ، كما فعل السلاجقة من قبل ، فاستعدى البابا فى روما ضد المسلمين ، وطلب منه استنفار النصارى الخاضعين لنفوذه الروحى لقتالهم ، برغم أن البابا كان يمثل المذهب الكاثوليكى ، بينما كان الروم يتبعون المذهب الأرثوذكسى ، وقد وجد البابا فى ذلك فرصة لارجاع الروم الى حظيرة كنيسة روما ، فاستجاب لطلب القيصر ، والقى خطبة فى « كليـر مونت »(١) حث فيهـا النصـارى المؤمنين الى التوجه الى بيت المقدس لانتزاعهـا من أيـدى المسلمين ، ومنى المشتركين فى هذا الزحف بالجنة ، فاستجاب له عشرات الآلاف من النصارى من مختلف الدول الأوربية ، وحملوا الصليب شعاراً على صدورهم ،وتوجهوا الى القسطنطينية ، استعداداً لبدء الحملة الصليبية(٢) ، بهدف الوصول الى بيت المقدس ·

وقد سلكت الحملة الصلبية الأولى طريقها عبر أراضى آسيا الصغرى والتى كانت حنذاك خاضعة لحكم قلج آرسـلان سلطـان سـلاجقة الروم ، فتصدى رجاله للزحف الصليبى ، ولـكنهم لم يستطيعوا ايقـافه ، فواصـل الصليبيون تقدمهم حتى بلغوا « نيقية » فحاصروها حتى سقطت فى أيديهـم فى عـام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م)(٣) ثم اشتبك الصليبيون مع المسلمين فى معركة عنيفة فى « اسكى شهر » انتهت بانتصارهم على قوات قلج أرسلان انتصارا تيسرت لهم بعده السيطرة على الجزء الغربى من شبه جزيرة الأناضول ·

واجتاز جيش الصليبيين ــ بعد ذلك ــ جبال طوروس ، واحتل جزء منه مدينة طرسوس ، بينما تابع الجيش سيره جنوبا حتى وصل الى انطاكية ــ عاصمة سوريا الشمالية حينذاك ــ وتمكن من انتزاعها من أيدى السلاجقـة

---

(١) تقع كلير مونت فى الجنوب الشرقى من فرنسا ·

(٢) انضم الى الحملة الصليبية الأولى كثير من الصعاليك على أمل الظفـر بالغنائم التى تفرج كربتهم وتخلصهم من البؤس الذى يشكون منـــه نتيجة لاشتداد الأزمة الاقتصادية فى أوربا حينذاك ·

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٤٩٠هـ ·

فى عام ٤٩١هـ (١٠٩٧م)(١) ، وأسس الصليبيون امارة فى انطاكية(٢) ، ظلت قائمة خمس وسبعين ومائة سنة ، وقد حاول كربوغا أمير الموصل أن ينقـذ المدينة من أيدى الصليبيين ولكنه فشل وخسر عدداً كبيراً من جنده(٣) ٠

وكان جزء من جيش الصليبيين قد اتجه شرقا بعد اجتياز جبال طوروس حتى وصل الى مدينة الرها ـ التى كان سـكانها من الأرمن ـ وتمـكن من الاستيلاء عليها بقيادة بلدوين الذى أسس امارة فيها ، وكان أول أمير لهذه الامارة الصليبية فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، وكانت هذه الامارة أول امارة صليبية لاتينية فى هذه المنطقة(٤) ٠

أما بلاد الشام فكانت قبل وصول الصليبيين الى المنطقة محل نزاع بين أفراد البيت السلجوقى من ناحية ، وبين السلاجقة والفاطميين من ناحية أخرى ، وقد تمكن السلاجقة منذ عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) من الاستيلاء على أجزاء من بلاد الشام ، من انتزاع فلسطين من أيدى الفاطميين ، كما تمـكنوا من السيطرة على دمشق وحلب والرها ، وبلغ نفوذهم الموصل ، غير أن الفاطميين تمكنوا بواسطة اسطولهم القوى ـ حينذاك ـ من السيطرة على جميع المدن الساحلية مثل عسقلان وعكا وصور ، وبلغت سيطرتهم جبيل شمالا ، وكان ذلك فى عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) كما عادوا الى السيطرة على مدينة القدس فى عام ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) فظلت تحت سيطرتهم حتى سقطت فى أيدى الصليبيين فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) أى أن بلاد الشام كانت أحوالها مضطربة حين مجىء الصليبيين اليها ، لكثرة المنازعات بين أفراد البيت السلجوقى ـ كما ذكرنا ـ بين السلاجقة والفاطميين ـ كما بينا ـ وكان السلاجقة على مذهب السنـة بينما كان الفاطميون على مذهب أهل الشيعة ، مما جعل اتحادهم لمواجهة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، أبو الفـدا : تاريخه ، ج٢ ص ٢٢٠ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج٥ ص ٢٠ ٠

(٢) كان بوهمند قائد الجيش الذى استولى على انطاكية ثم صار أميرا على امارتها ٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، أبو الفداء : تاريخه ، ج٢ ، ص ٢٢١ ٠

(٤) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٣ ، ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤ ٠

الخطر الصليبى أمرا متعذرا ، ويسر للصليبيين الانتصار على الطرفين ، وتحقيق هدفهم ببلوغ بيت المقدس والاستيلاء عليه ٠

وهكذا واصل جيش الصليبيين تقدمه وانتصاراته على المسلمين فى بلاد الشام بأجزائها المختلفة الموزعة من السلاجقة والفاطميين ، مستفيدا من اضطراب الأحوال فيها ، فبعد استيلاء الصليبيين على انطاكية ، تقدم جزء من جيشهم جهة الجنوب ، وكان بقيادة ريموند(١) ، واحتل معرة النعمان فى عام ٥٩١هـ (١٠٩٧م) وأخلاها من أهلها بعد أن قتل عددا كبيرا منهم ثم جعلها طعمة للنيران(٢) ٠

وسار ريموند ـ بعد ذلك ـ غربا حتى وصل الى « حصن الاكراد »(٣) ، وهو موقع عسكرى بالغ الأهمية ، لأنه يتحكم فى الممر الواقع بين سهول العاصى والبحر الأبيض المتوسط(٤) ، وقد احتل ريموند ذلك الموقع ، فحقق كسبا حربيا كبيرا ، ثم حاصر « عرقة » ـ على الحافة الغربية من لبنان الشمالى(٥) ـ وتقدم الى « انطرسوس » على الساحل ، واستولى عليها دون مقاومة ، ثم آثر ترك هذه المغانم والانضمام الى الجيش الزاحف الى « بيت المقدس » التى كانت الهدف المقصود ، الذى تحرك الصليبيون من أجل تحقيقه ٠٠

وتحرك جيش الصليبيين جنوبا ، وواصل سيره حتى بلغ « الرملة » وتمكن من الاستيلاء عليها ، فصارت أول منطقة لاتينية فى سورية الجنوبية ـ أى فلسطين(٦) ـ ، وسار الجيش الصليبى ـ بعد ذلك ـ فى طريقه الى « بيت

---

(١) اسمه الكامل ريموند دوتولوز ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، أبو الفداء : تاريخه ، ج٢ ، ص ٢٢١ ٠
(٣) ابن خلدون : ج٥ ، ص ١٨٧ ، وهى قلعة الحصن اليوم ، وسميت حصن الأكراد لأنها فى الأصل قلعة بناها أمير حمص سنة ٤٢٣هـ (١٠٣١م) وجعلها مقرا لحامية كردية ، ارجع الى كتاب حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٣ ، حاشية ص ٧٥٦ ٠
(٤) كان البحر الأبيض المتوسط يسمى حينذاك بحر الروم ٠
(٥) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٣ ، ص ٧٥٦ ٠
(٦) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٦ ٠

المقدس » فبلغها فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، وكانت المدينة حينذاك تحت سيطرة الفاطميين ــ كما ذكرنا ٠

وقد تمكن الجيش الصليبى من فتح المدينة(١) ، كما تمكن من احراز نصر آخر على جيش الفاطميين عند عسقلان(٢) ، مما ساعد على تثبيت أقدام الصليبيين فى القدس ، ولو أن عسقلان بقيت مقرا للاسطول المصرى ، ومركز حامية مصرية ، كان الوزير المصرى الملك الأفضل يستفيد من وجودهـا فى الوقعية بالعدو الصليبى(٣) ٠

وهكذا أقام الصليبيون ولاية لاتينية ثالثة فى القـــدس ، لم تلبث أن أصبحت أعظم الولايات مرتبة ، وعهد بالأمر فيها الى جودفرى شقيق بلدوين وحقق الصليبيون هدفهم بالاستيـلاء على بيت المقـدس ، فرجـع كثير من المتطوعين بعد ذلك الى بلادهم(٤) ٠

وكان أول عمل قام به جودفرى بعد السيطرة على بيت المقدس هـــو اخضاع مدن الساحل حتى يستطيع الاتصال بأوربا ، فاستعـــان بالسفن الايطالية التى تنقل الحجاج الصليبيين فى السيطرة على المدن الساحلية ، بعد أن أقنع أصحاب السفن أن السيطرة على هذه المدن يفتح أسواقا جديدة لبضائعهم ؛ وقد تمكنت السفن الايطالية من بسط نفوذ الصليبيين على يافا وأرسوف وقيسارية وعكا وحيفا(٥) فى عام ٤٩٤هـ (١١٠٠م) ، ولم يستطع الأسطول المصرى الفاطمى منع الصليبيين من السيطرة على أكثر المدن الساحلية برغم أنه كان الأسطول القوى الوحيد فى المنطقة حينذاك ٠

كما توغل الصليبيون حتى وصلوا الى بيسان وسيطروا عليها ، ثم استولوا على نابلس(٦) ، وبذلك أصبح الصليبيون خطـرا عظيمـا يهـدد العالم الاسلامى بعامة ، ودولة السلاجقة بخاصة ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ ٠
(٢) المرجع السابق فى حوادث السنة المذكورة ٠
(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ما بعدها ٠
(٤) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٣ ، ص ٧٥٧ ٠
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤هـ ٠
(٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ ٠

غير أن السلاجقة انشغلوا بالحروب الداخليــة فيما بينهم ، من أجــل الظفر بالعرش ، فلم ينتبهوا الى ذلك الخطر الصليبى العظيم ، ولم يقدروا خطورته تقــديرا صحيحا ، كما أن الخــلافة العباسية ، فى بغداد كانت فى حالة من الضعف لاتمكنها من التصدى للخطر الصليبى أو المساهمة فى صده وابعاده عن العالم الاســلامى ، فلم يحــاول السلطان بركيــارق التصــدى للصليبيين وهم يوجهون حملتهم الأولى الى بيت المقدس ، ولم يتحرك الخليفة العباسى لبيان خطورة هــذه الحملة على بلاد المسلمين ، ودعوتهم للجهــاد من أجل انقاذ الاسلام من الخطر الصليبى ، مما أدى الى تفاقم هذا الخطر بمرور الأيام ، وتوالت الحملات الصليبية فزاد خطرها على بلاد المسلمين ٠

وحين استولى الصليبيون على بيت المقدس فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، وسفكوا دمــاء الألوف من المسلمين أقبــل وفدمن بلاد الشــام الى بغــداد مستغيثا بأولى الأمر فيها ، وشرحوا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف ، وبكوا وأبكوا ولكنهم عادوا من غير قضاء حاجة(١) ، وأحال الخليفة المستظهر بالله رجــال الوفد الى السلطان بركيارق ،الذى بدأت سلطنة السلاجقة تنحل به ، وانتهى الأمر عنــد هــذا الحــد ، لأن بركيارق كان مشغولا بالنزاع مع أخيه محمد ، لم يحرك ساكنا ، وعاد الوفد دون أن يتحرك أحد لصد الخطر الصليبى ٠

وفى عام ٥٠١هـ (١١٠٧م) أحدق الصليبيون بمدينة طرابلس ، فتحرك وفد من أهلها الى بغداد مستنجدا بالخليفة غير أن استغاثة أهــل طرابلس لم تجد من يستجيب لها ، فعاد أفراد الوفد ، دون أن يظفروا بطائل(٢) ٠

وبعد ثلاث سنوات من هــــذا الحادث أقلعت من مصــر مراكب تحمل أمتعة كثيرة لتجار من حلب ، فوقع عليها الفرنج وأخذوها بما فيها ، فسار جماعة من حلب الى بغداد مستنفرين على الفرنج ، واجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، ودخلوا جامع السلطان وهو حاضر ، وكسروا المنبر ، وكسروا شباك المقصورة ، وبطلت الصلاة ، فأرسل الخليفة المستظهر حينئذ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ ٠
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠١هـ ٠

الى السلطان محمد السلجوقى يكل اليـه الاهتمام بهـذا الفتق ، فتقدم الى من معه من الأمراء بالتجهز للجهـاد ، والسير الى قتـال الفرنج ، فساروا وهم عدد قليل فلم يصنعوا شيئا(١) ٠

وهكذا وقف سلطان السلاجقة كما وقف خليفة المسلمين فى بغداد فى حالة عجز تام عن مواجهـة الخطر الصليبى ، كما عجز الحـكام السلاجقة فى بلاد الروم والشـام عن صـد هـــذا الخطر ، والحيلولة دون وصـول الصليبين الى بيت المقـدس ، وانشـاء امارات صليبيـة فى بلاد المسلمين ظلت تهدد الاسـلام والمسلمين قرنين من الزمان ، قبـل أن يتمكن المسلمون من طرد الصليبيين من بلادهم ، والقضاء على خطرهم ٠

وقد حاول السلطان محمـد ـ مرة ـ أن يفل شوكة الصليبين بعد أن تفاقم خطرهم ، فأرسل فى عـام ٥٠٨هـ (١١١٤م) ، جيشـا لقتالهم ، غير أن هذا الجيش لم يوفق فى أداء المهمـة التى كلف بها ، لأن خلافا حدث بين أمرائه ، مما أدى الى تمزيق صفوف جنـــد المسلمين ، وهزيمتهم فى عـام ٥٠٩هـ (١٠١٥م)(٢) فازداد الصليبيون قوة وخطرا ٠

وقـد أدى ظهور الخطر الصليبى من خارج حـدود دولة السلاجقة الى جانب ظهور الخطر الاسماعيلى من داخلها الى اضعاف السلاجقة سواء فى ايران والعراق أو فى الشام وبلاد الروم ٠

وكان أفراد البيت السلجوقى أنفسهم لا يكفون عن التنازع فيمـا بينهم من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية ، فاضطربت أحوال السلاجقة فى جميع أنحاء دولتهم بعامة ، وفى ايران والعراق بخاصة ، مما سنتبينه فى الفصول التاليـة ٠

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنتى ٥٠٤هـ و ٥٠٥هـ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٥٠٨هـ و ٥٠٩هـ ٠

الفصل الثامن

انقسام دولة السلاجقة

بدأت الدولة السلجوقية تتفكك وتنقسم الى عدد من الأجزاء منذ وفاة السلطان ملكشاه فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ، فقد أصبحت الدولة فى عصر ابنه بركيارق مسرحا للفتن والحروب الداخلية طمعا فى العرش من جانب أفراد البيت السلجوقى ، أو فى الوزارة من جانب كبار رجال الدولة ، وكانت النتيجة انتقال الدولة السلجوقية من حالة التماسك والقوة ورفعة الشأن والهيبة من الأعداد والأصدقاء ، الى حالة التفكك والانقسام والضعف، مما أغرى بها أعداءها فى الداخل والخارج ٠

وكان الاسماعيلية والصليبيون ألد أعداء السلاجقة فى وقت ضعفها وتفككها وانقسامها ٠أما الاسماعيلية فكانوا يكمنون داخل الدولة ـ كما بينا ـ ويسيطرون على كثير من القلاع الحصينة ، وكان زعيمهم الحسن بن الصباح لايزال يحتفظ بشىء من القوة ، ويزاول نشاطه ٠

وأما الصليبيون ، فكانوا يهددون الدولة من جهة الغرب ، ويبسطون سيطرتهم على أجزاء مهمة من بلاد الشام ، وبخاصة المدن الساحلية ، ويسيطرون على بيت المقدس ، مما يشكل خطورة كبيرة على دولة السلاجقة بخاصة ، وعلى العالم الاسلامى بعامة ٠

وقد حاول السلطان محمد ـ كما ذكرنا ـ أن يقضى على الخطر الاسماعيلى ٠ فوفق الى حد كبير فى الحد من نفوذ الاسماعيلية فى ايران ، غير أنه فشل تماما فى صد الخطر الصليبى ، وهكذا أصبحت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان محمد فى عام ٥١١هـ (١١١٧م) تواجه الخطرين الاسماعيلى والصليبى ، وتعانى من التنازع والانقسام بين أفراد البيت

السلجوقى من أجــل الظفر بالعرش ، فكان منطقيا أن تنقسم فعلا الى عــدد من الأجزاء ٠

تجدد النزاع حول العرش :

وقد تجدد النزاع حول العرش بعد وفاة السلطان محمد فى عام ٥١١هـ (١١١٧م) ، وبدأ شبح الحروب الداخلية بين أفراد البيت السلجوقى يطل برأسه من جديد ، فى وقت كان أعداء السلاجقة يتربصون بهم الدوائر ، فقد تنازع محمــود بن السلطان محمد وعمــه سنجر حاكم خراسان وما وراء النهر على عرش السلاجقة ، لأن السلطان محمدا أوصى قبيل وفاته باسناد السلطنة الى ابنه محمــود ــ وكان حينذاك فى الرابعة عشــرة من عمره ــ ووافق الخليفة العباسى المستظهر بالله على ذلك ، فذكر اسم السلطان محمود فى الخطبة فى بغداد(١) ، ولكن عمه سنجر أستنكف أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، وأخذ كل منهما يستعد لقتال الآخر ٠

وفى عام ٥١٣هـ (١١١٩م) تحرك سنجر من خراسان نحــو الغرب لقتال ابن أخيه ، كما تحرك محمود من أصفهان جهــة الشرق لقتال عمه ، والتقى الطرفان عند « سبزوار » فدارت بينهما معركة فاصلة انتهت بانتصار سنجر وفرار محمــود ، فاعترف الخليفـــة العبــاسى بسنجر سلطانا على السلاجقة ٠

ولم يلبث سنجر أن عطف على ابن أخيــه محمــود ، فصالحه وزوجه ابنته ، وعينــه وليــا لعهــده ، وكتب بذلك الى سائر الولايات التى تخضع لحكمــه ــ مثــل خراســان وغزنه وما وراء النهر ــ كما كتب الى الخليفــة العباسى بهذا التعيين ، ليــكون على عــلم بالأمر ، ورد الى محمــود جميع ما أخذه منه من البلاد ما عدا مدينــة الرى التى اتخذها قاعدة له ، لمراقبــة محمــود خشية أن تحــدثه نفســه بالخروج عليه مرة أخرى(٢) ، كما أمر سنجر بأن يلقب محمــود بلقب السلطان ، وأن يكون لقبــه هــو السلطان الأعظم ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١هـ ٠
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٣هـ ٠

وهكذا بـدا واضحا أن دولة السلاجقة الأصليـة فى ايران والعراق ، قد صارت قسمين متميزين قسم فى الشـرق على رأسـه السلطان الأعظم سنجر ،وقسم فى الغرب على رأسه السلطان محمـود ، وأخذت كتب التاريخ منذ ذلك الوقت تذكر أخبار كل قسم على حدة ، وتذكر السلاجقة فى الشرق باسم سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ، بينما تذكر السلاجقة فى الغرب باسم سلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق ٠

وانتهى التنـازع على عرش السلاجقـة بأن صـارت دولتهم ممزقة الأوصال ، فلم تعد أجـزاء الدولة تخضع جميعها لحكم سلطان واحـد ـ كما كانت الحـال فى عصور حكم طغرل الأول وألب أرسـلان وملكشاه ـ بل أصبح كل جزء من أجزاء دولتهم فى ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام يكاد يكون مستقلا عن غيره من الأجـزاء ، يصـرف أموره حـكامه ، دون اتصال أو تعاون بين هؤلاء الحـكام ، وصارت المنازعات الداخليـة تشغل هؤلاء الحكام عن أى هدف آخر ٠

وظلت دولة السلاجقـة بهـذه الصـورة الى أن سقطت أجـزاء الدولة الواحد منها فى اثر الآخر ، ودالت هذه الدولة بعد أن احتلت مكانا مرموقا فى التاريخ حين كانت قوية متماسكة ٠

ولا يجد الدارس لدولة السلاجقة فى ايران والعراق بدا من أن يدرس ابتداء من عام ٥١٣هـ (١١١٩م) كلا من سلاجقة خراسان وسلاجقة العراق على حدة ، لأن كل جزء من أجزاء دولة السلاجقة ، أصبحت أحداثه خاصة به ، غير مرتبطة بما يجرى من أحداث فى الجزء الآخر ٠

* * *

سلاجقـة خراسان

كان سنجر يمثل سلاجقة خراسان أو سلاجقة الشرق(١) ، وكان واليا على خراسان وما وراء النهر منـذ عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) قبـل أن يصير سلطانا على السلاجقـة ،ويتخذ لقب السلطان الأعظم تمييزا له عن سلاجقة العراق الذى كان الواحـــد منهم يلقب بالسلطان ويعترف بسنجر بالزعامة على السلاجقة ، كما يعترف الخليفة العباسى له كذلك بهذه الزعامة ٠

وقـد استطاع سنجر ـ قبـل توليه زعامة السلاجقة ـ أن يبسط نفوذه على بلاد أخرى ، وأن يضمها الى ممتلكاته ، فتمكن من فتح ترمذ وطخارستان فى عـام ٤٩١هـ (١١٩٧م)(١) كما بسـط سيطرته على جميع أجزاء اقليم ما وراء النهر فى عـــام ٤٩٥هـ (١١٠١م)(٢) ، وتمكن فى عـــام ٥١١هـ (١١١٧م) من الانتصار على أرسلان شاه الغزنوى ، وفتح غزنه ٠

وقد ازدادت قوته بعد توليه عرش السلطنة وزعامة السلاجقة بعـد أن هزم ابن أخيه ، فتمكن من بسط نفوذه على أكثر أجزاء ايران والعراق ، وصار اسمه يذكر فى الخطبة على منابر مأ وراء النهر وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان واصفهان ، وهمذان والرى وآذربيجان وأرمينية وأرانية والعراقين والموصل وديار بكر وديار ربيعـة والشـام والحرمين ، كما أصبح اسـمه ينقش على السكة فى هذه الأقاليم جميعها بوصفه زعيما للسلاجقة ٠

غير أن دولة السلاجقـة كانت ممزقة برغم اعتـراف أجزائها المختلفة بزعامة سنجر ، فكان كل جزء من أجزائهـا يغلى بالأحـداث ، وتتفجر فيـه الحروب ، وكان من أبرز الأحداث التى وقعت فى المنطقة الشرقيـة من ايران

---

(١) أجمعت كتب التاريخ على هـــذه التسمية وعلى تقسيم دولة السلاجقـة بهذه الصورة ٠

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ ٠

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٥هـ ٠

ـ حيث يوجد زعيم السلاجقة ـ ظهور دولتين فتيتين جديدتين هما : الدولة القره خطائية ، والدولة الخوارزمية ، لأن كل دولة منهما أثرت فى سير الأحداث فى دولة سلاجقة خراسان بخاصة وفى جميع أجزاء الدولة السلجوقية بعامة فى أثناء القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) مما يجعل من الضرورى التعريف بهاتين الدولتين ، حتى تفهم الأحداث فهما صحيحا ٠

* * *

الدولة القره خطائية

كانت القبائل القره خطائية مجموعة من القبائل التركية التى سكنت شمالى شرقى ايران فى العصر السلجوقى ، واستطاعت تثبيت أقدامها فى هذه المنطقة ، وازدادت قوتها حتى تمكنت من تأسيس دولة تحمل اسمها فى عام ٥١٨هـ (١١٢٤م) ، واتخذت مدينة « بلاساغون » عاصمة لها ، وكان كل ملك من ملوكها يطلق عليه لقب « گورخان »(١) ٠

وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فى المناطق المجاورة لها ، وخضعت لنفوذها قبائل « القيرقيز » أقوى القبائل المقيمة فى تلك المنطقة ، وظل نفوذها فى اتساع حتى بلغ « كاشغر » و « ختن » ثم استطاع والى « كاشغر » أن يوقف تقدمهم٠

غير أن القبائل القره خطائية كانت لا تكف عن الاغارة على البلاد الاسلامية القريبة من مساكنها ، وقد كثرت غاراتها فى عام ٥٣١هـ (١١٣٦م)، وأمعنت فى السلب والنهب والتدمير والقتل ، حتى أصيب الناس بذعر شديد ، فاستنجدوا بالسلطان سنجر ، لوضع حد لطغيانها ، والقضاء على الدولة التى اسستها ٠

ولم يجد سنجر بدا من التحرك لقتال القره خطائية ، فأعد جيشا كبير العدد وافر العدة ، حتى يتمكن من القضاء على جميع القبائل التركية المتمردة المقيمة فى بلاد ما وراء النهر ، ووضع حد لاعتداءاتها المتكررة

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، حواشى ص ١٧٢ ؛ اقبال : تاريخ ايران ، ص١٧٦ ٠

التى شكا منها عمـاله فى تلك النواحى ، وسـار على رأس ذلك الجيش الى اقليم ما وراء النهر فى ٥٢٥هـ (١١٤٠م)(١) ، فخافت القبـائل التركيـة المختلفـة الساكنة فى أنحـاء هـذا الاقليم ، وبادر كثير منها باظهار الولاء للسلطان ، وكان فى مقـدمة هـذه القبائل « القيرلق » و « القره خطائية » ، فقـد اعتذرت عن اعتداءاتهـا السابقـة ، وتعهدت بالتزام الطـاعة والولاء للسلطان ، غير أنه رفض تعهـدها بتحريض من عماله ، وصمم على قتالهـا والقضاء عليها ، واشتبك معها فى معركة عنيفة عنـد « قطوان » ـ بالقرب من سمرقند ـ فى عام ٥٣٦هـ (١١٤١م) ٠

وقـد استمات القيرلق والقره خطائيـة فى القتال حتى تمكنت هـذه القبائل من هزيمة سنجر هزيمة نكراء ، ووقعت زوجته أسيرة ، بينما لاذ هو بالفـرار(٢) ٠

وكانت هزيمة سنجر فى موقعـة « قطوان » أول هزيمة يصاب بها منذ امساكه بزمام الأمـور فى خراسان وما وراء النهر ، فكانت حدا فاصلا بين مرحلتين من حكمه ؛ مرحلة القـوة والظفر وغلبـة النفوذ ، ومرحلة الضعف والهزيمـة والانهيـار ، كما كانت ذات نتائج وآثار خطيرة بالنسبة لتـاريخ السلاجقة فى خراسان بخاصة ، وفى ايران والعراق بعامة ٠

وقد قوى أمر القرة خطائية ـ بعـد انتصارهم على سنجر ، فأخـذوا يبسطون نفـوذهم ويثبتونه فى اقليم ما وراء النهر ، ووصـل نفـوذهم الى كاشغر ، كما سيطروا على سمرقند وبخـارى ، وتعهـد الخانيون(٣) بدفع الخراج لهم ، فصـاروا بذلك خطرا عظيما يهـدد سنجر وسلاجقـة خراسان تهديدا مباشرا(٤) ٠

كما جرأت هزيمة سنجر على أيدى القره خطائية حكام الدولة الخوارزمية المجـاورة لسلاجقـة خراسان ، فطمعوا فى جزء من ممتلكات السلاجقة فى

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦هـ ٠
(٣) المقصود بالخانيين هنا الخانيون من آل آفراسياب ٠
(٤) ظلت الدولة القـره خطائية قائمة الى عـام ٦٠٩هـ (١٢٠٢م) الى أن تمكن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمى من القضاء عليها ٠

المنطقــة ، وأظهروا التمرد والمخالفــة لسنجر ، فقامت بين الطرفين حروب ، كان لها أثرها فى زلزلة أركان دولة سلاجقة خراسان ، كما سيأتى ٠

* * *

الدولة الخوارزمية

قامت الدولة الخوارزميــة فى عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) ، وقــد أسسها قطب الدين محمد فى هــذا العام حين أطلق على نفسـه لقب خوارزم شاه ـ أى ملك خوارزم ـ وأعلن قيامها ، وأصبحت تذكر منــذ ذلك الوقت باسم الدولة الخوارزمية ، ولو أن ملوكهـا تظاهروا فى البـداية بالطاعة والولاء للسلاجقة وعدوا أنفسهم معينين من قبلهم(١) ٠

وقــد أسند السلطان سنجر ولاية خــوارزم الى « علاء الدين آتسز » بعد وفاة أبيــه قطب الدين محمد ، فظـل « آتسز » على وفاق مع سنجر فلم يفكر فى التمرد أو الخــروج عليه ، فاطمأن سنجر اليه ، حتى انه اصطحبه معه فى حملته ضد بهرامشاه الغزنوى فى عام ٥٢٩هـ (١١٣٤م)(٢) ٠

غير أن آتسز اغتر بقوته واستقرار نفوذه ، فحاول الاستقلال بدولتــه فى خوارزم ، والابتعــاد عن كل مظاهر التبعية للدولة السلجوقية فلم يكـد يرجــع من غزنة ، حتى ثار على السلطان سنجر فى عــام ٥٣٠هـ (١١٣٥م) وأخذ يهاجم الهضاب الواقعة فى أســفل نهر جيحــون ، فتمكن من انتزاع هذه المنطقة من قبضــة السلاجقة ، وضمها الى منطقة نفوذه ، وهكــذا بدأ نزاع جديد بين السلاجقة والخوارزميين ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠هـ ٠
وقد كان قطب الدين محمد ابنا لعبد تركى اسمه « آنوشتگين » كان أحــد أمراء السلاجقة فى غرجستان قــد اشتراه ضمن جماعة من المماليك وقد أظهر « آنوشتگين » من الكفاءة واللياقة ، ما فتح أمامه باب الترقى فى عهد السلطان ملكشاه ، فعينه واليا على خوارزم فظل يتمتع بهذا المنصب حتى توفى فى عام ٤٩٠هـ فخلفه ابنــه قطب الدين محمد فاتخــذ لقب ملك خوارزم ، وأعلن قيام الدولة الخوارزمية مع التظاهر بالطاعة والولاء للسلاجقة فى بداية الأمر ٠

(٢) المرجع السابق ، فى حوادث سنة ٥٢٩هـ ٠

ولم يجد سنجر بدا من السير لقتال آتسز وتأديبه والزامه الطاعة والولاء له ، فسار على رأس جيش كبير من بلخ الى خوارزم فى شهر المحرم من عام ٥٣٣هـ (١١٣٨م) وتقدم آتسز للقائه ، فتقابل الطرفان بالقرب من « هزاراسب » ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتصر فيها السلطان سنجر انتصارا باهرا ، بينما ولى آتسز الأدبار يجرجر أذيال الهزيمة النكراء التى منى بها ، ووقع ابنه أسيرا فى يد سنجر ، وأسند سنجر ولاية خوارزم الى ابن أخيه هو ــ غياث الدين سليمان بن محمد السلجوقى(١) غير أن آتسز تمكن من العودة الى خوارزم ، واستطاع التغلب على سليمان السلجوقى ،وطرده من خوارزم ، واستعاد حكمه وسيطرته على المنطقة ، ولكنه خشى ــ فى الوقت نفسه ــ أن يتدرك السلطان سنجر لقتاله من جديد فحاول استرضاءه بالحسنى ، فأرسل اليه فى شهر ذى الحجة من عام ٥٣٥هـ (١١٤٠م) يعلن ولاءه له ، ويتعهد باطاعة أمره ، وعدم الخروج عليه مرة أخرى ، وخدع سنجر بما أبداه « آتسز » فعفا عنه ، وسمح له بالاستمرار فى حكم خوارزم تحت رعاية السلاجقة ولو أن آتسز صار فى الحقيقة حاكما لاسلطان لأحد عليه ، وأصبح مستقلا استقلالا تاما على السلاجقة ٠

ثم شجعت الهزيمة التى منى بها سنجر فى قطوان فى عام ٥٣٦هـ (١١٤١م) آتسز على معاودته التمرد والعصيان ، ومحاولة الاستفادة من ضعف سنجر فأخذ يغير على المناطق الشرقية ــ الواقعة بين كاشغر وبخارى ــ وتمكن من انتزاعهما من يد سنجر ، فتجددت بذلك الحروب بين الطرفين ، وأمر آتسز بحذف اسم السلطان سنجر من الخطبة ، وبأن تقرأ الخطبة باسمه هو ، وأرسل جيشا الى منطقة بيهق ، فانتشر هذا الجيش باقليم خراسان ينهب ويرتكب أعمالا شنيعة ، واستطاع آتسز الاستيلاء على بيهق وعلى مدن كثيرة من خراسان(٢) ٠

ولم يجد السلطان سنجر بدا من الاستعداد لقتال آتسز مرة أخرى ، فأعد جيشا كبيرا ، وسار على رأسه فى عام ٥٣٨هـ (١١٤٣م)(٣) مصمما

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢هـ ٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦هـ ؛ الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٧٤ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٨٠ ٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٨هـ ٠

على غزو خوارزم والقضاء على آتسز الذى تحصن فى هذه المدينة ، فحاصر سنجر خوارزم حصارا شديدا ، وضيق الخناق على آتسز ، غير أنه اعتذر للسلطان(١) . وأبدى ندمه على العصيان » وتعهد بالتزام الولاء والطاعة التامة للسلطان ، والتمس العفو منه ، فقبل سنجر عذره وعهده ، وفك الحصار عن المدينة ، وعاد بجيشه الى مرو ، وهكذا نجا آتسز من الهلاك ، ونجت الدولة الخوارزمية من السقوط والفناء .

والعجيب أن آتسز لم يكف عن التمرد والثورة على سنجر بعد ذلك ، والعجيب كذلك أن سنجر كان يحارب آتسز كلما ظهر منه تمرد ، وكانت كفته راجحة غالبا ، ولكنه كان برغم تفوقه على آتسز يخدع فى كل مرة بما يظهره آتسز من الندم ، وبما يتظاهر به من حب السلطان ، والميل الى طاعته ، فكان يعفو عنه دائما ، ويقبل اعتذاره ويقره على حكم خوارزم ، حتى اشتهر آتسز بذكائه ودهائه ، وعرف سنجر بسذاجة ، وقصر نظره ، فتكررت أخطاؤه ، وكانت سببا فى القضاء عليه وعلى دولته فى النهاية .

وكانت الحرب الأخيرة بين سنجر وآتسز فى عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م)(٢) ، واستقر بعدها حكم آتسز وخلفائه على خوارزم ، كما رسخت قواعد الدولة الخوارزمية وأخذت تزداد قوة بمرور الأعوام ، وتساهم فى توجيه سير الأحداث فى ايران والعراق ، بينما أخذت دولة سلاجقة خراسان تسير بخطى واسعة نحو الانهيار والزوال ، وتبعتها دولة سلاجقة العراق ، فسقطت كذلك قبل نهاية القرن السادس الهجرى ، وواجه العالم الاسلامى بعدها غارات المغول على بلاد المسلمين ، وهى الغارات التى كان من آثارها اسقاط الخلافة العباسية السنية كما سيأتى .

سلاجقة العراق

كانت الأحوال فى أجزاء الدولة السلجوقية المختلفة مضطربة غير مستقرة ، فكثرت المنازعات والحروب فى دولة سلاجقة العراق ، وانتشرت الفتن حتى كان السلطان سنجر يضطر أحيانا الى التدخل لقمع الفتن ، واقرار الأوضاع ، برغم انشغاله بقتال القره خطائية الخوارزميين .

---

(١) كان آتسز موصوفا بالدهاء بينما كان سنجر معروفا بالسذاجة وسرعة التصديق والتأثر .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

وكان كل فرد من أفراد البيت السلجوقى يعد نفسه مستقلا فى الجزء الذى يخضع لنفوذه ، ويحاول توسيع منطقة هذا النفوذ ما استطاع الى ذلك سبيلا ، مما أدى الى كثرة المنازعات ، ونشوب الحروب ، وتعدد ميادينها ٠

وكان السلطان محمود سلطانا على دولة سلاجقة العراق التى يخضع لنفوذها الجزء الغربى من ايران والعراق ، بعد أن سمح السلطان سنجر لابن أخيه محمود ـ بعد انتصاره عليه ـ بأن يظل حاكما على هذا الجزء من دولة السلاجقة ، وأن يحتفظ بلقب السلطان ـ كما ذكرنا ـ غير أنه لم يسلم من منافسة اخوته له على عرش سلاجقة العراق ، ففى عام ٥١٤هـ (١١٢٠م)(١) ثار عليه أخوه مسعود حاكم الموصل وآذربيجان ووقعت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بانهزام مسعود وأعوانه ، واضطراب الحالة فى آذربيجان وما جاورها ٠

وأدى اضطراب الحالة فى هذه المنطقة الى تمرد حكام جورجيا ، الذين كانوا من النصارى ، فأخذوا يغيرون على بلاد المسلمين منذ عام ٥١٣هـ (١١١٩م) ، حين كان السلطان محمود مشغولا بقتال عمه سنجر ، ولم يستطيع طغرل أخو محمود أن يقف فى وجههم ، فأمعنوا فى بلاد المسلمين نهبا وتخريبا وقتلا ، وتقدموا حتى بلغوا مدينة تفليس فحاصروها حصارا شديدا ، حتى اضطرت الى التسليم فى عام ٥١٤هـ (١١٢٠م) بعد بضعة شهور من حصارها ٠

وزادت الحرب بين محمود وأخيه مسعود الوضع فى تلك المنطقة اضطرابا ، وكان السلطان محمود يقيم فى همذان ، بعد انتصاره على أخيه ، فشكا سكان آذربيجان اليه من كثرة غارات حكام جورجيا عليهم ، وطلبوا منه أن يحميهم من هذه الغارات ، فأعد جيشا كبيرا ، وقاده الى آذربيجان فى عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) ، فلما وصل الى تبريز تحصن فيها ، وانضم الى جيشه متطوعون من أهل شروان ، فسار لقتال المغيرين ، وصمد لهم ، وتمكن من الانتصار عليهم فى عام ٥١٧هـ (١١٢٣م)(٢) ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤هـ وكانت الحرب فى شهر ربيع الأول من هذا العام ٠

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٤هـ وحوادث سنة ٥١٧هـ ٠

وطردهم من بلاد المسلمين ، ثم أقام السلطان محمود مــــدة فى « شروان » للاطمئنان الى استقرار الحـــالة فى المنطقة ، قبــل أن يعــود الى مقره فى همــذان ٠

غير أن الأحــوال ظلت غيــر مستقرة فى أجــزاء الدولة السلجوقيــة المختلفة ، لكثرة الفتن والمنازعات بين الحــكام ، والطامعين فى الحكم ، أو فى توسيع مناطق نفوذهم ، كما كانت الأحوال مضطربة فى أنحــاء العــالم الاســلامى كله شرقا وغربا ، فكانت مصــر وفلسطين وبعض أجزاء سورية الساحليــة فى حالة من الاضطراب الشديد تحت حــكم الفاطميين ، نتيجــة لضعف الخليفــة الفاطمى ، وكثــرة المنازعات بين الوزراء وقــواد الجيش من أجل الظفر بالنفوذ والجاه

كما كان حكام السلاجقة فى الشام وفى بلاد الروم يتنازعون فيما بينهم ، بغية الظفر بالسلطان والنفوذ ، وتوسيع دائرة هذا النفوذ ٠

ولم يكن الخليفــة العباسى فى بغداد بأحسن حالا من الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، مما جعل العالم الاســلامى ـ فى كثيــر من أجزائه ـ عرضــة لأطمــاع الطامعين من المسلمين وغيــر المسلمين ، ومكن الصليبيين ـ كمــا ذكرنا ـ من شق طريقهم الى بيت المقــدس ، وتثبيت أقدامهم فى كثيــر من أجزاء الشــام وآسيــا الصغرى ، وأغراهم انقسام دولة السلاجقــة وتفرق المسلمين ، وانتشــار الفتن والحروب الداخلية فى بلادهم ، فحاولوا توسيع مناطق نفوذهم ، وتمكنوا من السيطرة على مدينة صــور فى عــام ٥١٧هـ ، (١١٢٣م)(١) وكانت حصنا منيعا زادهم قــوة على قوتهم ، وجعلهم شوكة شديدة الوخز فى جنب المسلمين ٠

وهكذا كانت الأوضاع فى المناطق القريبة من ممتلكات سلاجقة العراق مضطربة أشــد الاضطراب ، وزادها سوءا انقطاع الأمطار فى العراق ـ فى العام نفسه ـ مما أدى الى قلة الأقوات ، وغــلاء الأسعار فى جميع أنحــاء المنطقة ، وظلت الحالة الاقتصادية سيئة فيها الى عام ٥١٩هـ (١١٢٤م) ٠

وقــد شجع تفرق السلاجقة وتنازعهم الاسماعيلية فى ايران والشام ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٧هـ ٠

فبلغت قوتهم فى الشـام درجـة مكنتهم من السيطرة على قلعـة بانياس فى ذى القعدة من عام ٥٢٠هـ (١١٢٥م)(١) ، كما قتلوا قسيم الدولة آقسنقر البرسقى صاحب الموصل ٠

ومما زاد الطين بلة فى دولة سلاجقـة العراق حـدوث خـلاف بين السلاجقة والخلافة العباسية ، فقد حدث فى العـام المذكور خلاف شديد بين الخليفـة العباسى المسترشد بالله والسلطان السلجوقى محمـود ، وحدثت مناوشات كثيـرة بين الطرفين ، فسـار السلطان محمـود على رأس جيش كبير لفتح بغداد وحاصرها ، فلم يجـد الخليفة العباسى بدا من مصالحته . فدخل السلطان محمود بغـداد ، وأقام فيهـا الى شهر ربيع الثانى من عام ٥٢١هـ (١١٢٦م) ثم رحل بعد ذلك الى همذان(٢) ٠

كمـا كان الوزراء فى نزاع دائم ، فـكانوا يدبرون المؤامرات لبعضهم البعض ، وكثيـرا ما كانوا يحرضـون السـلاطين والأمراء لقتـال بعضهم البعض ، مما زاد الحالة اضطرابا وزاد نيران الفتن اشتعالا ٠

النزاع حول عرش سلاجقة العراق :

ووصـل الاضطراب فى دولة سلاجقـة العراق منتهـاه حين توفى السلطان محمود فى شوال من عام ٥٢٥هـ (١١٣٠م) ، فقـد ظهر النزاع من جديد حول عرش السلاجقة فى دولتهم بالعراق وتنازع عليه داود بن محمود وعمـه مسعود . وهكـذا اشتعلت نار الحرب من جـديد بين أفراد البيت السلجوقى ، واقتتل الطرفان فى العـام المذكور ثم اصطلحا ، واتفقا على أن يتولى مسعود عرش سلاجقـة العراق ، غير أن منافسا جـديدا على العرش ظهر بعـد الصلح بقليل ، ألا وهـو سلجوقشاه أخـو مسعود وعم داود ، فتصدى له مسعود وقاتله ، ثم تم الصلح بين الأخوين على أن يصير مسعود سلطانا على سلاجقـة العراق ، ويصبح سلجوقشاه وليا لعهده ، وكان ذلك فى عـام ٥٢٦هـ (١١٣١م)(٣) ، وأقر الخليفـة العبـاسى المسترشد بالله هذا الوضع ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث السنوات ٥١٨هـ و ٥١٩ و ٥٢٠هـ ٠
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٢٠هـ ؛ الراوندى : راحـة الصـدور ، ص ٢٠٥ ، البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٢٦ ٠
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦هـ ٠

غير أن الصلح لم يضع حدا للتنازع على عرش سلاجقة العراق ، فثارت المنازعات بين أفراد البيت السلجوقى من جديد ، وانتشرت الفتن فى ايران والعراق ، وكثرت الحروب الداخلية ، فتدخل السلطان سنجر بوصفه زعيما للسلاجقة لوضع حد لحالة الفوضى والاضطراب التى سادت دولة سلاجقة العراق ، واشتبك معه فى قتال بالقرب من « دينور » فى عام ٥٢٦هـ (١١٣١م) وتمكن من انزال الهزيمة به ، ففر مسعود ، بينما أمر سنجر باسناد عرش سلطنة السلاجقة فى العراق الى طغرل اخى مسعود(١) ، فخطب له فى جميع البلاد وسمى السلطان طغرل الثانى ·

ولم يرق داود بن محمود ما حدث من تغيير ، فرفع راية العصيان ، ثم توجه الى همذان ، فخرج اليه عمه طغرل فانهزم داود ولجأ الى بغداد(٢) ·

أما مسعود ، فانه رفض التسليم بالأمر الواقع ، وتوجه الى همذان ـ أيضا ـ لمحاربة أخيه طغرل ، وكان ذلك فى عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) وتمكن من الانتصار عليه ، والاستيلاء على المدينة ، فأعلن نفسه من جديد سلطانا على سلاجقة العراق(٣) ·

وتكرر القتال بين مسعود وأخيه طغرل ، وتبادلا النصر والهزيمة(٤) ، وظل مسعود يواصل القتال من أجل الظفر بعرش سلاجقة العراق ، حتى ظفر به فى النهاية دون منازع ·

النزاع بين السلاجقة والخلافة العباسية :

لم تخمد الفتن بتولى مسعود عرش سلاجقة العراق ، لأن الخليفة العباسى المسترشد بالله لم يسترح الى رجحان كفة مسعود ، وامساكه بزمام الأمور ، وخوف الأمراء منه ، وبخاصة بعد استيلائه على همذان(٥) ، فلجأ الأمراء الى الخليفة العباسى فى بغداد ، مما شجعه على الاستعداد لقتال

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥٨ ·
(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦هـ ·
(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ·
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٨هـ ·
(٥) كان استيلاء مسعود على همذان بعد وفاة أخيه طغرل فى عام ٥٢٩هـ ·

مسعود ، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة فى بغداد وصمم على السير لقتاله ، وأخذ الأمراء يحسنون له الرحيل والخروج لقتال مسعود ، ويسهلون عليه الأمر ، ويهونون له من شأن مسعود حتى خرج من بغداد فى عام ٥٢٩هـ (١١٣٤م) ، واشتبك فى قتال مع جيش مسعود ، ولكنه هزم ، ووقع أسيرا هو وعدد كبير من أصحابه ، وغنم جيش مسعود غنائم طائلة ، وأنزل الخليفة فى خيمة ، بينما ألقى أكابر رجاله فى السجن ، وأرسل مسعود واليا من قبله على بغداد ، فانتشر خبر هزيمة الخليفة وأسره وسجن رجاله(١) ، فثار الناس فى بغداد وانتشرت الفتنة فى أرجائها ، وكثرت المناوشات بين أنصار مسعود والعامة فى بغداد ، فانتهز الاسماعيلية هذه الفرصة ، وهجموا على خيمة الخليفة ـ التى لم تكن عليها حراسة قوية ـ وقتلوه ، ومثلوا به أبشع تمثيل ، فانتشر الحزن فى بغداد ، وبويع ابنه الراشد بالله بالخلافة ، وأيده حاكم بغداد من قبل مسعود(٢) ، ولكن الناس ثاروا على مسعود ، وحملوه دم الخليفة المسترشد بالله ، وأصبح على الخليفة الجديد الراشد بالله أن يطالب بدم أبيه ، فبقيت العداوة بين السلاجقة والخلافة العباسية .

وقد صار السلطان مسعود بعد قتل الخليفة المسترشد بالله قويا مرهوب الجانب ، فحاول التخلص من جميع أعدائه ، وأخذ يبسط سلطانه على العراق وسائر الأقاليم الداخلة فى حدود دولة سلاجقة العراق ، غير أن الخليفة الراشد بالله لم يلبث أن جاهره بالعداء ، وسواء أكان سبب هذا العداء رغبة الراشد بالله فى الأخذ بثأر أبيه(٣) أم كان سببه مطالبة مسعود للراشد بالله بضريبة كبيرة(٤) ، فان الحرب قامت فعلا بين الطرفين فى عام ٥٣٠هـ (١١٣٥م) واجتمع كثير من الأمراء وحكام الأقاليم حول

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ؛ الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٧ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٤ ـ ١٨٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩هـ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ صدر الدين الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .

الخليفة العباسى ، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة ، واستقر رأيه احلال ابن أخيه داود محله ، فسار مسعود على رأس جيش كبير الى بغداد فى العام المذكور ، وحاصرها حصارا شديدا ، استمر نيفا وخمسين يوما ، حتى دب اليأس الى قلوب أنصار الخليفة فتفرقوا ، واضطر الخليفة نفسه الى الفرار الى الموصل ، فدخل مسعود بغداد ، وعزل الخليفة الراشد بالله وعين مكانه عمه المقتفى لأمر الله ، وأخذ البيعة له ، وحدد له مخصصاته ، ووضع يده على زمام الأمور فى دار الخلافة ٠

غير أن النزاع بين الخليفة الراشد بالله العباسى والسلطان مسعود السلجوقى ظل قائما ، فحدث اقتتال بين الطرفين أكثر من مرة ، وكانت كفة السلطان مسعود راجحة دائما ، فانتهز الاسماعيلية فرصة ضعف الراشد بالله ، وهجموا عليه وقتلوه ، كما قتلوا أباه المسترشد بالله من قبل ٠

وهكذا ساءت الصلات بين العباسيين والسلاجقة فبعد أن كان السلاجقة يدينون بالطاعة والولاء للخلافة العباسية ، ويعدون أنفسهم جنود الخلافة المخلصين ، تجرأوا عليها ، واشتبكوا فى قتال معها ، وتسببوا فى قتل الخليفة المسترشد بالله وابنه الخليفة الراشد بالله بواسطة الاسماعيلية ، وصار السلطان السلجوقى هو الذى يختار الخليفة العباسى ، وكان هذا قلبا للأوضاع زاد الدولة السلجوقية بعامة ، ودولة سلاجقة العراق بخاصة ضعفا وانقساما ، فانتشرت الفتن فى أرجائها ، ونفر الناس منها ، فكان هذا ايذانا بقرب انهيارها وزوالها ٠

حقيقة ان الكلمة العليا فى العراق صارت للسلطان مسعود بعد قتل الراشد بالله العباسى ، ولكن الحالة ظلت مضطربة فواصلت نيران الفتن اشتعالها ، فأصبحت الدولة ميدانا للحروب الداخلية والمنازعات المحلية(١) ، وقضى السلطان مسعود الجزء الأكبر من مدة حكمه فى اخماد الفتن(٢) ، ومحاولة القضاء على أعدائه والمتمردين عليه ، حتى خلا له الجو ، وصار مرهوب الجانب فى المناطق الخاضعة لحكم سلاجقة العراق الى أن توفى

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٣١ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٨٨ ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٠هـ وسنة ٥٤٢هـ ٠

فى أول رجب من عـــام ٥٤٧هـ (١١٥٢م) فأصـــاب الوهن دولة سلاجقــة العراق ، وعادت من جديد ـ ميــدانا للفتن والحــروب الداخليـــة ، وضعف السلاطين حتى صاروا ألعوبة فى أيدى قواد الجيش وحــكام الأقــاليم ـ كما سيأتى ـ وظل الوضع على هذه الصورة حتى غربت شمس هذه الدولة ٠

وهكذا يلاحظ الدارس لتاريخ السلاجقة أن دولتهم أصبحت منذ أواخــر القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، ميدانا للحروب الداخليــة ، من أجل تحقيق المصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة ، كما كانت جميع الظروف المحيطـــة بدولتهم ، توجب عليهــم أن يتحدوا ، فقـــد كان الاسماعيلية يسيطرون على قلاع حصينة داخـل الدولة ، وكان الصليبيون قد نجحوا فى شق طريقهم الى بيت المقدس والاستيلاء عليه ، وانشاء امارات قوية على الحــدود الغربية للسلاجقــة ، غير أن السلاجقــة تفرقوا بدل أن يتحدوا ، وانشغلوا بالحروب الداخلية فيما بينهم بدل أن يوحــدوا صفوفهم لقتال أعدائهم فى الداخل والخارج ، فكان أمرا منطقيــا أن تتجزأ دولتهــم وتضعف ثم تنهار وتتساقط أجــزاؤها جزءا فى اثر جزء ٠ ولقد صــدق ابن العبرى حين صفهم فى هذه الحالة بقوله : « فكأنما سـل طين السلاجقة من جفن الجفاء ، وجبلت جبلتهم على الاغفال والاغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة ، والعزة فى خدمتهم بالذل مشفوعة ، والاغترار بهم غرر ، وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ، ويبرمون وينكثون »(١) ٠

فلننظر كيف انهارت أجزاء دولة السلاجقة بعد تفسخها ، ولنبدأ برؤية انهيار الجزء الشرقى منها ، لأنه كان أسرعها الى الانهيار والزوال ٠

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٣ ٠

الفصل التاسع

انهيار دولة سلاجقة خراسان

لعل من المصادفات العجيبة أن أول انهيار فى دولة السلاجقة حدث فى خراسان وما وراء النهر كما قامت دولتهم فى البداية فى هذه المنطقة ، وهذا أمر فيه عبرة لمن يعتبر ، وتلك سنة الله فى خلقه ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فلقد اتحدت صفوف السلاجقة فى بداية أمرهم ، فتمكنوا من أعلان قيام دولة لهم فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) فى خراسان ، واتخذوا مدينة نيسابور قاعدة لهم ، ثم تفرق شمل السلاجقة واختلفوا فى نهاية أمرهم ، فانهارت دولتهم أول ما انهارت فى خراسان ٠

وكان سنجر مقيما فى هذه المنطقة ، وكان زعيم السلاجقة الملقب بالسلطان الأعظم ، غير أنه كان حين وفاة السلطان مسعود فى عام ٥٤٧هـ (١١٥٢م) شيخا هرما يقترب من السبعين من عمره ، ويحمل على عاتقيه عبء هذه السنوات من عمره ، وهى سنوات حفلت بالكثير من الحروب التى هدت قوته ، وبخاصة بعد هزيمته من القرة خطائية فى قطوان فى عام ٥٣٦هـ (١١٤١م) ــ كما ذكرنا ــ وهى حروب اضطر الى خوض بعضها دفاعا عن حدود دولته ، وصونا لنفوذه ،وخوفا على هيبة السلاجقة من التبدد والضياع ٠

حقيقة ان سنجر وفق فى أكثر الحروب التى خاض غمارها غير أن كثرة هذه الحروب ، وتعدد ميادينها قد هد قوته وفل شوكته ، وأفقده فى نهاية الأمر السيطرة على جزء من ممتلكاته ، فانحسر سلطانه عن كثير من أجزاء ما وراء النهر ، وكانت هزيمته من القره خطائية سببا فى تجرؤ حكام

الأقاليم عليه ، وضياع سلطانه نهائيا فى اقليم ما وراء النهر فبدأ نجمه فى الأفول ٠

وكان من نتيجة ذلك كله أن دولة السلاجقة فى خراسان بزعامة سنجر فقدت السيطرة على أطرافها ، فكثر قيام الدول والامارات المستقلة حولها ، وكان سنجر يضطر بين حين وآخر الى الاشتباك فى قتال ضد بعض هذه الدول(١) ـ كما ذكرنا ـ غير أنه عجز أخيرا عن مواجهة هجوم الغز فى عام ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وهى أمر يستحق الوقوف عنده ودراسة نتائجه ٠

* * *

فتنة الغز :

كانت الغز من القبائل التركية المسلمة التى تسكن فى اقليم ما وراء النهر ، فلما استولت القبائل القره خطائية على هذا الاقليم هاجرت طوائف الغز ، وسكنت بالقرب من بلخ ، فأراد الأمير قماج حاكم بلخ ابعاد الغز عن هذه المنطقة ، ولكنهم أرضوه بالمال والهدايا فرضى عنهم وصادقهم ، وتركهم يقيمون بجواره دون أن يتعرض لهم بأذى ، فظلوا سنوات بجواره ، وعرفوا باستقامتهم ، واتباعهم لمبادىء الاسلام القويمة ، وتمسكهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ٠

وفى عام ٥٤٨هـ (١١٥٣م) لاحظ قماج حاكم بلخ كثرة عدد الغز وازدياد قوتهم ، فتوجس فى نفسه خيفة منهم ، وطلب منهم الانتقال من جواره ، والبحث عن مقام آخر لهم ، غير أنهم رفضوا طلبه ، فصمم قماج على محاربتهم واجلائهم بالقوة ، فوحدوا صفوفهم ، واستعدوا للقائه ،

---

(١) من أهم الدول التى قامت فى عصر سنجر الدولة القره خطائية والدولة الخوارزمية وقد ذكرنا شيئا عن كل منهما ، ثم الدولة الغورية وكانت تسيطر على جبال الغور ومدينة فيروزكوه بالقرب من غزنة وامتد نفوذها الى هراة وقد اشتبك سنجر فى قتال مع علاء الدين حسين الغورى لما حاصر مدينة بلخ وانتصر سنجر عليه وأسره ثم أطلق سراحه فارتفع شأن الدولة الغورية بعد ذلك وسيطرت على غزنة ثم سيطرت على أكثر أجزاء شبه القارة الهندية وصارت من الدول القوية المساهمة فى توجيه سير الأحداث فى ايران والهند فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ٠

بعـد أن فشلوا فى استرضائه ، ووقعت الحـرب بينهم وبينـه ، فتمكنوا من الانتصار عليه وغنموا غنائم طائلة ، فشكاهم قماج الى السلطان سنجر ٠

وحـذر السلطان من خطرهم وكثرة عـددهم ، وقوة بأسهم ، وبين له ما ارتكبوه من جرائم النهب والسلب والقتل ، واسترقاق النساء والأطفال ، وتخريب المدارس ، وحرق الكتب وقتل الفقهاء ٠

وكان السلطان سنجر حينذاك مقيما فى مرو ، فلما أحاطه قماج علما بحال الغز ، راسلهم يتهددهم ، وأمرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليـكف عنهم ، ويتركهم فى مراعيهم ، فـلم يجبهم الى ذلـك ، وجمع عساكره من أطراف البلاد ، وسـار اليهم على رأس جيش كبير ، فقاتل الغز ببسالة منقطعـة النظير ، فتمكنوا من انزال هزيمـة نكراء بجيش السلطان سنجر ، وقتلوا عددا كبيرا من أفراده ، وكان قماج نفسـه من بين القتلى ، ووقع السلطان سنجر فى النهـاية أسيرا فى أيدى الغز ، وأسر معه جماعة من أمراء جيشه ، فقتل الغز الأمراء ، بينما بقى سنجر أسيرا لديهم الى عام ٥٥١هـ (١١٥٦م) ٠

وكانت هذه الهزيمة أعظم كارثة حلت بالسلطان سنجر زعيم السلاجقة ، وبدولة سلاجقـة خراسان بخاصـة ثم بدولة السلاجقة كلها بعـامة ، فقد استولى الغز بعد انتصـارهم على سنجر على أكثر البـلاد ، وأمعنوا فيها نهبـا وتخريبا وقتلا ، فخربت مـدن كثيرة كانت عامرة مزدهرة مثـل مرو ونيسابور ، وقد وصف ابن الأثير فى تاريخه ما فعله الغز بمدينـة نيسابور فى قوله :

« فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهبا مجحفا ، وجعلوها قاعا صفصفا ، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها ، وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها »(١) ٠

ولـا وصلت فلول جيش السلطان سنجر الى نيسـابور ، انسحب الغز منها بعد نهبها وتخريبها ، فاجتمع أمراء السلاجقـة وأحضروا سليما نشاه ابن السلطان محمـود ونصبوه سلطانا على سلاجقة خراسان ، والتفـوا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨هـ ٠

حوله ، وخطبوا له بالسلطنة فى مختلف البلاد ، وسار جماعة من العسكر السلطانى الى طائفة كثيرة من الغز ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا منهم كثيرا ، وانهزم الباقون .

ثم اجتمع الجند حول سليما نشاه ، وساروا الى مرو يطلبون الغز ، فبرز الغز اليهم ، واشتبك الطرفان فى قتال مرير ، انتهى بانتصار الغز ، وهزيمة جند خراسان ، فولوا الأدبار ، وتبعهم الغز ، وعاودوا نهب المدن وسلبها وتخريبها ، وقتل الفضلاء من أهلها ، وقد فعلوا هذا فى طوس ونيسابور(١) وسائر مدن خراسان التى وصلوا اليها ، مما تسبب فى هلاك كثير من العلماء والفقهاء ، وحرق كثير من خزائن الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وتقويض أركان دولة السلاجقة فى خراسان ، مما عجل بانهيارها وزوالها بعد ذلك ببضع سنوات .

وقد ضعف شأن السلطان سليما نشاه بعد انتصار الغز على جيشه ، وتدميرهم مدن خراسان الكبرى ، وكان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك قد توفى فى شوال سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) فاستوزر بعده ابنه نظام الملك أبا على الحسن بن طاهر ، غير أن أوضاع الدولة أصابها الخلل ، وكان سليمانشاه سيىء التدبير قبيح السيرة ، فعجلت هزيمته بانهيار حكمه ، وفارق خراسان فى صفر سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وعاد الى جرجان ، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان ابن أخت السلطان سنجر ، وخطبوا له على منابر خراسان ، واستدعوه فملكوه أمورهم ، وانقادوا له ، فى شوال سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) ، وساروا معه الى الغز ، وهم يحاصرون هراة فجرت بينهم حروب ، وكان الظفر فى أكثرها للغز(٢) .

وكان للسلطان سنجر مملوك اسمه « اى آبه » ولقبه المؤيد ، فلما اشتدت فتنة الغز ، وكان السلطان سنجر أسيرا تمكن من كسب ود كثير من الأمراء ، فأطاعوه ، فعلا شأنه ، وعظم أمره ، وكثر جنده ، واستطاع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩هـ .
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٤٩هـ .

السيطرة على نيسابور وطوس وأبيورد وشهرستان والدامغان ، وازاحة الغز عن هذه المنطقة وقتل منهم خلقا كثيرا ٠

وكان « اى آبه » حسن السيرة ، فعدل فى الرعية واستمال الناس ، ووفر الخراج على أهله ، وبالغ فى مراعاة أرباب البيوت ، فاستقرت البلاد بعد اضطراب ، ودانت له الرعية بالطاعة والولاء ٠

أما الخان محمود بن محمد ، فانه لما يئس من قتال الغز ، سار الى نيسابور ، فوجد أن « اى آبه » قد غلب عليها ، فراسل الغز فى الصلح ، فقبلوا ، واصطلحوا معه فى رجب من سنة ٥٤٩هـ هدنة على دخل(١) ٠

وأما السلطان سنجر فقد ظل أسيرا فى أيدى الغز ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، ثم تمكن من الهرب من الأسر فى رمضان من عام ٥٥١هـ (١١٥٦م) . وواصل السير حتى وصل الى دار ملكه « مرو » فاجتمع الناس حوله ، وجلس على عرشه مرة أخرى ، غير أنه كان حينذاك شيخا هرما ، فلم يقو على تحمل صدمة ما رآه فى دياره من الخراب والدمار ، فمرض ثم توفى حزنا وكمدا فى عام ٥٥٢هـ (١١٥٧)(٢) ٠

والواقع أن فتنة الغز كانت ضربة قاصمة لظهر دولة السلاجقة فى خراسان ، وقد عجلت وفاة سنجر بانهيارها بعد موته ببضع سنوات ، فقد أخذ حكام الدولة الخوارزمية يسيطرون على أجزاء الدولة السلجوقية فى خراسان جزءا فى اثر جزء حتى ضموها الى ممتلكاتهم بعد أقل من خمس سنوات من وفاة السلطان سنجر ، زعيم السلاجقة وآخر سلاطينهم العظام ، حين كان قويا ، مرهوب الجانب يلقب بالسلطان الأعظم ، ويدين له سائر حكام السلاجقة فى جميع أجزاء الدولة بالطاعة والولاء ٠

ولهذا يعد عصر سنجر ذا أهمية خاصة فى تاريخ دولة السلاجقة ، فقد كان نهايةلعصور سلاطينالسلاجقة العظام، كما كانت نهاية لدولةالسلاجقة فى خراسان ، وكان سقوط هذه الدولة من أهم عوامل انهيار دولة السلاجقة فى ايران والعراق ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩هـ ٠
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٥١هـ ٠

كما كان عصر سنجر من العصور التى ازدهر فيها الأدب الفارسى ، لما عرف عنه من تشجيع للشعراء والكتاب وسائر المشتغلين بالعلم بمختلف فروعه ، والمشتغلين بالفن بمختلف ألوانه ، وان المدح الكثير الذى قيل فيه ، والكتب العديدة التى قدمت له ، وأشار مؤلفوها فى مقدماتها به ، لتدل دلالة واضحة على تشجيعه للأدباء(١) والعلماء ، والمشتغلين بالفنون الجميلة بما كان يقدمه لهم من عطايا وهبات ٠

وقد ظل سنجر حاكما أكثر من ستين عاما ، بين حاكم على خراسان وسلطان أعظم لدولة السلاجقة(٢) ، فساعد طول مدة حكمه على كثرة الانتاج العلمى والأدبى والفنى فى عصره ، مما ساعد على رقى الثقافة ، وازدهار الحضارة الاسلامية فى هذا العصر ٠

وهكذا سقطت دولة سلاجقة خراسان بسقوط حكم سنجر على أيدى الغز ثم موته ، وعجز خلفاؤه عن ملء الفراغ الذى تركه ، واستطاع حكام خوارزم الذين كانوا من قبل أتباعا لها أن يستولوا على جميع ممتلكاتها فى خراسان ، بحيث لم تقم لها قائمة بعد ذلك ٠

أما دولة السلاجقة فى العراق ، فقد أخذت تسير بخطى واسعة نحو الانهيار والزوال بعد سقوط دولة السلاجقة فى خراسان ، وكانت نهايتها ـ كذلك ـ على أيدى حكام الدولة الخوارزمية فى عام ٥٩٠هـ (١١٩٣م) مما سنتبينه فيما يلى ٠

---

(١) كان معزى النيسابورى وأنورى الأبيوردى من أهم الشعراء الذين مدحوا السلطان سنجر بمدائح مشهورة فى الأدب الفارسى ، وهناك شعراء آخرون كثيرون ، اشتهروا بمدحهم للسلطان سنجر منهم على سبيل المثال أديب صابر وعبد الواسع الجبلى ، وسيد أشرف الغزنوى وسنائى الغزنوى ، وهم جميعا من الشعراء المعروفين فى الأدب الفارسى الاسلامى ٠

(٢) عين سنجر حاكما على خراسان فى عام ٤٩٠هـ وظل متصفا بهذه الصفة أكثر من عشرين عاما ، أى الى وفاة أخيه محمد فى عام ٥١١هـ ثم أعلن نفسه سلطانا على دولة السلاجقة وظل متصفا بهذه الصفة الى عام ٥٥٢هـ كما ظهر من الدراسة التى تضمنها هذا الكتاب ، أى أنه ظل حاكما أكثر من ستين عاما ٠

الفصل العاشر

انهيار دولة سلاجقة العراق

تمهيـــد :

أخذت دولة السلاجقة فى الانقسام بعد موت السلطان ملكشاه فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩١م) ، فكان انقسامها أول معول هـد فى كيانها ــ كما بينا ــ ثم تجزأت الى أجزاء مختلفة ، كان كل جزء منهـا مستقلا ــ فى الواقع ــ عن غيره من الأجزاء ، كما كان يمـوج بالفتن والحـروب فى داخله ، مما شجع أعداء السلاجقة فى داخل الدولة وخارجها على التحرك ، فتحرك الاسماعيلية فى داخل الدولة ، وتحرك الصليبيون فى خارجها وبسطوا نفوذهم ، وصاروا يشكلون خطرا جسيما على دولة السلاجقة بجميع أجزائها ٠

واختلف السلاجقة فى العراق مع العباسيين بعد أن كانوا يتمتعون بتأييدهم ، فتغيرت نظرة الناس الى السلاجقة وأصبح العباسيون أعـداء لهم ، يؤيدون كل من يحاول القضاء عليهم ٠

وسقطت دولة السلاجقة فى خراسان على أيدى حكام الدولة الخوارزمية الذين صـاروا خنجرا فى ظهر دولة السلاجقـة فى العراق ، مما ساعد على سرعة سقوط هذه الدولة ٠

وأغرى انقسـام أفراد البيت السلجوقى فى العراق الأتابكة من أمـراء الجيش على التدخل فى أمور الدولة المختلفة بما فيهـا التصرف فى العرش ، واختيار من يجلس عليه من أفراد البيت السلجوقى ، فساعد ذلك على ازدياد الأحوال فسادا واضطرابا ، فـلم تكن هناك نهاية لهـذا كله الا انهيار دولة السلاجقة فى العراق وزوالها بعد زوال دولة السلاجقة فى خراسان بأقل من خمسة وثلاثين عاما ، وهى مدة قصيرة فى عمر التاريخ ٠

وكان الأتابكة آخر معـــول سقطت به دولة السلاجقـة فى العراق ، مما يجعل التعريف بهم مفيدا فى الدراسة ، ويكفينا فى التعريف بهم بيان نفوذهم فى دولة سلاجقة العراق بعد وفاة السلطان مسعود ٠

نفـوذ الأتابكة :

كان لأمراء الجيش والأتابكة(١) نفوذ فى دولة السلاجقة بحسب رتبهم العسكرية ، ومقامهم عنـد السلطان ، ومكانتهم فى الدولة ، وكان هذا النفوذ يزداد كلما ازدادت الدولة ضعفا ، فكانوا يشتركون فى توجيه سير الأمور ، وفى اختيـار السلاطين ، وفى ترجيح كفـة فرد من أفراد البيت السلجوقى ، وتوليه العرش ٠

وكان نفوذهم يظهر بين حين وآخـر فى تحريض أفراد البيت السلجوقى ضـد بعضهم البعض ، وفى بث روح الغـدر وعدم الثقـة بينهم ، وكثيـرا ما اشتعلت نيران الحروب الداخليـة بسبب تحريضهم ، غيـر أنهم كانوا ــ غالبا ــ يستترون وراء السلاطين وحكام الأقاليم . وظلوا كذلك حتى ضعفت دولة السلاجقة وتجزأت ، وأخـذت أجزاؤها تنهـار ، ثم تلاشى أول جـزء منها فى خراسان ، وتصدع بنيان دولة السلاجقـة فى العراق ، فظهر الأمراء الأتابكة على المسـرح السياسى فى العراق ظهورا واضحا ، وبـدا نفوذهم قويا ملموسا ، وبرزت أسماؤهم وشخصياتهم ، وأمسـكوا بزمام الأمـور فى الدولة وبخاصـة بعـد وفاة السلطان مسعود السلجوقى فى عـــام ٥٤٧هـ (١١٥٢م) ، فصـار سلاطين السلاجقـة يأتمرون بأوامرهم ، وينفـــذون رغباتهم ، دون أن يكون لهؤلاء السلاطين نفوذ ملحوظ ٠

وكان من أكثر الأمراء نفـوذا بعـد وفاة مسعود « خـاص بك » ابن بلنگرى ، فأمسك بزمام الأمـور فى يده . وكان السلطان مسعود قـد عهـد بولاية العهد الى ملكشاه ابن أخيه محمود . فلما توفى مسعود ، أجلس خاص بك ملكشاه على عرش سلاجقة العراق ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه ، ورتب

---

(١) الأتابكة جمع أتابك ومعناها السيد الوالد أو الأمير الكبير وهى رتبـة عسكرية رفيعة كانت تمنح لكبار الوزراء ولحكام الولايات وللمشرفين على تربية أبناء السلاطين ٠

له الأمور وقررها بين يديه . وأذعن له جميع العسكر بالطاعة ، والولاء(١) ، غير أن ملكشاه انصرف الى اللهو والشراب ، فقبض عليــه خاص بك وسجنه، وأرسل الى أخيه محمد بن محمود سنــة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وهو بخوزستان يستدعيه لتولى عرش سلاجقة العراق ، فسار محمد اليــه ، فلما وصل الى همذان أجلســه على العرش ، وخطب له وبالغ فى خدمته واظهار الولاء له ، وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ٠

وخشى السلطان محمد أن يصيبه ما أصاب أخاه من قبل ، فدبر مؤامرة لقتل خاص بك ، وتمكن من التخلص منه ، ونجح أخوه ملكشاه فى الهرب من السجن والفرار الى خوزستان(٢) ٠

وكان بطش السلطان محمد بخاص بك تنبيها للأمراء ، فأخذوا يتآمرون عليه ، ويحاولون التخلص منه ، وعزله عن عرش السلطنة ٠

كما انتهز الخليفــة العباسى المقتضى لأمر الله فرصــة وفاة مسعود ، فحــاول استعادة استقلاله وحريتــه المسلوبة والانتقام من السلاجقة ، وأمر بحذف اسم السلاجقة من الخطبة فى بغداد ، ورفض ذكر أسم السلطان محمد فى الخطبة حين طلب منه ذلك ، فكان هذا اعلانا لحرب جديدة بين السلاجقة والعباسيين ، لم تلبث نيرانها أن اشتعلت فى عام ٥٥١هـ (١١٥٦م)(٣) ٠

وحاول الخليفة العباسى أن يستميل اليه بعض أفراد البيت السلجوقى، ويضمهم الى جانبــه ، فسمح لسليمانشاه بن محمد ــ عم السلطان محمد ــ بدخول بغداد ، وأخذ عليه العهد والميثاق أن يلزم طاعة الخليفة ، فلا يتعرض للعراق بحــال ، وخطب له ببغداد ، وخلع عليه خلع السلطنة ، ثم أرسله الى بلاد الجبل لقتال ابن أخيــه السلطان محمــد فى همذان ، وسير معــه ثلاثة آلاف فارس ، فتوجه سليمانشاه الى همذان ، وراسل ابن أخيــه ملكشاه ــ الذى كان يسيطر على خوزستان ــ ودعاه الى الانضمام اليــه ، وعينه وليا للعهد ، فقــدم اليــه ملكشاه فى ألفى فارس ، وانضم اليهــا ايلدكز أتابك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٧هـ ٠
(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٢٨ ٠
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥١هـ ٠

آذربيجان ، فصاروا جمعـا عظيما ، وتحركوا جميعا صـوب همذان لقتال السلطان محمد الذى لم يكـد يسمع خبرهم حتى سار اليهم ، فوقعت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بانتصار السلطان محمد ، وتشتت شمل سليمانشاه وصحبه ، وأراد سليمانشاه الرجوع الى بغـداد عن طريق شهرزور غير أنه وقع أسيرا ، ثم حمل الى الموصل حيث سجن فى قلعة بها ٠

ثم أرسل السلطان محمـد الى الخليفة العباسى ، وطلب منه أن يخطب له ببغـداد وسائر مدن العراق ، فامتنع الخليفـة عن اجابته الى ذلك ، فسار محمـد من همذان فى عساكر كثيرة نحو بغـداد ، وراسل حاكم الموصـل لارسال عساكر اليـه لاحكام الحصار على بغـداد ، وتمكن محمد من دخول العراق والوصول الى بغـداد وحصارها ، فاضطرب الناس ببغداد ، وأرسل الخليفـة الى الأطراف لجمع العساكر ليتمكن من فك الحصـار عن بغداد ، وجرت بين الطرفين حروب دون أن يصل أحدهما الى نتيجة حاسمة ، وضاق أهل بغداد بحصار محمد لها ، لانقطاع الموارد عنهم ، ولكنهم ظلوا صامدين ، بينما أصر محمد على الاستمرار فى حصار بغـداد وتضييق الخناق عليها ، غير أن أخاه ملكشاه تحالف مع ايلدكز أتابك آذربيجان ، واتحدت قواتهما ، وسارا نحو همذان ــ عاصمة السلطان محمد ــ وتمكنا من الاستيلاء عليها ، فاضطر محمـد الى رفع الحصـار عن بغـداد ، والسير الى همذان لانقاذ عرشه ، وبخاصة بعد أن علم أن ايلدكز قـد اصطحب معه آرسلان بن طغرل بن محمد السلجوقى ــ وهـو ابن زوجتـه ــ وأنه ينوى اجلاسه على عرش سلاجقة العراق فى همذان ٠

وقد نجح السلطان محمد فى استرداد همذان ، وطرد ايلدكز وملكشاه منها ، وجلس على عرش السلاجقة فيهـا ، غير أنه لم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل فى عام ٥٥٤هـ (١١٥٩م)(١) ٠

أما الخليفة المقتفى لأمر الله فقـد تخلص من نفوذ السلاجقة بعد رفع الحصار عن بغداد ، وزوال الخطر عنـه ، وأصبح أول خليفة عباسى يحكم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٤هـ ٠

مستقلا عن سيطرة الأتراك منذ عهد المنتصر(١) ، وكان هذا نصرا للخلافة العباسية على الدولة السلجوقية ·

ولما توفى السلطان محمد اختلف الأمراء والأتابكة فيمن يخلفه على عرش سلاجقة العراق ، وانقسموا الى ثلاثة أحزاب ؛ حزب يريد تولية أخيه ملكشاه ، وحزب يرغب فى تولية عمه سليمانشاه ، وكان أكثر عددا ، وحزب يميل الى تولية أرسلان بن طغرل الذى كان ايلدكز أتابك أذربيجان زوجا لامه ·

أما ملكشاه فانه سار من خوزستان على رأس جيش ، ثم توجه الى اصفهان ودخلها ، ثم أرسل الى الجند فى همذان يدعوهم الى الدخول فى طاعته ومؤازرته ، فلم يجيبوه الى طلبه ، لأن أكثرهم ، كان يريد تولية عمه سليمانشاه . فأخذ ملكشاه يجمع الجند بكل وسيلة ممكنة حتى اجتمع عنده عدد كبير منهم ، فلما كثر جنده أرسل الى بغداد يطلب أن تقطع خطبة عمه سليمانشاه ، وأن تقرأ الخطبة باسمه والا قصدها ، غير أن أعداء ملكشاه كانوا يدبرون المؤامرات ضده ، ونجحوا فى النهاية فى التخلص منه بدس السم له فى الطعام ، فتوفى مسموما فى عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وقرئت الخطبة فى اصفهان باسم سليمانشاه ، فاستقر حكمه فى أكثر أنحاء دولة سلاجقة العراق ·

ولم يكن سليمانشاه شخصا حكيما يحسن تصريف الأمور ، لأنه كان محبا للهو والمجون ، يشغل أكثر وقته فى ملذاته الخاصة ، مما نفر الأمراء منه ، وجعلهم يفكرون فى عزله وتولية فرد غيره من أفراد البيت السلجوقى ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فى همذان فى عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م) والقائه فى السجن داخل قلعة ، ثم دس السم له فى الطعام ، فتوفى كذلك مسموما فى ربيع الآخر من عام ٥٥٦هـ (١١٦٠م)(٢) ·

وقد أرسل الأمراء ـ بعد القبض على سليمانشاه وسجنه ـ الى الأتابك ايلدكز يطلبون منه الحضور ومعه ابن زوجته آرسلان بن طغرل ، فسار

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٥هـ ·

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦هـ ·

ايلدگز اليهم على رأس جيش كبير يرافقه آرسلان ، ووصل هو وابن زوجته الى همـذان ، ثم أجلس آرســلان بن طغرل على عرش السلطنة فى همذان ، فصـار سلطانا على دولة سلاجقة العراق ، ووافق الخليفـة العباسى على ما حدث فخطب لآرسلان فى جميع مدن الدولة ٠

واتخذ السلطان آرســلان زوج أمه ايلدگز أتابكا له ، كما اتخذ أخاه لأمه محمـدا بن ايلدگز الملقب بجهـان بهلوان(١) حاجبا له ، فأخذ نفـوذ الأتابكة يظهر فى دولة السلاجقة منـذ ذلك الوقت ، وصار زمام الأمـور فى أيديهم ، فكانوا يتصرفون فى جميع الأمـور وفق ارادتهم وصـار السلطان دمية فى أيديهم ٠

وحاول حـكام أقاليم ايران المختلفـة من الأتابكة أن يقلدوا ايلدگز فى اصفهـان فرد من أفراد البيت السلجوقى ثم محاولة توليته عرش السلاجقة ، والامساك بزمام الأمـور فى الدولة بهـذه الوسيلة ، ولكنهم فشـلوا ، لأن ايلدگز كان لديه جيش قوى يقوده ابنه محمد جهان بهلوان ، فتمكن بواسطته من الانتصـار على جميع منافسيه من الأتابكة ، وكان أقواهم اينانج حاكم الرى ، فتحالف ايلدگز معه ، وصاهره بأن زوج ابنه محمدا بابنة اينانج ، فعاشت معه فى همذان ، وأصبح ايلدگز واينانج حليفين ، يتعاونان معا فى التغلب على أعدائهما(٢) ٠

وقد صار ايلدگز منذ تولية ابن زوجتـه سلطانا على سلاجقـة العراق ممسكا بزمام الأمور فى الـدولة ، مهيمنا على كل شىء فيهـا ، لايتم شىء الا بأمره ، فكان يتصـرف فى جميع الأمـور برأيه ، أما السلطان آرســلان فكان رمزا ، يملك ولا يحكم ، مكتفيا بلقب السلطان ٠

واستطاع الأتابك ايلدگز بكفاءته وحسن تدبيره أن يدير أمـور الدولة ادارة حسنة ، وأن يرد كيـد أعدائهـا ، وينتصر عليهم(٣) ، مما أدى الى

---

(١) « جهان پهلوان » معناها « بطل العالم » ٠
(٢) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٠ ٠
(٣) محمد بن ابراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص٥١ ؛ كرمانى : تاريخ أفضل ، ص ٤٣

استقرار الأوضـاع فى دولة سلاجقة العراق ، وأخمـد الفتن وكان لايلدگز ابنان يساعدانه فى تصريف الأمور ، وادارة مرافق الدولة هما محمد جهان پهلوان وعثمان قزل آرسلان(١) ٠

وهكذا برز نفوذ الأتابكة وحكام الأقاليم وأمراء الجيش ، وأصبح زمام الأمـور فى أيديهم ، وأصبحـوا يتخذون أبنـاء السـلاطين أدوات فى أيديهم يستعملونها فى وقت الضرورة ٠

وقد قضى ايلدگز بضع سنوات فى القضاء على منافسيه من الأتابكة ، فاشتبك فى حروب كثيرة ضـد حكام الأقاليم المختلفة وبعض أمراء الجيش المتمردين واستطاع فى النهـاية التغلب على جميع منافسيه بعـد الانتصار عليهم ، واسكات أصواتهم ، وأصبح أقوى شخصية فى جميع أنحاء دولة سلاجقـة العراق ، أما آرسلان فلم يكن له الا الاسم ، تقرأ باسمه الخطبة ، وتضرب باسمه السكة(٢) ، مما جعل ايلدگز من القوى التى لها خطرها فى دولة سلاجقة العراق ٠

وظل ايلدگز قويا مرهوب الجانب طوال مـدة حياته حتى توفى فى عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) ، فاحتل ابنه محمد جهان پهلوان مـكانه أتابكا للسلطان آرسلان ـ الذى كان أخـاه لأمه كما ذكرنا ـ وأمسك بزمام الأمور فى الدولة كما فعل أبوه من قبل ، وغلبت شخصيته على شخصية أخيه السلطان الذى لم يستطيع التخلص من نفـوذ أخيـه وسيطرته ، وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة برغم أنه كان أصغر منه سنا ، فحزن مرض وآثر الانزواء حتى توفى فى عام ٥٧١هـ (١١٧٥)(٣) ، وقيل ان أخـاه جهان پهلوان دس له السم فى الطعام ليتخلص منه نهائيا ويولى مكانه ابنه طغرل(٤) الذى كان طفلا فى السابعة من عمـره ، فيصبح وصيا عليـه ، ويستطيع التصـرف فى كل شىء ، دون معارضة أو تضايق من هذا الطفل ٠

---

(١) « قزل آرسلان » معناها « الأسـد الأحمر » هو معروف بأنه أقوى أنواع الأسـود ٠
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنوات ٥٥٦هـ و ٥٥٧هـ و ٥٦٣هـ ٠
(٣) راوندى : راحة الصدور ، ص ٣٠١ ٠
(٤) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٠١ ٠

وهكـذا يتبين أن كفة الأتابك كانت ترجح كفـة السلطان ، فكان يعزل السلطان أو يقتله اذا عارض نفوذه ، أو حاول اظهار شخصيته ·

وقـد تركزت السلطة فى يـد الأتابك محمـد جهان بهلوان ، وكان ابن أخيه السلطان طغرل الثالث طفـلا لا حول له ولا طول ، ولايكاد يعى ما يدور حوله وعيا صحيحا ، مما جعل قوة جهـان بهلوان تبلغ درجـة عظيمة تجعل الحكام الآخرين يرهبون جانبه ويرسلون السفراء الى بلاطه(١) ·

وتمكن جهان بهلوان من الاحتفاظ لدولة سلاجقة العراق باستقرارها ، واستطاع بشجاعته وقوته ومساعدة أخيه قزل أرسلان أن يصـد عن الدولة عدوين فى وقت واحد ؛ أحـدهما ملك الانجـاز الذى أغار على آذربيجان ، والآخر محمد بن طغرل بن محمـد بن ملكشـاه عم طغرل الذى أغـار على العراق(٢) ، فتوطدت بذلك أركان دولة سلاجقة العراق فى عهد السلطان طغرل الثالث ، وظلت الأحـوال هادئة مستقرة عشـر سنوات الى عـام ٥٨١هـ (١١٨٥م) كان جهان بهلوان فى أثنائها السيد المطاع فى الدولة ·

تغير الأوضاع خارج دولة السلاجقة

وكانت الأوضاع خـارج دولة السلاجقة قـد تغيرت تغيرا فى صالح المسلمين بعامة ، وفى صالح أهـل السنة بخاصة ، وذلك فى أثناء غلبة نفوذ الأتابكة على دولة سلاجقة العراق ، فقد تمكن صلاح الدين يوسف من اسقاط دولة الفاطميين فى مصـر فى عـام ٥٦٧هـ (١١٧١م) وقطع الخطبة لهم ، وضم مصر الى الخلافة العباسية السنية ، فخطب للخليفة العباسى المستضىء بنور الله فيها ، وحـل المذهب السنى محـل المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وتم ذلك دون عنـاء أو اضطراب(٣) ، فتوحدت جبهة المسلمين فى مواجهـة الصليبيين ·

ثم صمم صـلاح الدين على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين ، لأنه كان يعد طردهم من بلاد المسلمين الهـدف الأسمى الذى يتوق جميع المسلمين الى

---

(١) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ ·
(٢) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) ·
(٣) أبو الفدا : تاريخه ، ص ٥٣ ·

بلوغه . فأخذ يعد العدة لقتال الصليبيين ، ووجد أن توحيد مصر وسورية تحت حكمه أمر لازم قبل السير لقتال الصليبيين ، وبخاصة بعد وفاة نور الدين حاكم سورية فى عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م) فأعلن استقلاله بمصر ، ثم اشتبك فى قتال مع اسماعيل بن نور الدين وانتصر عليه وتمكن من بسط سيطرته على سورية ، كما استطاع أخوه توارنشاه الاستيلاء على بلاد اليمن ، وبسط نفوذ صلاح الدين فيها ، كما وصل نفوذ صلاح الدين الى بلاد الحجاز ، ووافق الخليفة العباسى فى عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) على أن تكون مصر والمغرب والنوبة وغربى الجزيرة العربية وفلسطين والجزء الأوسط من سورية تحت حكم صلاح الدين ، وبأن يكون السلطان(١) الوحيد على هذه المناطق كلها ، فقويت شوكته فى مواجهة الصليبيين ، كما تمكن فى عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) من بسط سيطرته على الموصل ، فأعلن أمراء العراق الطاعة والولاء له ، وهكذا أحاط صلاح الدين بالصليبيين من كل جانب ، وصار فى وضع يمكنه من التفرغ لقتالهم .

ثم بدأ صلاح الدين تحرير بلاد المسلمين من أيدى الصليبيين ، فاستولى على طبرية فى عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ثم أنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة فى موقعة حطين ، وسقطت بعدها بأسبوع مدينة بيت المقدس ، فدانت له بسقوطها مدن سورية وفلسطين المهمة ، بعد أن كانت فى أيدى الصليبيين ، وواصل صلاح الدين حملاته على القلاع الحصينة التى كانت تحت سيطرة الصليبيين ، فتمكن من السيطرة عليها وانتزاعها من أيديهم ، وسقط آخر معقل لهم فى تلك المنطقة فى عام ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وكانت هذه المعاقل أشواكا فى جنب المسلمين(٢) .

غير أن هذه الانتصارات التى حققها المسلمون بقيادة صلاح الدين جعلت ملوك أوربا الصليبيين يتحمسون لارسال حملة صليبية جديدة لاعادة السيطرة على بيت المقدس ، كان على رأس هذه الحملة فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك

---

(١) أبو الفداء : تاريخه ، ص ٦٠ .
(٢) حتى وجرجى جبور : تاريخ العرب ، ج٣ ، ص ٧٦٦ ـ ٧٦٧ .

فرنسا ، وقد تمكنت هذه الحملة من فتح عكا فى عام ٥٨٧هـ (١١٩١م) ثم تم الصلح بين الطرفين فى عام ٥٨٩هـ (١١٩٢م) غير أن صلاح الدين لم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل(١) ٠

وكان لانتصار صلاح الدين أثر كبير فى فل شوكة الصليبيين ، فأخذت كفة المسلمين ترجح كفتهم منذ ذلك الدين ، حتى تمت الغلبة لهم ، فانتهى الأمر بطرد الصليبيين ، وتحرير بلاد المسلمين ٠

كما حاول صلاح الدين فى عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) أن يغزو قلاع الاسماعيلية فى قزوين وبسطام ودامغان بعد أن سيطر على الموصل ، فطلب من الأتابك جهان بهلوان ، أن يسمح له بالمرور فى الأراضى الخاضعة لنفوذه ، حتى يحقق هدف غزو قلاع الاسماعيلية ، غير أن الأتابك جهان بهلوان رفض السماح لصلاح الدين بالمرور فى أراضى سلاجقة العراق ، مخافة أن يفكر صلاح الدين فى السيطرة عليها ، فوقف فى طريقه ، ورجع صلاح الدين بعد أن تم الصلح بينه وبين جهان پهلوان(٢) ٠

ومرض جهان بهلوان بعد ذلك مباشرة ، ولم يلبث أن توفى فى أوائل عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م) ، وكان الى آخر لحظة من حياته يسيطر على جميع الأقاليم الخاضعة لحكم سلاجقة العراق ، وكان السلطان طغرل بن آرسلان معه والخطبة له فى هذه البلاد بالسلطنة ، وليس له من الأمر شىء ، وانما البلاد والأمراء والأحوال بحكم البهلوان (٣) ، فلما توفى خلفه أخوه عثمان

---

(١) ارجع فى تفاصيل ما ذكر الى ابن خلدون : تاريخه ، ج٥ ، ص٢٢١ ؛ ابن شداد « سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٠ ، الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٣١٨ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ؛ أبو الفدا : تاريخه ، ج٣ ، ص ٨٣ ـ ٨٤ ٠

(٢) ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل فى حوادث سنة ٥٨١هـ أن صلاح الدين كان يحاصر الموصل فعلم بوفاة شاه أرمن ملك أخلاط ففكر فى الاستيلاء عليها ، فسار اليها فى الوقت الذى كان جهان بهلوان قد سار فيه للقيام بنفس المهمة فترددت الرسل بين الطرفين ، وتم الصلح بينهما ، فانصرف صلاح الدين عن مواصلة القيام بتلك المهمة وخطب لجهان بهلوان فى أخلاط ٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢هـ ٠

قزل آرسلان فى منصب الاتابك ، وكان السلطان طغرل حينـــذاك شـــابا فى الثامنة عشرة من عمره ، فلم يطلق أن يظل ألعوبة فى يـد عمه ، فخرج عن حكمه ، ولحق به بعض الأمراء والجند . ووقف الخليفة العباسى الناصر لدين الله الى جانب الاتابك قزل آرسلان . فظهرت الفتن والحروب الداخلية من جديد ، بعد أن كانت البـلاد آمنة مستقرة فى عهـد البهلوان ، وتصادف أن حدث خـلاف بين الشافعية والحنفيـة فى اصفهان ، وانتشرت الفتنة بين أنصار المذهبين ، فكثر القتـل والنهب والاحراق بين الفريقين ، كما حدثت فتنة عظيمة فى مدينة الرى بين أهل السنة والشيعة ، فتفرق أهلها ، وقتل منهم عدد كبير ، خربت المدينة ، وانتشرت الفتنة فى جميع الأرجاء ، فظهرت بوادر انهيار دولة السلاجقة فى العراق ٠

انهيـار دولة سلاجقـة العراق

كانت وفاة الاتابك محمـــد جهان بهلوان بداية لتـداعى أركان دولة السلاجقة فى العراق ، فقد انتشرت فيهـا الفتن والحروب الداخلية ، وعمت أنحاء كثيرة من البلاد ، مما عجـل بسقوط الدولة بعـد بضع سنوات من وفـــاته ٠

وقـد خلف قزل آرسلان أخـاه البهلوان فى منصب الأتابك ، وكان فى آذربيجان فعزم على الرحيل الى همذان مقر السلطنة لتسيير دفة الأمور(١) ، غير أن ابن أخيه السلطان طغرل الثالث كان قـد أصبح شابا فأراد التخلص من سيطرة عمـه ـ كما ذكرنا ـ فقامت منازعات بين الطرفين ، وانضم كثير من الأمراء والجند الى طغرل فقوى أمره ، بينما انحاز الخليفة العباسى الى قزل أرسلان ، وعمت الفتنة البلاد ، فاضطربت أحوالها اضطرابـا شديـدا وتمكن السلطان طغرل من السيطرة على أجزاء كثيرة من البلاد ، فأرســـل قزل أرسلان الى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يستنجده ويخوفه من طغرل ويتعهد بالطـاعة والولاء للخليفة(٢) ، فأمده بجيش وصـل الى همذان قبل

---

(١) امير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) ٠
(٢) بن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣هـ ٠

وصول قزل أرسلان ، فاضطر الى القتال وحده ، فهزم شر هزيمة فى عـــام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، ورجع الى العراق مدحورا(١) ٠

وعــلا شأن السلطان طغرل بعد انتصاره على جيش الخليفة ، فأعلن حاكم مراغه الولاء له ، وتوجه الى همذان لتقديم فروض الطاعة له ، فأمر طغرل ، وأودع عنده ابنه الصغير بركيارق(٢) للاشراف على تربيته ٠

وعاود قزل أرسلان التحرك صوب همذان فى أوائل عام ٥٨٤هـ(١١٨٨م) على رأس جيش كبير ، كما جهز الخليفة العباسى جيشا آخر فى العام نفسه تمكن من الوصول الى همذان والاستيلاء عليها بينما هرب السلطــان طغرل الى آذربيجان ، وأقام فى مدينة تبريز ٠

وكان الأتابك قزل أرسلان قد وصل الى مدينة كرمانشاهان حين بلغــه نبأ رحيل طغرل من همذان ، وتوجه الى آذربيجان ، فغير طريق سيره ، وتبع طغرل الى آذربيجان ، فلما علم طغرل بذلك ، ترك تبريز ورجع الى همــذان بعد رحيل جيش الخليفة عنها ، وظل طغرل عاما فى حالة اضطراب(٣) وتنقل من مكان الى آخر ، فانفرط عقد من حوله من الأمراء والعســاكر ، وضعفت قوته ، فرجحت كفة قزل أرسلان ، وكان حينــذاك يقيم فى آذربيجان ، بينما

---

(١) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١ٷ٧ :
وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه فى حوادث سنة ٥٨٤هـ أن الخليفــة الناصر لدين الله جهز عسكرا كثيرا وسيرهم الى مساعدة قزل أرسلان ليكف الناس طغرل عن البلاد ، فسار العسكر ثالث صفر الى أن قارب همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا ، وعــاد العسكر الى بغداد متفرقين ، ويبدو أن ابن الأثير يشير الى تلك الواقعة التى ذكرنا أنها كانت فى عام ٥٨٤هـ ، ويفهم من كــلام الراونــدى فى كتابه راحة الصدور أن الواقعة المذكورة كانت فى أواخر عام ٥٨٣هـ ، لأن المعركة التالية بين الطرفين كانت فى شهر المحرم من عام ٥٨٤هـ ، ونظرا لأن الراوندى كان معاصرا لهذه الأحداث جميعها ، فان مـــا ذكره هو الصحيح ٠
(ارجع الى الراوندى : راحة الصدور ، حواشى ص ٣٤٧ ٠
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٤٧ ٠
(٣) المرجع السابق ، ص٣٤٨ ٠

السلطان طغرل هائم على وجهه ، لايجرؤ على دخول همذان عاصمة ملكه ، فهو يطوف حولها دون أن ينزل بها ٠

وفى شهر صفر من عام ٥٨٥هـ (١١٨٩م) تحرك قزل أرسلان منآذربيجان قاصــدا همــذان ، ولم يكن لطغرل طاقة الوقوف فى وجهــه(١) فأفسح له الطريق ، فاستولى قزل أرسلان على همذان دون مقاومة ، وأخــذ نجمه فى الارتفاع فتوافد الرسل عليه من مختلف الأطراف معلنين التأييد له ، ثم رجع الى آذربيجان وجاءه جيش العراق من دار الخلافة لتأييده ، وابلاغه وقوف الخليفة الى جانبه(٢) ٠

وظل السلطان طغرل يتنقل من مكان الى آخر خائفا مضطربا ، ثم دخل همذان خلسة فى عام ٥٨٦هـ (١١٩٠م) واختفى فيها ، غير أن جيش الخلافة توجه من أذربيجان الى همذان من شهر رمضان من العام نفسه ، واستولى عليها ، فوقع طغرل أسيرا فى أيدى رجال الجيش ، ثم دخــل قزل أرســلان همذان ، ووجد طغرل أسيرا ، فسجنه فى قلعة بآذربيجان(٣) ٠

وهكذا خلا الجو لقزل أرسلان ، واستقر فى العاصمة همذان ، فأخــذ يبحث عن سلطان رمزى من السلاجقة يجلسه على عرشهم فى العراق ، وفكر فى اجلاس سنجر بن سليمانشاه على العرش ، فأخرجه من السجن ليجلسه على العرش ، ووزع الاقطاعات على الأمراء ، ثم توجه الى أصفهان ، حيث تزوج بالخاتون زوجة أخيه البهلوان ، وكانت سيدة رائعة الجمال ، فتهيــأت له جميع أسباب السعادة والعظمة ، وأقبلت الدنيا عليه ، فلم يلبث أن وصلته رسالة من الخليفة العباسى تظهر رضــاه عنــه وموافقته على أن يلى عرش السلطنة ، فأعلن قزل أرسلان نفسه سلطانا فى عام ٥٨٧هـ (١١٩١م)(٤) ،

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٥٥ وما بعدها حواشى ص٣٥٥ ٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ وحواشيها ؛ حمد الله قزوينى : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٥ ٠
(٣) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٨٧ ـ ١٨١ ؛ ابن الوردى : تاريخه ، ص ١٠٠ ٠
(٤) الراوندى راحة الصدور ، ص ٣٦٣ ٠

وصار واضحا أن بساط سلاجقة العراق قد طوى ، كما طوى بساط سلاجقة خراسان من قبل ، وأن شمس دولة السلاجقة فى ايران والعراق قد أذنت بالمغيب ٠

غير أن أمراء العراق حقدوا على قزل أرسلان هذه المنزلة(١) ، وخشوا أن يفتك بهم كما تنكر لعمه طغرل ، وألقاه فى السجن ، وكانت الخاتون زوجته الجديدة ترى أن ابنها قتلوغ اينانج من زوجها السابق جهان بهلوان أحق بهذا المجد من عمه قزل أرسلان الذى كان قد انصرف عنها ، برغم جمالها المفرط ، لسوء سلوكه ، فتعاونت مع أمراء العراق(٢) هى وابنها قتلوغ اينانج وأخذ الجميع يتآمرون ضد قزل أرسلان ، ويفكرون فى وسيلة لقتله(٣) ٠

وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة لقتله ، فأرسلوا اليه من قتله وهو نائم على فراشه(٤) ٠

وكانت الدولة حينذاك تموج بفتن كثيرة متنوعة ، فلم يعرف قتلته على وجه التحديد ، فقيل ان أمراء العراق هم الذين قتلوه بالاتفاق مع الخاتون زوجته الجديدة ، وهو القول الراجح الذى ذكرناه ، وقيل ان الاسماعيلية هم الذين قتلوه(٥) ، مستفيدين من جو الفتن السائد فى الدولة ، كما فعلوا أثناء النزاع بين السلطان مسعود والخلافة العباسية ، فقتلوا الخليفة المسترشد بالله ثم قتلوا ابنه الراشد بالله – كما مر – غير أن هذا القول مستبعد لأن الاسماعيلية لم يذكروا اسم قزل أرسلان بين أسماء الذين اعترفوا بقتلهم وتباهوا بقتلهم لهم ٠

وقيل ان انصار الشافعية هم الذين قتلوه ، لاضطهاده لمشايخهم وقتله كثيرا منهم ، لأنه كان مناصرا للحنفية حين ثار نزاع شديد بينهم وبين الحنفية فى اصفهان – كما ذكرنا – وهو قول مستبعد كذلك ، لأنه لم يتواتر فى كتب

---

(١) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) ٠
(٢) المرجع السابق (الجزء الرابع) ٠
(٣) هذا ما ذكره الحسينى فى أخبار الدولة السلجوقية ٠
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧هـ ٠
(٥) تاريخ البناكتى : الجزء الرابع ٠

التاريخ ، التى دونت أخبار السلاجقة ، ومنها كتب معاصرة للأحداث المذكورة مثل كتاب راحة الصدور للراوندى ، مؤرخ الدولة السلجوقية حينذاك ٠

ومهما يكن من شىء ؛ فان تولى قزل أرسلان عرش السلطنة قبل اغتياله يدل دلالة واضحة على أن قوة أتابكة أذربيجان قد بلغت حداً جعلهم جديرين – فى رأى الخليفة العباسى فى ذلك الوقت – بتولى عرش السلطنة ، كما يدل ما حدث على أن سلاجقة العراق كانوا ضعافا فى حالة احتضار ، وأن دولتهم كانت وشيكة الانهيار ٠

ولما قتل قزل أرسلان صار الأمراء سادة الموقف ، فأمسكوا بزمام الأمور وأخذوا يوزعون السلطة والمناصب فيما بينهم ٠

وحاول نصرة الدين أبو بكر بن محمد جهان پهلوان أن يخلف عمه قزل أرسلان فى السلطة ولكنه لم يوفق فاكتفى بحكم آذربيجان ، بينما اقتسم أمراء العراق ومعهم أخوه قتلوغ اينانج(١) حكم الأقاليم الأخرى فى دولة سلاجقة العراق ، وظهرت المنافسة بين الأخوين بصورة قوية واضحة ، فاشتبكا فى حروب كثيرة حتى روى أن الحروب شبت بينهما أربع مرات فى شهر واحد(٢) وشغل أمراء العراق بالغنائم ، فانتهز السلطان طغرل هذه الفرصة ، ودبر

---

(١) كان قتلوغ اينانج أخا غير شقيق لنصرة الدين أبى بكر وكانت أمه الخاتون أجمل زوجات جهان بهلوان ، وكانت تتوق الى اسناد منصب رفيع الى ابنها ، وقد ورد فى بعض الكتب التى سجلت أخبار السلاجقة من الكتب التى مر ذكرها أن الخاتون تزوجت قزل أرسلان بهدف التخلص منه وابعاده عن طريق ابنها قتلوغ اينانج ، ولذلك اشتركت فى المؤامرة التى دبرت لقتله ويسرت للقاتل سبيل الوصول الى فراشه لقتله ٠

ومما يرجح هنا القول ، أنها تزوجت بعد ذلك السلطان طغرل السلجوقى – مع أنه كان أصغر سنا من ابنها قتلوغ اينانج – لتتمكن من التخلص من منافسته لابنها ، بالاشتراك فى مؤامرة لقتله – كما فعلت مع عمه قزل أرسلان – غير أنه فطن لخطتها ، فدبر مؤامرة لقتلها قبل أن تقتله ، مما جعل ابنها قتلوغ اينانج يستعدى عليه حكام خوارزم ثم يقدم على قتله كما سيأتى ٠

(٢) أمير يحيى القزوينى : لب التواريخ (الجزء التاسع) ؛ خواندمير : حبيب السير ، ص ١٠٧ ٠

وسيلة للهروب من السجن ، ونجح فى الهروب من سجنه ، فانضم اليه بعض الأمراء ، وتمكن من جمع عدد من الجند ، وتكوين جيش حارب به أمراء العراق وابن عمه قتلوغ اينانج بالقرب من قزوين ، وتمكن من الانتصار عليه ثم توجه الى مقر حكمه فى همذان حيث جلس على العرش(١) من جديد ، وأقره على ذلك كثير من حكام الأطراف . بينما تفرق أمراء العراق ، وهاموا على وجوههم دون تنظيم .

وظن السلطان طغرل الثالث أنه استرد بذلك عرشه المغصوب ، وأنه سيوطد دعائم سلطنة السلاجقة فى العراق ، غير أنه فوجىء بتحصن ابن عمه قتلوغ اينانج فى مدينة الرى ، واعداده جيشا لقتاله ، فأخذ السلطان طغرل يعد العدة لقتال ابن عمه فى الرى .

والتقى طغرل فى تلك الأثناء بالخاتون أم قتلوغ اينانج فوجد عندها استعدادا للزواج ، فتزوجها ـ برغم أنه كان أصغر سنا من ابنها ـ لعله يتقى بذلك شر مكائدها ومؤامراتها ، غير أنه بادر بالتخلص منها بدس السم لها ، فقتلها قبل أن تدبر هى مؤامرة لقتله كما فعلت مع عمه قزل أرسلان للتخلص منه(٢) حتى يخلو الجو لابنها قتلوغ اينانج ، فيرتفع نجمه ، ويصل الى السلطة .

وقد زاد قتل طغرل للخاتون أم قتلوغ اينانج نار العداوة بين الطرفين اشتعالا ، فصمم كل منهما على القضاء على الآخر ، وتحالف قتلوغ اينانج مع علاء الدين تكش حاكم خوارزم ، وحرضه على القضاء على دولة السلاجقة وبسط سيطرته على ممتلكاتها فى ايران والعراق ، ووجد حاكم خوارزم فى طلب قتلوغ اينانج فرصة مواتية لغزو أراضى السلاجقة فى ايران والعراق ، والاستيلاء عليها فأمد قتلوغ اينانج بجيش استولى به على مدينة الرى وسيطر على قلعة طبرك ، فتوجه السلطان طغرل على رأس جيش كبير وحاصر مدينة الرى كما حاصر قلعة طبرك وانتصر على ابن عمه قتلوغ اينانج وعلى

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٤ وحواشيها ؛ ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٥٨٨هـ .
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٧ وحواشيها .

جيش خوارزم المناصر له ، وقتل قائد جيش خوارزم وأسر أمراءه ، واستولى على المدينـة والقلعـة ، وأخمد الفتنة فى هذه المنطقة ، وهرب قتلوغ اينانج ومن معه ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٤م) ثم رجع السلطان طغرل بعد أنتصاره الى عاصمة ملكة همذان(١) ٠

غير أن حاكم خوارزم أرسل جيشا آخـر عاود مهاجمـة مدينة الرى ، فأسرع السلطان طغرل لرده عنها ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة بالقرب من هذه المدينة فى الرابع من المحرم سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) انتهت بانتصار طغرل انتصارا باهرا ، وهزم جيش خوارزم هزيمة نكراء ، وقتل كثير من من قواده(٢) ٠

وأخذ طغرل يتفقد أجزاء دولته ، خشية أن يرسل حاكم خوارزم جيشا آخر لغزو البلاد ، فزار مدينة الرى ، واطمأن على خضوعها لنفوذه ، غير أن قتلوغ اينانج استمر فى اتصـاله بحـاكم خوارزم ، وتحريضـه على قتـال طغرل ، كما اشترك الخليفة العباسى فى تحريض حاكم خوارزم على القضاء على طغرل ، وأرسل اليه فى ذلك العام نفسه رسولا يشكو من طغرل ، ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه البلاد ، فسار من نيسابور الى الرى وتلقاه قتلوغ اينانج ومن معه قرب مدينة الرى مظهرين الطاعة والولاء(٣) ، وساروا معه ، فلمـا سمع السلطان طغرل بوصـول حاكم خوارزم أسرع للقـائه ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفـة فاصلة بالقرب من مدينـة الرى فى منتصف عـام ٥٩٠هـ (١١٩٣م) ، وحمـل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم ، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه(٢) ٠

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٦ ٠
(٢) نفس المرجع والصفحة وحواشيها ٠
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠هـ ٠
(٤) الراوندى : راحة الصدور ؛ ص ٣٧١ ويذكر ابن الأثير فى تاريخه فى حوادث سنـة ٥٩٠هـ أن الحرب كانت فى شهر ربيع الأول لا فى شهر جمادى الآخرة وما ذكر الراوندى هـو الصحيح لأنه كان معاصـرا للأحـداث ٠

وروى أن قتلوغ اينانج ابن عم طغرل هو الذى قام بقتله وقطع رأسه(١) ، وارسالها الى الخليفة العباسى ببغداد ، ايذانا بالقضاء على دولة سلاجقة العراق ٠

وسار تكش الخوارزمى بعد قتل طغرل الى همذان وفتحها بسهولة ، وجلس على عرش السلاجقة فيها(٢) فكان هذا اعلانا لانهيار دولة سلاجقة العراق على أيدى حكام خوارزم ، كما سقطت على أيديهم من قبل دولة سلاجقة خراسان ٠

ولم يلبث تكش أن استولى على جميع الأراضى التى كانت خاضعة لحكم سلاجقة العراق قبل سيطرتهم وأقر الخليفة العباسى الناصر لدين الله بسط نفوذ الدولة الخوارزمية على جميع الأراضى التى كانت تحت حكم السلاجقة ، وعين قتلوغ اينانج واليا على اصفهان ، وأقطع كثيرا من بلاد تلك الأقاليم لماليكه(٣) ٠

وهكذا سطقت دولة السلاجقة فى ايران والعراق بعد أن بسط السلاجقة سيطرتهم عليها أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان ٠

وكان لايران والعراق فى العصر السلجوقى آثار واضحة فى الثقافة الاسلامية وفى ازدهار الحضارة الاسلامية فى مختلف ألوان النشاط البشرى ٠

والحقيقة التى لاجدال فيها أن العصر السلجوقى كان مليئا بالأحداث ، وكانت له سمات واضحة وآثار باقية فى ايران والعراق وما جاورها من بلاد آسيا الصغرى وبلاد الشام مازالت ظاهرة الى يومنا هذا ٠

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣١٢ ؛ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ ـ ١٧٦ ٠
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧٥ ٠
(٣) نفس المرجع والصفحة ، وقد ورد ذكر استيلاء تكش على العراق فى الصفحات من ٣٧٥ الى ٤٠٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠هـ ٠

وقد تلاحقت الأحـداث السياسية فى العصر السلجوقى بصورة تصرف الدارس عن تسجيل غيرها من الأحداث ، حتى لاينقطع تسلسل هذه الأحداث· لذلك نرى من اللازم أن نختم دراستنا لايران والعراق فى العصر السلجوقى بتعريف موجز بألوان الحضارة المختلفـة فى ذلك العصر حتى تكتمل ملامح صورته ، وتظهر خصائصه التى تميزه عن غيره من العصور وبالله التوفيق ·

الفصل الحادي عشر

ألوان الحضارة في العصر السلجوقي

كان للحضارة الاسلامية فى العصر السلجوقى خصائص واضحة ، وألوان مميزة عرفت بها ، وكانت هذه الخصائص والألوان واضحة فى جميع مظاهر النشاط البشرى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، فظهرت فى ميادين الحياة المختلفة من سياسية وادارية واجتماعية ودينية وأدبية وفنية ولا شك فى أن التعريف بألوان الحضارة الاسلامية فى أيران والعراق فى العصر السلجوقى يجعل صورة هذا العصر واضحة فى التاريخ الاسلامى ، ويبين أهميته ومكانته بين عصور هذا التاريخ ، ويظهر ما ساهم به السلاجقة من نصيب فى بناء صرح الحضارة الاسلامية الراقية التى وصلت فى عصرهم الى درجة رفيعة من الرقى والازدهار ، وحققت تقدما كبيرا فى جميع الميادين ، فزهت ألوانها ، واعترف برقيها الأصدقاء والأعداء على السواء ٠

ونبدأ الآن التعريف بألوان الحضارة الاسلامية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ،فنعرف أولا بالجانب السياسى ٠

أولا : الجانب السياسى

يشمل الجانب السياسى نظم الحكم فى العصر السلجوقى فى تولى عرش السلطنة وحكم الأقاليم والوزارة والحجابة والكتابة ، وهى مناصب كبيرة فى الدولة ـ حينذاك ـ وقد كانت ذات تأثير فى توجيه سياسة الدولة ، وكانت السلطنة أعلى هذه المناصب ، ثم تتدرج المناصب الأخرى فى أهميتها وفقا لأحوال الدولة ، وشخصيات من يتولونها ٠

وكان لبداوة السلاجقة ، وغلبة النظام القبلى عليهم أثر واضح فى نظم الحكم التى طبقوها بعد قيام دولة لهم ، وفى بقاء هذه النظم مطبقة منذ قيام الدولة الى سقوطها ٠

١ ـ السلطنـة :

أما السلطنة فقـد كان يتولاها أقوى أفراد البيت السلجوقى شخصية ، وأكثرهم نفوذا ، فلم يكن هنـاك نظام معين لاعتلاء عرش السلطنة ، بل كان يعتليه أقواهم ، وقد وضح هذا الأمر منـذ ظهور قوة السلاجقة ، فكان طغرل الأول زعيمهم الذى قاد حروبهم ثم اعتلى العرش بينما كان أخـوه جغرى بك يكبـره سنا ، ويعمـل تحت لوائه ، ويعين حاكما من قبله على خراسان وما وراء النهر ٠

ولذلك كان النزاع حـول عرش السلطنـة يثور كلما توفى سلطان من سلاطين السلاجقة ، وكان الأمر ينتهى ـ دائمـا ـ بتحـكيم السيف ، فيظفر المنتصر بالعرش ، مهما كانت سنه ،وظل العرش منصبا تدور حوله المنازعات، طوال العصر السلجوقى ـ كما بينـا ـ فكان النزاع حـول العرش سببا من أسباب انقسام السلاجقة ، وتفكك دولتهم ، وانهيارها فى النهاية ٠

وكان السلطان السلجوقى يمارس سلطات واسعـة ؛ فيقود الجيش ـ ويدير المعـارك الحربية ، ويعين حـكام الأقاليم والوزراء والقواد والحجاب والكتبة ويعزلهم ، ويوجه سير الأمـور فى دار الخلافة العباسية ـ فى أكثـر الأحيـان ـ ويحصل منـه على لقب رفيع هـو : « ركن الدنيـا والدين » أو « معز الدنيا والدين » أو « مغيث الدنيا والدين » وكان هــذا اللقب يقترن ـ غالبا ـ بلقب آخـر هـو « يمين أمير المؤمنين » أو « برهان أمير المؤمنين » أو « قسيم أمير المؤمنين »(١) ٠

وكان سلاطين السلاجقـة يحرصـون على الظفر بموافقــة الخليفـة العباسى على توليهم عرش السلطنة ، حتى يكتسبوا الصفـة الشرعيـة أمام الناس ، وكان الخلفـاء ضعافا من الناحية الحربيـة ، مما جعلهم يمنحـون تأييـدهم لمن يغلب من أفراد البيت السلجوقى ، أو لمن يصـل منهم الى بغداد قبـل غيره ، ولذلك كان الخليفـة العباسى يتناقض أحيـانا فى قراراته ـ كما بينا ـ ٠

---

(١) ارجع الى راحة الصدور للراوندى فى بداية تعريفه بكل سلطان ٠

وقد ظلت موافقــة الخليفة العباسى أمــرا ضروريا بالنسبة للسلطان السلجوقى منذ بداية دولة السلاجقة الى نهايتها لمــا كان للخليفة من سلطان روحى على المسلمين من أهل السنــة الذين كان السلاجقــة منهم مما جعلهم يحرصون على كسب هذه الموافقة بمختلف الوسائل ، كما ظل منصب السلطان السلجوقى أرفع المناصب فى الدولة الى حين سقوطها ٠

٢ ــ حــكام الأقاليم :

قسم السلاجقــة دولتهم ــ منذ انشائهــا ــ الى أقاليم ، وعين السلطان طغرل الأول مؤسس دولة السلاجقــة على كل اقليــم حاكما من أفراد البيت السلجوقى ، وكان الحاكم يتخــذ لقب « شاه » أى « الملك » وهو لقب أقل شأنا من لقب « السلطان » لأن حكام الأقاليم كانوا يدينون بالطاعة والولاء للسلطان الذى يملك حق تعيينهم وعزلهم ، وبخاصــة حين كانت دولة السلاجقة قوية متماسكة ٠

وقــد عين حكام للأقاليم من غير أفراد البيت السلجوقى حين اتسعت الدولة ، وصارت مترامية الأطراف ، وظلت سلطاتهم ــ كما حــددها طغرل الأول ــ فكان حاكم الاقليم يستقل بادارة اقليمه وتصريف أموره الداخلية ، كما كان له الحق فى فتح ما يستطيع الى فتحه سبيلا من المنــاطق المجــاورة له ، وضم ما يفتحه الى حوزته ٠

وكان لــكل حاكم من حكام الأقاليم جيشه الخــاص به ، ووزيره الذى يساعده فى تصريف أمور الاقليم ومعه عدد من الموظفين على اختلاف وظائفهم ودرجاتهم للمعاونة فى تصريف الأمور وتنفيذ الأوامر ٠

وكانت سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم فى عصــور قوة الدولة ، فلما ضعفت دولة السلاجقة وتجزأت ، فقد السلاطين هذه السيطرة ، فصــار حكام الأقاليم مستقلين تماما فى ادارة الأقاليم وتصريف الأمــور ــ دون رجوع الى السلطان ــ ووصــل بعض عبيد السلاطين الى مناصب حكام الأقاليم ، وصــاروا يتحكمون فى السلاطين أنفسهم وفى اختيارهم وعزلهم ــ كما رأينا ــ ٠

ومهما يكن من شىء فان حاكم الاقليم فى العصــر السلجوقى كان فى

منصب رفيع يلى منصب السلطان فى رفعته ، وكثيرا ما كان حكام الأقاليم من أفراد البيت السلجوقى يتطلعون الى منصب السلطان ـ كما اتضح فيما سبق ٠

٣ ـ الوزارة :

كان منصب الوزير من أهم المناصب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى(١) ، لأن الوزير كان يرأس جميع رجال الديوان ، ويشرف على جميع أعمال الدولة ويرأس جميع موظفيها ، مما جعل الوزر يمسك بزمام الأمور فى الدولة ، ويستطيع توجيه سياستها فى الداخل والخارج ، اذا كان الوزر قويا ، نافذ الكلمة فى الدولة ٠

كما كانت سلطة الوزير تمتد الى الولايات المختلفة عن طريق السلطان ، لأنه ينفذ أوامره ، التى قد يكون هو نفسه سببا فى اصدارها ، بواسطة نصحه للسلطان أو ابداء رأيه فى الأمور ، اذا استشير فيها ، وكثيرا ما كان الوزير يقوم باسناد حكم الولايات الى الأمراء وقواد الجيش(٢) ، وبخاصة فى أوقات قوة الوزير ، ونفاذ كلمته فى جميع أقاليم الدولة ٠

وكان الوزير فى العصر السلجوقى يسمى « السيد الأعظم »(٣) وكان منصبه يساوى منصب رئيس الوزراء فى العصور الحديثة وكان يرأس جميع الدواوين التى تقابل الوزارات فى نظم الحكم الحديثة ، وكان أهمها حينذاك ديوان الاستيفاء ، وديوان الأشراف ، وديوان الأوقاف ، وديوان الانشاء ، وديوان عرض الجيش ؛ وقد ألغى السلاجقة ديوان البريد برغم ما كان له من أهمية(٤) ٠

---

(١) كان منصب الوزير من أهم المناصب فى الدولة العباسية ، وقد اقتبس العباسيون هذا النظام عن الفرس الذين ساعدوا منذ البداية فى قيام الدولة العباسية ، وظهر نفوذهم فيها منذ بدايتها الى عصر الرشيد ، ثم ضعف بعد نكبة البرامكة فى عام ١٨٧هـ ثم عاود الظهور من جديد فى عصر المأمون ،وكان أكثر الوزراء حينذاك من الفرس ٠

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ ـ ١٣٠ ٠

(٣) كان لقب الوزير بالفارسية « خواجه بزرگ » أى « السيد الأعظم » ٠

(٤) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

وكان يشرف على كل ديوان من هـذه الدواوين رئيس يصرف أموره ، وكان رئيس الديوان يقـابل الوزير فى نظم الحكم الحديثـة ، وكان رئيس الديوان يخضع لاشراف الوزير ، مما جعـل منصب وزير الدولة فى العصر السلجوقى منصبا يتنافس عليه كبار رجـال الدولة ـ من غير أفراد البيت السلجوقى ـ لأهميتـه واتساع سلطـاته ، وكونه فى الواقع المنصب التالى لمنصب السلطان فى الدولة السلجوقية كلهـا بمختلف أقاليمها ، فكثر حوله التنافس ، وأدى التنافس الى تدبير المؤامرات والدسائس ضد الوزير بواسطة أعدائه الذين يتطلعون الى تولى منصب الوزارة بدله(١) ٠

وقـد بلغ بعض الوزراء درجة من القوى والنفوذ ، مكنتهم من التدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى دولة السلاجقة ، دون أن يخشوا العزل من جانب السلطان ، لرجحان كفته حينذاك على كفة السلطان نفسه ٠

وكثيرا ما أدى التنافس على منصب الوزارة الى التفكير فى التخلص من الجالس على كرسيهـا بالقتل ، مما جعل حيـاة كثير من وزراء العصر السلجوقى تنتهى بالقتل ٠

ويعد نظـام الملك أشهر وزراء العصر السلجوقى على الاطـلاق ، فقد بلغت سلطة الوزير فى مدة توليه الوزارة أعلى درجاتها ، فكان نافذ الكلمة فى كل الأمـور ، وكان يسيطر على الجيش ، وعلى حكام الولايات ، وقـد هدد السلطان نفسه بالعزل حين فكر السلطان فى اقالته من منصب الوزارة ـ كما رأينا ـ مما جعل منصب الوزارة هدفا يحاول رؤساء الدواويين وكبار رجال الدولة بلوغه والظفر به ٠

وقـد نجح فى الظفر بهذا المنصب كثير من أبناء نظام الملك وأحفاده ، فساهموا بذلك فى توجيـه سياسة السلاجقة فى مراحل مختلفة من تاريخهم ـ كما رأينا ـ ٠

---

(١) ازداد نفـوذ الوزراء فى العصر العباسى الثانى حين ضعفت الخـلافة العباسية ، فاشتـد التنافس على الوزراء ، وتفشى الدس ، وانتشرت الرشوة ، ابتغـاء الوصـول الى الوزارة ، ارجع فى هذا الى كتاب الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج٣ ، ص٢٥٥ ٠

وقد بين نظام الملك فى كتـابه « سياستنامه » أى « كتـاب السياسة » أفضل النظم لحكم الولايات التى تتكون منهـا الدولة ، وفى تصريف الأمور المختلفة بطريقـة ترضى الحاكم والمحكوم على السـواء ، فسجل فى كتـابه المذكور أصـول المنهج الصحيح للحـكم النـاجح ، الذى تستقر به البلاد ، ويرضى به العباد ٠

وقـد اشتد التنافس على منصب الوزارة طوال العصر السلجوقى فى ايران والعراق ؛ وبخاصة بعد موت السلطان ملكشاه ، وبلغ التنافس على هـــذا المنصب حـــدا جعـل الطامعين فيـه ، يثير الفتن بين أفراد البيت السلجوقى ، ويشعلون نيران الحروب الداخلية بينهم ، مما أدى الى انقسام دولة السلاجقة ، وضياع قوتها ، وذهاب ريحها ٠

ومهمـا يكن من شىء ، فان منصب الوزارة فى ايران والعـراق فى العصر السلجوقى كان لأهميته ذا بريق خاص يخلب أنظار كبار رجال الدولة فى هذا العصر من بدايته الى نهايته ٠

٤ ــ الحجـابة :

كان منصب الحجابة من المناصب المهمة فى ايران والعراق فى العصـر السلجوقى ، لأن الحاجب كان موكلا بتنظيم الاتصال بين الناس والسلطان(١) ، مما جعل وظيفته حساسة ، وجعل منصبـه من المناصب الرفيعة فى الدولة ــ بعد منصب الوزير ــ لشدة صلته بالسلطان وقربه منه ، فكان فى الواقع من أهم رجال البلاط ٠

وكان على رأس الحجاب فى البـلاد موظف رفيع الدرجة ، هو الحاجب الأعظم(٢) ، وهـو كبيرا الحجاب الذى يشرف على سير الأمور فى البلاد ، ويتصل السلطان به فى أمور البـلاط المختلفة ، ويصل نفـوذه أحيـانا الى درجة التدخل فى مختلف أمـور الدولة ، وبخاصة حين ضعف السلاطين أو مرضهم أو انشغالهم بالحروب أو بمصالحهم الخاصة ٠

---

(١) ابن خلدون : المقـدمة ، ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ ٠
(٢) كان « الحاجب الأعظم » يلقب بالفارسية « حاجب بزرگ » ٠

وكثيرا ما كان الحجـاب يتدخلون فى تعيين حـكام الأقاليم ، فكانوا ـ أحيانا ـ يستبدون بهـــذه الأمور دون الوزراء ، وكان أصحاب الدواوين يرجعـون اليهم فى كثير من الأمور ، ما جعـل الحجاب فى كثير من الأوقات هـــدفا لدسائس الوزراء ، اذا زاد نفـــوذهم ، وعظم استبدادهم بأمـور الدولة(١) ٠

والواقع أن وظيفة الحاجب كانت احدى الوظائف الكبـرى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى مما جعـل منصب الحجابة من المناصب التى يكثر التنافس عليها بين كبار رجال الدولة ، وظل هذا المنصب محتفظا بأهميته من بداية العصر السلجوقى الى نهايته ٠

٥ ـ الكتـــابة :

كان لبداوة السلاجقة أثر واضح فى كثـرة عدد الموظفين فى الدواوين المختلفة ، وفى ظهور أهمية طبقـة الموظفين وما يتمتع به أفراد هذه الطبقة من مكانة ونفوذ فى الدولة كل حسب أهمية وظيفته فى الدولة ٠

وكانت الدواوين ـ حينذاك ـ تقابل الوزارات فى العصور الحديثة ـ كما ذكرنا ـ وقد أدى تعـدد هـــذه الدواوين الى تعيين طائفـة من كبـار الموظفين ، لمعاونة رؤساء الدواوين فى الاشـراف على تصريف الأمور فى كافة ميادين الحيـاة المختلفة فى الدولة ، وكان كل واحد من هؤلاء الموظفين الكبار يطلق عليه لقب « الكاتب »(٢) ، مما جعل منصب الكتابة من المناصب المهمة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ٠

وكان من أشـهر الكتـاب فى الدولة : كاتب الرسائل وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ٠

أما كاتب الرسائل فكانت مهمته تحرير الرسائل السياسية ، والأوامر السلطانية التى يريدها السلطان ، ثم اعتمادها منه ، كما كان يقوم بمراجعة

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج٣ ، ص ٢٦٧ ٠

(٢) تقابل وظيفـة الكاتب فى العصـر السلجوقى وظيفة « رئيس الادارة » أو مدير الادارة فى نظم الحكم الحديثة ٠

الرسائل الرسمية ، ووضعها فى الصيغة النهائية ثم ختمها بخاتم السلطان ، وكان من مهمته ـ كـذلك ـ الجلوس مع السلطان فى مجلس القضـاء ، كما كان يتولى مكاتبة الحكام والأمراء ٠

أما كاتب الخراج وكاتب الجند فكان كل منهما يحـرر ما يتعلق بمهام وظيفته ، فيشـرف كاتب الخراج على كل ما يتعلق بالخراج وتنظيم الجانب الاقتصادى فى الدولة ، بينما يشرف كاتب الجنـد على أمور الجند المختلفة بما يكفل الراحة والاستقرار وانضباط الأمور بين الجند ٠

وهكـــذا كانت وظيفـة الكاتب بصفة عامة ، ووظيفـة كاتب الرسائل بصفة خاصة من الوظائف الكبيرة المهمة فى الدولة ٠

وقـد حدد ابن خلدون الصـفات التى ينبغى توفرها فى كاتب الرسائل فى قوله : « واعلم أن صاحب هذه الخطـة لابد من أن يتميز من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فانه معرض للنظر فى أمور العـلم لمـا يعرض فى مجلس الملوك من القيـام على الآداب ، والتخلق بالفضائل ، مع مايضطر اليه فى الترسيل ، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها(١) ٠

وتعـد رسائل من أهم وثائق العصر السلجوقى المغيرة فى دراسة هذا العصر دراسة صحيحة موثقة ، والالمام بمظاهر الحضارة المختلفة فيه ٠

ومن أشهر كتـاب الرسائل فى ايران والعراق فى العصـر السلجوقى منتجب الدين الجوينى كاتب الرسائل فى عصر السلطان سنجر السلجوقى ، فقد حفظ هذا الكاتب كثيرا من الرسائل والأوامر السلطانية فى ذلك العصر فى كتـابه المعروف « عتبة الكتبـة » يستطيع الدارس للعصـر السلجوقى بواسطتها أن يقف على كثير من الأمور التى كانت تجرى فى دولة السلاجقة ، وأن يعرف شيئا عن بعض وزرائهم وعلمائهم وكتابهم(٢) ٠

---

(١) ابن خلدون : المقـدمة ، ص ٢١٥ ٠

(٢) ارجع الى عتبة الكتبة لمنتجب الدين الجوينى ، طبع طهران ، ١٣٢٩ هـ٠ شمسية ٠

والشىء الذى لاجدال فيه أن منصب الكتابة كان من المناصب المرموقة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، لما كان يتمتع به الكاتب من مكانة لقربه من السلطان ، واتصاله المباشر بأمور الدولة المختلفة ، مما جعل الكتابة من المناصب التى يكثر التنافس عليها ٠

* * *

ثانيا : الجانب الادارى

١ ـ حكم الأقاليم :

كانت دولة السلاجقة فى ايران والعراق تتكون من عدد من الأقاليم ، وكانت ادارة هذه الأقاليم متأثرة تأثرا واضحا بالنظم القبلية التى تجعل الحاكم يستأثر بادارة الاقليم الذى عين حاكما عليه ، دون تدخل من جانب السلطان فى تنظيم الاقليم وتصريف أموره الداخلية ، فحاكم كل اقليم كان مستقلا استقلالا تاما فى ادارة أمور اقليمه ، مع اعلانه الطاعة والولاء للسلطان ، وقد ظل حكام الأقاليم مستقلين بادارة أمور أقاليمهم فى أوقات قوة دولة السلاجقة ، وفى أوقات ضعفها على السواء ٠

وكانت دولة السلاجقة ـ وهى فى أوج قوتها ـ تضم أقاليم عديدة ، أشهرها خراسان وما وراء النهر وبست وهراة وسجستان وكرمان وهمذان ، وأبهر وزنجان وآذربيجان ، والرى واصفهان وفارس ، وبلاد الشام ، وآسيا الصغرى ٠

وكان أفراد البيت السلجوقى يحاولون الاستئثار بحكم الأقاليم ولكن هذا لم يمنع من تعيين حكام للأقاليم من غير أفراد البيت السلجوقى من كبار رجال الدولة ومن قواد الجيش ٠

وكان حاكم الاقليم يستعين بعدد من الموظفين فى ادارة أمور اقليمه ، وكان يتخذ ـ أحيانا ـ وزيرا له يشرف على هذه الادارة ، كما كان يتخذ الجند ، ويستعين بالقبائل فى تكوين جيش له ، ليحمى به حدود اقليمه ، ويرد به كيد أعدائه ، ويوسع به سيطرته على الأراضى المجاورة لاقليمه اذا وجد الى ذلك سبيلا ، فكان لكل حاكم جيش تابع له ، مختص به ٠

ولما ضعفت الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه ، قبل ولاء حكام الأقاليم للسلطان السلجوقى . وانعدام الترابط والانسجام بين أجزاء الدولة السلجوقية ، فلم يعد هناك نظام معين لحكم الاقاليم ، بل صار كل حاكم يصرف أمور اقليمه حسبما يتراءى له ..

وظهرت أهمية المدن والثغور حين انعدام الترابط بين الأقاليم ، وازدادت هذه الأهمية بمرور الزمن ، حتى صار حكام المدن والثغور كحكام الأقاليم ، يصرف كل منهم أمور مدينته دون الرجوع الى سلطة ادارية أعلى منه ، وسجلت الكتب التى روت تاريخ السلاجقة أخبار بعض المدن وبخاصة ما كان منها ثغورا ، كما سجلت أعمال حكامها مثل مدينة مرو ومدينة الرى ومدينة تبريز ومدينة مراغه ومدينة گنجه .

وكانت الثغور تؤدى واجبا دينيا مقدسا ، هو التصدى لأعداء الاسلام والمسلمين ، وصدهم عن البلاد الاسلامية مما أضفى عليها وعلى حكامها أهمية كبيرة ، وجعل ولاة الثغور موضع تقدير المسلمين ، ومدح الشعراء والكتاب(١) ، لسهرهم على حراسة بلاد المسلمين ، وحسن بلائهم فى قتال أعداء الدين .

وهكذا انعدم الترابط الادارى بين أجزاء دولة السلاجقة بعد ضعف سلاطينها ، وانتشار الفتن والحروب الداخلية فى أرجائها ، فاستقل حاكم كل جزء بتصريف الأمور فى منطقته كل حسب قوته ونفوذه والظروف المحيطة بمنطقته .

* * *

٢ ـ الدواوين :

كانت الحاجة الى الدواوين ماسة فى العصر السلجوقى ، لأن دولة السلاجقة كانت تضم ولايات كثيرة ، مما جعل كل ولاية فى حاجة الى موظفين وديوان يشرف [illegible]دارة الأمور فيها .

---

(١) ارجع الى كتاب نظامى الگنجوى للمؤلف ص٥٨ وما بعدها لمعرفة معلومات أكثر عن هذا الموضوع .

وكان سلطان السلاجقة يشرف على ادارت الولايات جميعها فى أوقات قوة الدولة وتماسكها ، بمساعدة وزيره ورؤساء الدواوين التابعة له ٠

وقد أدت كثـرة الدواوين(١) الى استعمال كثير من الموظفين ، غير أن الادارة فى دولة السلاجقة لم تعين الحـدود الفاصلة بين هـذه الدواوين ، وتحدد عمل كل منها بدقة ، نظرا لبداوة السلاجقة ، وتأثير النظـام القبلى فيهم ، مما جعلهم لا يلتزمون بتطبيق نظم ادارية معينة ٠

وكان ديوان البريد من الدواوين ذات الأهميـة فى الدولة العباسية ، غير أن السلاجقة ألغوا هـذا الديوان ، ولم يفطنوا الى أهميتـه ، لأن فى استطاعة رئيس هذا الديوان أن يراقب العمـال ، ويتجسس على الأعـداء ، فكان صاحب البريد فى الدولة العباسية عينا للخليفة ينقل أوامره الى ولاته وعماله ، كما ينقل أخبار هؤلاء اليه(٢) ٠

وكان وجود الدواوين المختلفـة نظاما اداريا متبعا قبـل السلاجقة ، وكان لازما لتصريف أمور الدولة المختلفة ، كما كان لازما لتصريف الأمور فى كل اقليم من أقاليمها ، غاية الأمـر أن بداوة السلاجقة جعلتهم محتاجين الى عدد كبير من الموظفين ، مما جعـل طبقتهم مميزة ، وجعـل العمـل فى الدواوين من الأعمال التى يتنافس الناس على الظفر بها ٠

٣ ـ الشـرطة :

كان الشرطة عصب الجهـاز الادارى فى ايران والعراق فى العصـر السلجوقى ، وكان رجال الشرطة يحافظون على النظـام ، ويعملون على استتباب الأمن فى ربوع دولة السلاجقة المترامية الأطراف بصـورة عامة ، وفى كل اقليم ومدينة كبيرة فى الدولة بصورة خاصة ٠

وكان لكل أمير من أمـراء السلاجقة حرس وأتبـاع ، يرأسهم شخص عظيم الرتبة يسمى « أميـر الحرس » ، كانت وظيفته الاشـراف على أفراد

---

(١) كان الديوان أشبه بالوزارة فى العصور الحديثة ـ كما ذكرنا ـ وكان رئيسه أشبـه بالوزير كذلك ، وكانت طبقة الموظفين من الطبقات المميزة ذات النفوذ فى سائر أقاليم الدولة ٠

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج٣ ، ٢٧٢ ٠

الحرس ، لضمان حسن أدائهم لوظيفتهم ، ونجاحهم فى المحافظة على النظام والاستقرار ٠

وكان حكم المـدن الكبـرى المهمـة فى الدولة ، يوكل ــ من الناحيـة الادارية ــ الى شخص يسمى « صاحب الشـرطة » كان يشـرف على سير الأمور فى المدينة ، ويحافظ على النظـام فيهـا ، ويقضى على المنحـرفين والعابثين بالأمن والنظام ، فكانت وظيفتـه ــ بذلك ٠ من الوظائف الادارية ذات الأهمية فى الدولة السلجوقية ، مما جعلهـا تنفق على رجـال الشرطة بسخاء ، فتمنحهم أجورا كبيرة ، تكفل لهم حياة كريمة مريحة ٠

وكان العبـاسيون كذلك ــ يهتمـون بالشـرطة ، ويختـارون صاحب الشرطة من علية القوم ، ومن أهـل العصبية والقوة(١) وكان رجال الشرطة يتولون تنفيـذ أحكام الجرائم فى حالة استبرائها ، ثم يتولون تنفيذ الحدود بعد استيفائها ، مما جعل للشرطة أهمية كبيرة فى التنظيم الادارى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ٠

* * *

ثالثا : الجـانب الروحى

كان للجـانب الروحى اعتبـار كبير فى ايران والعراق فى العصـر السلجوقى لأن السلاجقة كانوا مسلمين متمسكين بالمذهب السنى ، حريصين على كسب تأييد الخليفة العباسى لهم ولحكمهم ، ليكون هـذا الحكم شرعيا فى نظر النـاس ، ليلتفوا حولهم ، ويناصروهم ، وكان الخليفـة يتمتع بقوة روحيـة كبيرة ، باعتبـاره امام المسلمين فى جميع الأقاليم التى يكثر فيهـا أتباع المذهب السنى ٠

وقد عاصر حكم السلاجقة ــ فى ايران والعراق وأجزاء من بلاد الشام وآسيا الصغرى ــ حكم الفاطميين الشيعة فى مصر ، وفى أجزاء من شمالى افريقية وبلاد الشام ، وشهد نفوذ الشيعة فى أجزاء من ايران ــ ممثلين فى الاسماعيلية بزعامة الحسن بن الصباح ، وشـهد كـذلك سيطرة الصليبيين

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج٣ ، ص ٢٧٨ ٠

على أجزاء من آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ، واستيلاءهم على بيت المقـــدس ٠

وشهد حكم السلاجقة ـ قبل نهايته ـ سقوط الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، واضعاف نفوذ الاسماعيلية فى ايران ، وانحسار النفـوذ الصليبى عن بيت المقـدس وكثير من الأجـزاء التى سبقت لهم السيطرة عليهـا كما ذكـرنا ٠

وهكذا كان للجـانب الروحى بأنواعه المختلفـة أثر واضح فى توجيه سير الأحداث فى العصر السلجوقى ، وفى ألوان الحضارة فى هذا العصر ، مما جعل الفرق الدينية كثيرة فيه ، وأدى الى كثرة المنازعات بين هذه الفرق، ووصلت المنازعات ـ أحيـانا ـ الى درجـة الاقتتال بين الفرق فى حـروب طاحنة متكررة ٠

كان لهذه الأحوال أثر فى حياة الناس الدينية ، فشاع بينهم التعصب ، وانتشـرت بينهم الخرافات ، ومال فريق منهم الى التصوف ، مؤثرا العزلة والانزواء ، بعيدا عن الفتن والحروب ٠

وهكذا كانت المعسكرات الدينيـة المتباينة سببا فى جعل حيـاة الناس النفسية قلقة مملوءة بالخوف والاضطراب وبلبلة الأفكار ، مما أشاع النفاق، نتيجة لضعف الخلافة السنية والشيعية على السواء ، وعجزها عن الاشتراك فى توجيه سير الأحداث من دولهما ، واقتصار نفوذهما على الجانب الروحى فى حياة الناس ٠

أما المعسـكر الصليبى فكان مناهضـا للمعسكرين السنى والشيعى ، فكان همه السيطرة على بلاد المسلمين أيا كان مذهب الحكام فيها ٠

كما كان المعسـكر الاسماعيلى الشيعى فى ايران مصـدر قلق وخوف لأهل السنة ، لأن الاسماعيلية كانوا يبيحون دماء مخالفيهم من أهل السنة ، ويرسلون الفدائيين لاغتيال كبار رجالهم من الوزراء والسلاطين والخلفاء ، مما جعل حياة الناس ـ فى دولة السلاجقة ـ تضطرب اضطرابا شديدا(١) ٠

---

(١) ارجع الى نظامى الكنجـوى للمؤلف ، ص ٥٢ ـ ٦٢ للحصـــول على معلومات أكثر تفصيلا فى هذا الموضوع ٠

رواج التصــوف :

وقد ساعد ماراج حيــاة النــاس من قلق واضطراب على رواج سوق التصوف فى ايران والعراق فى العصــر السلجوقى ، وكان ذلك نتيجة لمــا ساد الحياة السياسيــة من اضطراب ومنازعات وحــروب ، وما شاع من تعصب وخرافات ، وما انتشــر من نزاع بين الفرق الاسلامية المختلفة ، ومن عداوة أهل العــلم بعضهم للبعض الآخر ، ومن غلبة الجفــاف على المباحث العلمية ، ومن استخدام العــلم والفلسفة أداة للمجادلات المذهبيــة ، وجعل المباحث العلمية محصورة داخل نطاق الاحساسات المذهبية(١) ٠

وهكذا انحرف العــلم عن هدفه الحقيقى الذى هــو البحث عن حقائق الأشياء ، وتقرير هذه الحقــائق ، فشاع ضيق النظر والتعصب ، واتخــذت الحكمة والفلسفة خادمتين لمجادلات أصحاب المذاهب ومناظراتهم ٠

وقد وضحت هــذه الظاهرة فى القرن الخامس الهجرى ، حين كثرت الفرق الاسلامية ، وتعــددت الحروب بين أهل السنة والشيعة ، وحاول كل من الطرفين ترويج مذهبــه والانتصار على مخالفيــه ، كما حاول كل فريق أن يسفك دماء أفراد الفريق المعــادى له ، وكان يعــد هذا العمل من الأعمال التى يرضى الله عنها ، ويثيب عليها ٠

وقــد ثار الغزالى(٢) فى أواخر ذلك القــرن فى وجه الفلاسفة وأخذ يسفه أحلامهم ، ويكفرهم فى كتابه « تهافت الفلاسفة »(٣) كما ذكر القفطى أن معاصرى عمر الخيام تناولوه بالقدح فى دينه ، حتى ترك نيسابور وذهب الى الحج ، وكان بعد رجوعه من مــكة يخفى أســراره ، ويتظاهر برعاية ظواهر الشرع(٤) ٠

وقد اشتد النزاع المذهبى بين الشيعة والسنة(٥) والمعتزلة والأشاعرة ، كما ظهر نزاع بين مذاهب أهــل السنة ، وبخاصة بين الشافعية والحنفية ،

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٦٤ ٠
(٢) الغزالى بتشديد الزاى هى النسبة الصحيحة الى غزال من الغزل ٠
(٣) الغزالى : تهافت الفلاسفة ، ص ٣ ــ ٤ ٠
(٤) القفطى : تاريخ الحكماء ، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ ٠
(٥) أشار ابن الأثير فى تاريخه فى حوادث سنة ٤٠٨هـ الى النزاع بين أهل =

وقد تكرر هـذا النزاع بين الحين والحين طوال القرن الخـامس الهجرى ، وكان النزاع يتطـور الى درجة اشتعال نيران الحـرب بين الفرق المختلفـة أحيانا(١) ٠

وهكذا استمر النزاع بين الفرق الاسلامية ، وأصحاب المذاهب المختلفة وساعد انقسـام السلاجقـة ، وتجزؤ دولتهم فى القرن السادس الهجـرى ، واشتعال الحـروب بين أفراد البيت السلجوقى ، على بلبلة الأفكار وتفرق المسلمين ، مما مهـد السبيل أمام الصوفية لنشـر تعاليمهم بين الناس(٢) الذين مـال كثير منهـم الى العزلة ، والتقرب الى اللــه عن طريق الزهـد والتقشف ٠

وكانت الظروف تساعد على رواج سوق التصوف ، فقد كان الصوفية موضع احتـرام الناس والأمـراء والسلاطين ، فانتشر التصـوف ، وكثر المتمسحون به ، وكان السلاجقة لبداوتهم يعجبون بالمظاهر البراقة ، فراقهم مظهر طوائف الصوفيـة ، وأعجبوا بتصـرفات شيوخهـا ، فزاد احترامهم لهم(٣) ، وكان السبب فى ذلك أن الصوفية يظهرون الزهد فى الدنيا وحطامها الزائل ، ويبتعدون عن مصاحبة الملوك والأمراء ، وأصحاب الجاه والسلطان ، ولا يتدخلون فى النزاع بين الفرق المختلفة ، ويحرصون على اتباع سياسة السلام مع الجميع(٤) ٠

= السنة وأهل محلة الكرخ الشيعة ، ثم تحدث فى حوادث عام ٤٣٣هـ عن النزاع بين أهـــل السنة والشيعة ، وتخريب أهـل السنة منازل الشيعة وأبنيتهم ، حتى قبور كاظمين ، وذكر مثـل هـذا النزاع فى حوادث عـام ٤٤٤هـ وقال انه امتـد الى عام ٤٤٥هـ ٠ ممـا يدل على استمرار النزاع بين الفرق الاسلامية والمذاهب المختلفة ٠

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٦٨ ٠

(٢) ارجع الى كتاب نظامى الكنجـوى للمؤلف ، ص ٥٧ ـ ٧١ ، للالمـام بتفصيلات أكثر عن هذا الموضوع ٠

(٣) ارجع الى راحة الصــدور للراوندى ، ص ٩٨ ـ ٩٩ فقـد ذكر احترام طغرل الأول لبابا طاهر العريان أحد مشايخ الصوفية وشعرائهم فى فى همذان حين دخول طغرل هذه المدينة ٠ واستماعه الى نصائحه ٠

(٤) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥ ٠

وقــد اشتد النزاع بين هذه الفرق فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشــر الميــلادى) ، وازدادت الخلافة العباسيــة ضعفا ، وكثــرت غارات الصليبيين على بلاد المسلمين ، وزاد الانقســام فى دولة السلاجقة فاضطربت الأحــوال فى العالم الاســلامى ، وساعد اضطراب الأحــوال على انتشــار التصــوف ، وازدياد سوقه رواجــا ، اذ خيــل للنــاس حينذاك أن تعاليم الصوفية فيها تهذيب للنفوس ، وراحــة للقلوب من التــكالب على ماديات الدنيا الفانية ، فى وقت قل فيــه التمسك بالمثل الأخلاقية الرفيعــة ، وشاع فيه التعصب وضيق النظر ، كما شاع فيه الغلو فى طرح الخلافات المذهبية على بساط البحث والمجادلة العنيفة ٠

وهكــذا أدى اضطراب الأحوال فى البــلاد الاسلامية الى قلق الناس وخوفهم ، وتزلزل الروح المعنوية بينهم ، مما أدى الى ضعف الأخــلاق ، والتمسك بالفضائل بصــورة واضحة ملموسة تحدث عنها الشعراء والكتاب فى القــرن السادس الهجرى بكثرة ، بحيث يستطيع الدارس أن يلمس كثرة الحديث عن انعــدام المروءة ، وضياع الوفاء ، وابدال الأمانة بالخيــانة ، والمحبة بالعداوة ، والانسانية بالجفاء ، كما كثر الحديث عن تحيز العلماء ، وابتلاء الفضلاء ، وذم الاختلاط ،والدعوة الى الوحدة والانزواء(١) ٠

وقــد أدى فساد الأخــلاق الى انشغال الناس بأمــورهم الشخصية ، والترويج لبضاعتهم ، عن طريق اظهار العلم والفضل ، والشــكوى من بقاء قدر الواحــد منهم مجهــولا(٢) ، بينما علا شأن من هو أقــل علما وشأنا ، فانتشر الهجاء والقدح الى جانب مــدح النفس ، واختفت المبادىء القويمة ، والمثل الرفيعة فى أكثر الأحيان ٠

؛ أوجدت روح العصر شيئا من السأم ، فصار الناس يميلون الى جو ىيه ـــء وراحة بال ، وخيــل للناس أن الجنوح الى التصوف يهيىء لهمالجو الذى ينشدونه ، لأن شيوخ الصوفية كانوا يبدون فى صــورة دعاة للاصلاح

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٨٧ ٠
(٢) نظامى گنجوى : گنجنهء گنجوى ، ص ١١٧٤ ـ ١٧٩ ؛ قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٨٩ ٠

والصفاء ، والعدل والوفاء ، والبعــد عن التعصب والبغضاء ، فخيل للناس أنهم عامل ملطف فى جــو ملغهم بالأحداث المختلفة ، والتيارات المتعارضة ، فهرع كثير من الناس الى حظيرة التصــوف هربا من عواصف الأحــداث ، وتقلب الأحوال ، وعــدم الاستقرار وكثرت مجالس الصوفية ، وأقبل الناس عليها ليقضوا سويعات فى صحبتهم بقلب فارغ(١) ٠

وهكــذا ساعد تقلب الحيــاة السياسية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى الى رواج سوق الصوفية ، والى اضعاف عزائم المسلمين ونشر التواكل بينهم ، فمال كثيــر منهم الى الزهد والميــل الى الخلوة والاعتكاف والانقطاع عن الحيــاة ، بحجة التفرغ لعبــادة الله ، وازدادت هذه الرغبة بين المسلمين فى أواخــر العصــر السلجوقى ، وظلت فى ازدياد مستمر فى العصور التالية لهذا العصر ، فدخــل المسلمون مرحلة سبات عميق ، ظلوا غرقى فيــه ، الى أن أفاقوا منه فى العصــر الحديث ، فأخذوا يعملون على استعادة قوتهم وعزتهم وأمجادهم ، ليلحقوا بركب الدول المتقدمة ، ولتصبح حضارتهم ــ كما كانت ــ حضــارة انســانية راقيــة كريمة فريدة فى تاريخ البشرية ٠

* * *

رابعا : الحيــاة الاجتماعيــة

كان السلاجقة ــ كما ذكرنا ــ قوما تغلب عليهم البداوة ، فظهر أثرها فى التنظيم الاجتماعى فى ايران والعراق فى عصرهم ، ووضح هذا الأثر فى طبقات المجتمع المختلفــة ، وفى مظاهر الحيــاة الاجتماعيــة بألوانهــا المتنوعــة ٠

ـ طبقــات المجتمع :

أما طبقات الشعب فكان أهمهــا طبقة السلاطين وحكام الأقاليم ثم طبقة القواد وأمراء الجند ثم طبقــة الموظفين ؛ وكان السلطان يرأس أفراد هــذه الطبقات ، كما كان ــ دائما ــ من أفراد البيت السلجوقى ٠

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٥٠١ ٠

وكان السلاجقة قبل قيام دولتهم يغلب عليهم الميل الى التنقل والارتحال ، فلم يكونوا يألفون حياة المدن(١) ، فلما قامت دولتهم ، غيروا أسلوب حياتهم ، فسكنوا المدن وبنوا الــدور والقصور ، وعاشوا حيــاة اجتماعيــة تختلف مظاهرها كثيرا عن مظاهر حياتهم البدوية قبل قيام الدولة السلجوقية ٠

وقلد حــكام الأقاليم السلاطين ، كمــا قلدهم القــواد وأمــراء الجند والوزراء والحجاب وكبــار الموظفين ، فأخذوا يعيشون عيشة مترفة ناعمة ، تتفق مع ما تحقق لهم من جاه وثراء ٠

وكان كثير من ســلاطين السلاجقــة غيــر مثقفين(٢) ثقــافة تتفق مع ازدهار الثقافة الاسلامية ورقيها فى ذلك العصر ، فوجدوا أنفسهم فى حاجة ماسة الى كثير من الموظفين للاستعانة بهم فى مختلف الأمور(٣) ، فصارت طبقة الموظفين من أظهر طبقات المجتمع وأهمها ، وكان نفوذ أفرادها يختلف باختــلاف مناصبهم ومدى اتصــالهم بالسلطان السلجوقى ، فكان الوزراء والحجــاب والكتــاب أكثر الموظفين نفــوذا وظهروا فى المجتمع حينــذاك ، واستطاع بعضهم أن يوجه سير الأحـــداث السياسية وغير السياسيــة فى الدولة السلجوقية ، وأن يكون تأثيره على السلاطين أنفسهم ، كما بينا ٠

وقــد ظهرت طبقة أبنــاء القبائل السلجوقيــة ، وساعد على ظهورها وفود عدد من القبائل السلجوقية الى ايران وغيرهما من الأقطار الاسلامية ، واضطرار سلاطين السلاجقة ــ أحيانا ــ الى اعطاء أفراد هـــذه القبائل مرتبات كالجنود سواء بسواء ، وكثيرا ما كان أفراد هذه الطبقة مصدر قلق اضطراب فى المجتمــع حين كان الســلاطين ، لايدفعون لهــم مرتباتهم(٤) ، وكان وجود القبائل سببا فى الابقــاء على النظم القبلية ، فظهرت فى بعض مظاهر الحياة المختلفة ٠

---

(١) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ ــ ٢٤ ٠

(٢) سلاطين السلاجقة أميين لا يعرفون القراءة ، والكتابة مثل سنجر كما ذكر نظامى عروضى سمرقندى فى كتــابه چهــار مقاله ، وكان معاصرا له ٠

(٣) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان ، ص ١٣ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

كما كانت طبقة رجال الصوفية من طبقات المجتمع المهمة فى العصر السلجوقى ، وكان لأفراد هذه الطبقة تأثير واضح فى حياة الناس الاجتماعية، فقد انتشر بينهم الميل الى الاعتكاف ، وحب الوحدة ، هربا من حياة القلق والاضطراب التى أوجدها اضطراب الحياة السياسية فى ايران والعراق فى القرن السادس الهجرى ، مما أدى الى انتشار الشك ، واختفاء المثل الأخلاقية الرفيعة ، والشعور بالحاجة الى أصلاح المجتمع ٠

وقد ظهرت فى الثغور فرقة صوفية ، أطلق أفرادها على أنفسهم اسم « الأخية الفتيان » ، وكان هؤلاء الأخية يدعون الى الاصلاح بالقوة اذ الزم الأمر ؛ كالضرب على أيدى الظلمة ، وقتل الشرطة ومن لحق بهم من أهل الشر ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، والوقوف فى وجه الحكام الظالمين ، وكانت تعاليم هذه الفرقة أكثر تمشيا مع سكان الثغور ، فانضوى كثير منهم تحت لوائها(١) ٠

وهكذا أوجدت غلبة العنصر السلجوقى ظواهر اجتماعية وضحت فى ايران والعراق ، وظهرت آثارها فى حياة الناس الاجتماعية فى العصر السلجوقى ، وكان من أبرز هذه الظواهر كثرة عدد الرقيق فى المجتمع السلجوقى ٠

وقد انتشر اتخاذ الرقيق انتشار كبيرا فى العصر السلجوقى ، وكانت سمرقند من أكبر أسواق الرقيق ، كما كانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها(٢) ٠

ولم ينظر الخلفاء العباسيون الى الرقيق نظرة ازدراء ، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الاماء من غير العرب ، حتى انهم كانوا يفضلونهن ــ أحيانا ــ على العربيات الحرائر(٣) ٠

---

(١) ابن بطوطة : رحلته ج١ ، ص ١٨١ ــ ١٨٢ ٠
(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص ٢٦٨ ٠
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص ٤٢٤ ٠

وقـد ظهرت طبقـة الرقيق فى ايران والعراق فى العصـر السلجوقى ظهـورا ملموسا ، لأن كثيرا من هؤلاء الرقيق ، وصلوا الى درجـة الامارة ، وكونوا دولا ، ساهمت فى توجيه سير الأحداث فى العالم الاسـلامى ـ كما ذكرنا ـ ٠

ومن طبقات المجتمع ـ فى ذلك العصر ـ أهـل الذمة ، وهم النصارى واليهود الـذين كانوا يعيشون فى ايران والعراق ويتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى ، ويقيمون شعائرهم الدينيـة فى حرية وأمن ، لمـا عرف به المسلمون من تسامح مستمد من مبـادىء الاسـلام القويمـة ، فلم تتدخـل الحكومة الاسلامية ـ فى وقت من الأوقات ـ فى شعائر أهل الذمة(١)

وقد أصبحت طبقة أهـل الذمة تضم المجوس الى جانب النصـارى واليهود ، بعد أن اعترف المسلمون بهم أهل ذمة ، فعاملوهم معاملة النصارى واليهود ، وقبلوا منه رفع الجزية ، وقد عاش عدد من المجوس فى العراق وجنوبى ايران(٢) فى العصـر السلجوقى وتمتعوا بحياة حرة آمنة فى ظل التسامح الاسلامى ٠

* * *

٢ ـ مظاهر الحيـاة الاجتماعية :

كان أهم مظهر من مظاهر الحيـاة الاجتماعية فى ايران والعراق فى عصـر الدولة السلجوقيـة ، انغمـاس السلاطين وكبار رجـال الدولة فى الترف ، اذ كانوا يعيشون عيشة تتسم بالبذخ والأبهـة ، لأن اتساع الدولة يسر لهم سبل الحياة المترفة الناعمة ٠

وقد شغف السلاجقة بسكنى القصور الفاخرة ، بعـد قيـام دولتهم واستقرارهم وتركهم حيـاة البداوة والتنقل ، وتفننوا فى تجميل قصورهم ، فكانت قصور السلاطين مضرب المثل فى الروعة والجمال .وكانت لهم مجالس للطرب والغناء والشراب ، ولم تقتصر مجالس الغناء والطرب على السلاطين بل قلدهم فيهـا الأمراء والوزراء وكبـار رجال الدولة ، وساعد على انتشار

---

(١) حـ : تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص ٤٢٤ ٠
(٢) المـ من التقاسيم فى معرفة الاقليم ، ص١٢٦ ٠

الغناء وجود عدد كبير من الجوارى المدربات على الغنـاء مما جعـل أكثر السلاطين وعظماء الدولة يولعون بالشراب وسماع المغنيات(١) ٠

كما تأنقوا فى موائدهم ، فأسرفوا فى الطعـام ، وأولعـوا بتنوعه ، وتفننـوا فى اعـداده ، وفى تنوع ألوانه ، وفى تزيين المـوائد بالورود والرياحين ٠

وكانت القصور آية فى روعة البناء ، وحسن التنسيق ، وجمال التأثيث، وبديع التزين ، كما كانت محاطة بالحدائق الغناء ، ذات الأناقة والبهاء ٠

وقد أدى انغماس السلاطين وكبـار رجـال الدولة فى ألوان الحيـاة المتـرفة الى اصابتهم بالأمراض المهلـكة التى قضت على كثير منهم فى سن الشباب ، نتيجة الانكباب على الملذات والشهوات ، وعدم التوسط فى ممارسة ألوان الحياة المختلفة ، كما أمرت بذلك تعاليم الاسـلام التى دعت المسلمين الى أن يكونوا أمة وسطا ، والى أن يأكلوا ويشربوا دون أن يسرفوا ٠

وقد سمح السلاجقـة لشخصيته المرأة بالظهور والمشاركة فى الأحداث بصورة سافرة ، فاشتركن فى اختيـار الوزراء ، وادارة الحروب ، وتدبير المؤامرات ضد الخصوم ، من أشهر النسـاء اللاتى ظهرت شخصياتهن فى العصر السلجوقى ، تركان خاتون زوجة ملكشاه المفضلة ، وزبيـدة خاتون احـدى زوجات ملكشاه وأم ابنه الأكبـر بركيارق ،والخاتون زوجة الأتابك محمد جهان بهلوان ثم زوجة الأتابك قزل أرسلان ، ثم زوجة السلطان طغرل الثالث آخر سلاطين دولة سلاجقة العراق ٠

وكان تعدد الزوجات من الأمور المألوفة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، فكثر الأبناء الأخوه من أمهات مختلفات وكانت صلة الأم بالأب ذات أثر واضح فى التمييز بين الأبناء ، مما كان له تأثير فى صـلات الأبناء بعضهم ببعض وفى توجيه سير الأحداث فى كثير من الأحيان ٠

كما كثر عدد الجوارى ، وصار كثير منهن زوجـات للسلاطين وكبار

---

(١) ارجع الى ماكتبه الراوندى فى راحة الصدور عن الشراب ، ص٤١٦ ـ ٤٢٨ ٠

الدولة ، وأمهات لبعض سلاطين السلاجقة(١) ، كان لهذه الظاهرة أثرها فى المجتمع السلجوقى ، وفى الحياة الاجتماعية فى ايران والعراق فى ذلك العصـر ٠

وكان من أهم مظاهر الحيـاة الاجتماعيـة فى العصر السلجوقى رواج سوق الالعـاب الرياضيـة ، فراجت ممارسة النـاس للرماية ولعب السيف والترس ، وسباق الخيـل والصيد ولعب الـكرة والشطرنج(١) ، كما كان من أهم مظاهرها انتشار مجالسى الشـراب والمنادمة ، حتى أصبحت للمنادمة أصول ، وصارت مهنة لها أرباب محترفون ٠

وهكذا كانت للحياة الاجتماعية مظاهر متميزة فى ظل الدولة السلجوقية، ووضحت هـذه المظاهر فى ايران والعراق فى ذلك العصر بصـورة ملموسة ظهرت آثارها فى ألوان النشاط البشرى الأخرى فى العصر السلجوقى ٠

* * *

خامسا : الحيـــاة الاقتصـــادية

كانت الحيـاة الاقتصـــادية فى ايران والعراق مزدهرة فى العصـر السلجوقى ، فقد نشطت التجارة والصناعة ، ووصل تجار المسلمين الى الصين شرقا ، وكان من أهم طرق التجـارة فى ذلك العصر طريق الحرير العظيم الذى كان يمر بسمرقند وتركستان الصينية وكانت هناك قوافل متعددة لنقل البضائع المختلفـة ٠

كما ازدهرت الصناعات اليدوية كصنـاعة السجـاد والنسيج الموشى والحـرير والمنسوجات الصوفية وغيـرها من أدوات الفرش والأثاث وأوانى المطبخ ، وكانت أنوال فارس والعراق الكثيرة تنتج أنواع السجاجيد الفاخرة التى كانت تعد أفخر أنواع السجاد حينذاك ٠

---

(١) من هؤلاء السلاطين على سبيل المثال السلطان ممحد بن ملكشاه وأخوه السلطان سنجر ٠

(٢) ارجع لمعـرفة المزيد عن الألعـاب الرياضية فى العصـر السلجوقى الى الفصول التى كتبها الراوندى فى كتابه راحـة الصـدور عن المنـادمة ولعب الشطرنج والرماية والصيد ، ص ٤٠٥ ــ ٤٣٧ ٠

وقد اشتهرت خراسان وأرمينية بأغطية الفرش والستائر وأغطية المقاعد والمساند ، واشتهرت بخارى بسجادها الفاخر ٠

كما ازدهرت صياغة الجـواهر ، وكان اللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحمر والزمرد والماس من الأشياء التى يرغب فيها السلاطين والعظماء ٠

وقد ساعد على ترويج هـذه الصناعة غنى الدولة بالمعادن فكان الذهب والفضة يوجدان فى خراسان ، كما كان الرخام والزئبق يوجدان فيها ، وكان الياقوت واللاجورد يستخرجان من اقليم ما وراء النهر(١) ، ووجد الرصاص والفضة فى كرمان(٢) ، ووجـد الفيروز فى نيسابور ، واستخرج اللؤلؤ من البحرين ٠

وازدهرت الزراعة فى خراسـان وسجستـان وما وراء النهر ، وعرفت الصناعات الزراعية بعامة ، وصناعة العطر بخاصة فى اقليم فارس ٠

وهكـذا شهدت ايران والعراق فى العصـر السلجوقى تقدما اقتصاديا كبيرا ، ظهرت آثارة فى حيـاة الناس ، فكان كثير منهم يعيش عيشـة مترفة ناعمـة ٠

* * *

سادسا : الناحيـة الثقـافية

١ ـ مراكز الثقـافة :

اتسع أفق الفكر الاسلامى ـ فى ايران والعراق ـ فى العصر السلجوقى اتساعا كبيرا ، فكانت ملـكات المسلمين فى البحث والتأليف قد بلغت درجة عظيمة من النضج ، نتيجة لحركة الترجمة التى نشطت فى الدولة العباسية قبل قيام الدولة السلجوقية بأكثـر من قرنين من الزمان ، وكثرة تنقل رجال العـلم والأدب فى مشارق العـالم الاسـلامى ومغـاربه فى ذلك الوقت ، فنشطت الحركة الفكرية ، وراجت سوق الثقافة ، وكثر العلماء والأدباء ٠

كما ساعد وجود الفرق الدينية المختلفة ـ على تنشيط الفـكر العلمى ،

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٢ ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٧ ٠
(٢) ابن الفقيه الهمدانى : البلدان ، ص ٢٠٦ ٠

لأن هـذه الفرق اتخذت العـلم وسيلة لترويج تعاليمها ، ومحـاولة الاقناع بصحة هذه التعاليم ، وكان الجدل الذى ثار بين هذه الفرق من وسائل ترويج سوق الثقافة فى ذلك العصـر ، وأوضح دليل على صحة ذلك الآثار العلمية الوفيرة التى خلفها علماء الفرق الدينيـة المختلفة ، برغم ما أحدثته هـذه الفرق من انقسـام بين المسلمين ، واضعاف لقـوتهم ، واضعاف للخـلافة العباسية(١) ٠

وكان طلاب العلم يجوبون البلاد سعيا الى موارد العلم والمعرفة ، مما يسر للدارسين الأخـذ بحظ وافر من العلوم المختلفة من نقلية(٢) وعقلية(٣) ، مما أثمر تقدما علميا ملموسا فى سائر العلوم المعروفة فى ذلك العصر ٠

وتعد المدارس النظامية التى أنشاها الوزيرا السلجوقى المعروف نظام الملك أول نوع من المؤسسـات العلميـة بمعنـاها الصحيح ظهر فى ظـل الاسلام(٤) ، فقد هيأت هذه المدارس لطلابها أسباب العيش والتعليم ، وصارت مثالا لمـا قام بعدها من دور العلم ومراكز الثقافة العالية ٠

وقد شجع السلاجقة بنـاء المدارس النظاميـة ، وتنافسوا فى تكريم العلماء والمتخصصين فى كل علم وفن حتى يذيع صيتهم وتذكر أسماؤهم فى مقدمات الكتب ، وفى قصائد الشعراء وكتابات الكتـاب ، مما زاد الحيـاة الثقافية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى تقدما وازدهارا ٠

وقـد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقة ، ولاسيما أصول الفقة الشافعى ، وكان طلابها يتناولون الطعام فيها ، وتجرى على كثير منهم رواتب شهرية ٠

وكانت المدرسة النظاميـة فى بغداد مدرسة فقه رسمية اعترفت الدولة

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص٣٣١ ٠

(٢) يقصد بالعلوم النقليـة علم التفسير ،وعلم القرارات ، وعلم الحديث والفقة ، وعلم الكلام ، والنحو واللغة والبيان والأدب ٠

(٣) تشمل العـلوم العقلية الفلسفـة والهندسية وعـلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية ٠

(٤) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢٧٦ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ٠

بها ، وقد بدىء فى بنائها فى عام ٤٥٧هـ(٥) (١٠٦٥م) ٠

وكان مدرسوها يعينون من قبـل الخليفة العباسى ، ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالتدريس فيهـا الغزالى(١) ، الذى ذكر فى كتـابه « احياء علوم الدين »(٢) شيئا عن التربية ، فندد بالفكرة التى تقول ان هدف التربية هو ادخال الفكرة الى العقل ، ودعا الى ضرورة تحريك الشعور الأخـلاقى فى طالب العلم ٠

وقد بنى نظـام الملك مدارس دينية على شاكلة مدرسة بغداد فى المدن الكبرى كاصفهان ونيسابور ومرو ، مما أبقى ذكره باعتباره راعيا من رعاة العلم والثقافة ٠

وكان علم الحديث أساس التدريس فى جميع المدارس الدينية العالية التى حفلت بالعديد من العلماء والمتخصصين ٠

٢ ـ دور الكتب وحوانيت الوراقين :

كانت المســاجد فى ايران والعراق فى العصـر السلجوقى ـ دورا للكتب ، فكانت خزائنها غنيـة بالكتب ـ لاسيما الكتب الدينية ـ التى كان النـاس يهبونها لهـا ، أو يقفونها فيها على القراء ، كما كانت هناك خزائن كتب أخرى ، أنشأها الأغنياء والوجهاء(٣) ، وكانت تضم كتبا فى مواضيع مختلفـة كالمنطق والفلسفة والفلك وغيرها ٠ وكانت الدور التى تضم هـذه الخزائن مفتحة الأبواب لطالبى العـلم والمعرفة ، وكثيرا ما صارت منتـدى للعلماء يتداولون فيها البحوث العلمية والمناظرات الأدبية ٠

كما كانت توجـد حوانيت الوراقين ـ الى جانب دور الكتب ـ وكانت هذه الحوانيت دكاكين صغيرة ، تقـام بالقرب من المساجد ، ويجلس فيهـا باعة الكتب الذين كان أكثرهم من الخطاطين أو النساخين أو المتأدبين ٠

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٧هـ ٠
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ٠
(٣) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج١ ، ص ٤٣ ـ ٤٩ ٠
(٤) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٢ ، ص ٤٩٧ ـ ٥١١ ٠

وكان بعض هذه الدكاكين من السعة بحيث تعرض فيها الكتب المختلفة ، ويلتقى فيها هواة الدرس والبحث العلمى والعلماء والمتخصصون ، فكانت بذلك مراكز للبحوث العلمية الراقية ٠

وقد ساعدت دور الكتب وحوانيت الوراقين على رفع مستوى الثقافة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، وايجاد طبقة من المثقفين على درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمى ٠

٣ ـ ازدياد التقدم العلمى :

واصل المسلمون تقدمهم العلمى فى العصر السلجوقى ، فبلغوا درجة عظيمة من التقدم فى كثير من العلوم ؛ كالطب والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية ، وحققت الحضارة الاسلامية رقيا رفيعا ، لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل ، وهو رقى اعترف به الدارسون المنصفون ، من كل جنس ولون ودين ، وكانت حضارة فاضلة تستهدف الخير لجميع البشر ٠

وقد استفاد المسلمون من حضارات الأمم غير العربية عن طريق الترجمة والاقتباس ، فأخذوا خير ما فى حضارات الهنود والفرس والاغريق ، وهضموا ما أخذوه ، ثم استنبطوا منه ، وأضافوا اليه ، وأخرجوا ذلك كله مصبوغا بالصبغة الاسلامية ، حتى يكون العلم ملتزما بمبادىء الدين والخلق القويم ، يعمل على تقوية الايمان بالله خالق الكون ، الذى بيده ملكوت كل شىء ٠

وظهرت مآثر المسلمين فى كثير من العلوم ـ التى مر ذكرها ـ وزخرت ايران والعراق فى العصر السلجوقى بالعديد من العلماء المتخصصين الأفذاذ الذين أشاد بذكرهم الدارسين فى الشرق والغرب(١) ٠

---

(١) هذا موضوع يضيق مجال هذا الكتاب عن استقصاء البحث فيه ، وعن مجرد التعريف ببعض العلماء النابهين فى كل علم من العلوم المذكورة كما أن معرفة الجديد الذى أضافه علماء المسلمين الى كل علم يدركها المتخصصون فى هذا العلم غير أنه من المسلم به بين الدارسين فى الشرق والغرب أن المسلمين أضافوا الى العلم جديدا فى كثير من فروعه ، ويمكن الرجوع الى كتاب : حتى وجرجى وجبور ، تاريخ العرب ، ج٢ ، ص ٤٤٤ ـ ٤٩٤ لمعرفة مزيد من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن المعروف أن مؤلفى هذا الكتاب ليسوا من الدارسين المسلمين ٠

وكان سلاطين السلاجقة ـ كما ذكرنا ـ يشجعون العلماء والأدباء ، والنابهين في كل علم وفن ، على مواصلة الانتاج والابداع ، بما يقدمونه لهم من المكافآت والجوائز السخية ، حتى يشيدوا بذكرهم فى مقدمات كتبهم ، وفى ألوان انتاجهم المختلفة ، مما جعل الانتاج العلمى والفنى غزيرا فى العصر السلجوقى ، وتشهد بهذه الغزارة والكثرة الآثار الباقية عن هذا العصر من كل علم وفن .

وقد شجع السلطان ملكشاه السلجوقى الدراسات الفلكية ، فأقام مرصدا فى مدينة نيسابور فى عام ٤٦٧هـ (١٠٧٤م)(٢) .

وقد اشتغل فى هذا المرصد جماعة من العلماء المتخصصين فى علم الفلك ـ منهم عمر الخيام الشاعر المعروف ـ فى تنظيم التقويم الفارسى واصلاحه ، وأثمر عملهم التقويم المعروف باسم « التوقيم الجلالى » نسبة الى السلطان المذكور جلال الدين ملكشاه ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

وكثرت المؤلفات فى العلوم المختلفة باللغتين العربية والفارسية اللتين كان يتقنهما المشتغلون بالعلوم والآداب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، وكان اصطلاح « أصحاب اللسانين » رائجا فى هذا العصر ، وكأن المقصود به من يتقنون اللغتين العربية والفارسية ، ويستطيعون بهما دراسة العلوم والفنون المختلفة ، والتخصص فيها ، بعد أن بلغت درجة رفيعة من التقدم والرقى .

وكان العلماء والكتاب والشعراء يحرصون فى انتاجهم على اظهار ثقافتهم الواسعة والمامهم بأطراف من مختلف العلوم والفنون الرائجة فى عصرهم لاثبات نبوغهم وتفوقهم ، فصارت هذه الظاهرة واضحة فى العصر السلجوقى(١) .

والحقيقة التى لاشك فيها أن العلم ازداد تقدما ورقيا فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى الذى كان من أزهى عصور الحضارة الاسلامية .

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٧هـ .
(٢) نظامى الگنجوى للمؤلف ، ص ١١٤ ـ ١٢٣ .

سابعا : الناحية الفنيـــة

ارتقت الفنون فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ارتقاء ملحوظا ، فازدهرت فنون النقش والتصوير والصنعة والمعمـــار ، لأن السلاجقة كانوا يعشقون الفونن الجميلة ويرعونها(٢) ، ويشجعون المشتغلين بها ، ويجزلون لهم العطاء ، مما ساعد على تقـدم الفنون الجميلة وكثـرة المهرة المتفوقين فيها ، وكان هذا الأمر ظاهرة ملحوظة فى مختلف الفنون ٠

١ ـ فنون النقش والتصوير والمعمار :

شغف السلاجقة بالمبانى الفخمة والنقوش الجميلة واللوحات المزخرفة ، وكان لبداوتهم أثر فى هــذا ، فقد كانت المظاهر الخلابة تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم ، وتسـد ما فى نفوسهم من فراغ ثقافى وحضارى ، فكان سلاطين السـلاجقة أنفسهم ، يجمعـون جولهم المهرة فى الفنـون المختلـفة ويشجعونهم(١) ، ليبدعوا فى انتاجهم الفنى ، ولهذا بقيت روائع الفن منـذ عصـر السلاجقـة ، حتى ان كثيـرا من الدارسين المتخصصين فى الفنون يعتقدون أن الفن الاسلامى قد وصل الى أرقى درجاته فى عصرهم ، ويقررون أن الآثار الباقيـــة عن العصـــر السلجوقى ، قليلة النظير فى تاريخ الفن الايرانى(٢) بخاصة ، وفى تاريخ الفن الاسلامى بعامة ٠

وقـد ظهرت خصائص الفن الفارسى فى الفن الاسـلامى فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، لأنه كان فنا راقيـا ، فقلده المشتغلون بالفنـون من غير الفرس ، وساعدت فتوحات السلاجقة ـ فى أوقات قوتهم ـ على نقـل خصـائص الفن الفارسى الى سواحـل البحـر الأبيض المتوسط وشـمالى افريقية ، فشوهدت سمات من الفنون الفارسية ـ فى العصر السلجوقى ـ فى الآثار المصرية والسورية بعد هذا العصر ببضعة قرون ، كما بقى الفن الفارسى حيا راقيا مقرونا بالعشق والابتكار فى داخل ايران وخارجها(٣)

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع ايران ، ص ١٤٢ ٠
(٢)
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ ٠
(٤) ″ تى ويلسون : تاريخ صنايع ايران ، ص ١٤٢ ٠

فى ظل الخلافة العباسية فى عصر السلاجقة ، وبعد سقوط دولتهم ، وفى العصور التالية لهم حتى بعد سقوط الخلافة العباسية ٠

وكان الفرس منذ أقدم العصور أساتذة فى فن الزخرفة والتلوين ، وقد ارتقى هذا الفن فى العصر السلجوقى ، كما ارتقى فن زخرفة السجاد واتخذت مشاهد الصيد والحدائق لرسمها على السجاد ، واستعمل حجر الشعب لتثبيت الالوان(٤) ٠

وقد ازدهرت فن الخط ازدهارا بديعا ، وهو فن اسلامى خالص ، كان أهم أهدافه أن يحفظ القرآن الكريم ، كلام الله الحكيم ، فى صحف جميلة أنيقة ، يتكون منها المصحف الذى توزع نسخة على الأمصار الاسلامية المختلفة ٠

وكان للخط مكانة سامية ، استمدت من كونه وسيلة لتسجيل آيات القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولهذا كانت للخطاطين مكانة وكرامة ، وكان السلاطين وحكام الاقاليم والأمراء وكبار رجال الدولة فى العصر السلجوقى يتسابقون الى كتابة القرآن بخط جميل وزخرفة بديعة ، فيختارون المهرة من الخطاطين للقيام بهذه المهمة المباركة ٠

كما ارتقت الفنون المتصلة بكتابة المصحف مثل فن الزخرفة بالألوان وفن تزيين الكتب وفن التذهيب ، وفن التجليد حتى وصل فن تزيين الكتب وفن زخرفتها وفن تذهيبها الى أرقى الدرجات فى العصر السلجوقى ٠٠

وقد تعددت أنواع الخطوط فى هذا العصر حتى بلغ سبعين نوعا كما ذكر الراوندى فى كتابه راحة الصدور الذى ألفه فى أواخر العصر السلجوقى فى ايران والعراق حين كان يعمل مؤرخا لدولة السلاجقة فى العراق ، فقد ذكر أنه تعلم سبعين نوعا من الخط ، وأتقن فن تذهيب المصاحف وتجليدها ، وكان يكسب قوته من هذا العمل المبارك ، وكان كسبه وفيرا مكنه من شراء الكتب والتثقيف حتى صار مؤرخا معروفا ، فاستطاع الالتحاق بخدمة السلطان طغرل الثالث آخر سلاطين سلاجقة العراق(١) ، وصار مؤرخا

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج٢ ، ص ٥٠٩ ٠
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٤٠ ــ ٤٤ ٠

للدولة ، مما يدل على رقى فن الخط وازدهاره وأهميته فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ٠

وقد تأثر الفن الاسلامى فى الدولة العباسية بالفن الفارسى تأثرا عظيما ملموسا ، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم على الطريقة الفارسية ، وكانت طبقاتها مغطاة بستور الديباج ، مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى(١) ٠

وكان بلوغ الفنون الجميلة أعلى درجات رقيها فى العصر السلجوقى من أهم خصائص الحضارة الاسلامية الى جانب رقى العلوم ، وازدياد التقدم فى جوانب الحضارة المختلفة فى ايران والعراق فى هذا العصر ٠

٢ ـ فن الأدب :

ارتقى فن الأدب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، كما ارتقى غيره من الفنون ، نتيجة للتقدم الثقافى والحضارى ، وتشجيع السلاطين والحكام وكبار رجال الدولة للمشتغلين بالعلوم والفنون المختلفة ومنها فن الأدب ٠

وكانت اللغتان العربية والفارسية أداتى التعبير فى الأدب ، والتاليف فى ميدان العلوم المختلفة ـ كما ذكرنا ـ أما اللغة العربية فهى لغة الاسلام التى نزل بها القرآن الكريم ، وقيلت بها الأحاديث النبوية الشريفة ، وهى اللغة التى يحرص المسلمون من كل لون وجنس على تعلمها ، ليتعلموا بها أمور دينهم ، وليدرسوا بها العلوم المختلفة ، مما جعلها لغة رائجة مألوفة فى أنحاء العالم الاسلامى المختلفة ، وجعل الأدب العربى أدبا متداولا ، يساهم فى انتاجه العرب وغيرهم من أبناء الدول التى أشرقت عليها شمس الاسلام ، واستظلت برايته ، وكان فن الأدب العربى قد بلغ أوج رقية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين اللذين كان السلاجقة فى أثنائهما يسيطرون على ايران والعراق ، وهو أدب معروف مدروس ، فلا داعى للتعريف

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص ٤٠٥ ٠

بخصائص الفن الأدبى العربى ، لأن مجال هذا الكتاب يضيق عن مثل هذا التعريف ٠

وأما اللغة الفارسية فكانت أولى اللغتا الاسلامية غير العربية ظهورا بعد شروق شمس الاسلام ، وقد ظهرت فى ظل العربية ، ولبست ثوبا عربيا ، فكتبت بالحروف العربيــة ، ودخل فى تركيبها كثير من العناصر العربيــة ، وبدأ استعمالها ـ فى صورتها الجديدة ـ فى ميدان الأدب الفارسى الاسلامى فى القــرن الثالث الهجرى ، فكانت فى العصر السجلوقى قــد بلغت درجة النضج والكمال ، وكان فن الأدب الفارسى قد أرتقى رقيا كبيرا ٠

كما نشــرت فتوحات السلاجقة اللغــة الفارسية فى آسيا الصغرى ، فأصبحت الفارسية لغــة معروفة فى منطقة واسعة تمتد من الهند شرقا الى البحر الأبيض المتوسط غربا ، وظهرت آثارها فى بلاد الأرمن وفى جورجيا (١) ، فتأثر الأدب فيهما بالأدب الفارسى ، وظهرت مفردات اللغة الفارسية فى اللغة المستعملة فى كل من هذين الاقليمين ٠

وكان كثيــر من سلاطين السلاجقة لا يعرفون اللغة الفارسيــة ، لأنها ليست لغتهم الأصلية ، فكانوا الا يستطيعون فهم الأدب وتذوقه ، كمــا أن بعضهم لم يكن ذا حظ وافر من الثقافة(٢) لصغر سنهم ، فكانوا لا يستطيعون نقد الأدب ، ومعرفة الجيد منه ، غير أنهم كانوا يشجعون الأدباء من كتــاب وشعراء ويجزلون لهم العطــاء ليكثروا من مدحهم والثنــاء عليهم ، فيبقى ذكرهم على مر السنين ، وحــذا حكام الأقاليم ، وكبــار رجــال الدولة فى العصر السلجوقى ـ حذو السلاطين ، فى تشجيع الأدباء ، فكانوا يعطونهم بسخاء ، فراجت سوق الأدب رواجا كبيــرا فى ايران والعراق فى هـــذا العصــر ، وتفنن الشــعراء والكتــاب فى صناعة الأدب ، فوصل فن الأدب الفارسى الى درجة رفيعة من الرقى والتقــدم وكثر عدد الشعراء والكتــاب النابهين الذين ذاعت شهرتهم فى أرجــاء العــالم الاســلامى كله فى ذلك الوقت ٠

---

(١) برتلس : نظامى ، ص ١٦ ـ ١٧ ٠
(٢) بهار : سبك شناسى ، ج٢ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ ٠

كما ظهر لون جديد من ألوان الأدب الفارسى هو أدب المدينة وهو لون أنتجته ظاهرة معينة ، هى وضوح أهمية بعض المدن فى العصر السلجوقى الى درجة جعلت المدينة بيئة مستقلة ، لها خصائصها ومقوماتها ومميزاتها الخاصة ، وهى ظاهرة تنبه دارسو الأدب لها منذ قرون عديدة ، فقسم بعضهم الآداب بحسب المدن(٣) ٠

وقد اجتهد حكام المدن فى جمع الشعراء والكتاب حولهم حتى يظفروا بمدحهم ، والاشادة بفضائلهم ، فكثر عدد الشعراء والكتاب المجيدين فى المدن ، غير أن الأدب الفارسى الذى أنتج فى المدن ، كان شبيها بالادب الذى يقال فى بلاط السلاطين فى أسلوبه ، وصياغته الفنية ، وان كانت آثار المدينة وما فيها من عادات وتقاليد قد ظهرت فى الأدب الذى أنتج فيها(١) ، وكانت هذه الآثار واضحة ـ أحيانا ـ الى درجة تمكن الدارس من التعرف على انتاج المدينة بسهولة ويسر ٠

وظلت الآداب السلطانية ـ فى العصر السلجوقى ـ تغذى الأدب الفارسى بأكبر قدر من انتاجه ، برغم ما كان يتعرض له شعراء البلاط وكتابه من دسائس المنافسين الحاقدين ، فكانت حياة الشعراء والكتاب فى البلاد لا تخلو من المتاعب ، لأن جو البلاط كان يساعد على انتشار خلق الأنانية والوصولية بين كثير من الشعراء الكتاب رغبة فى الظفر بالقرب من السلطان، وكانت الغاية عند هؤلاء تبرر الوسيلة التى يمكنهم الوصول بها ، مما جعل التلاميذ يهجون أساتذتهم ، ويشون بهم فى سبيل الظفر برضا رجال البلاد ، وشق طريق فيه لأنفسهم حتى يحظوا بالقرب من السلطان ، والظفر بعطاياه وهباته ٠

وقد اعترف كثير من الشعراء والكتاب بما فى حياة البلاط من النفاق والكذب ، وبأن أدب البلاط مملوء بالمبالغة والتهويل(٢) والبعد عن الحقيقة

---

(١) قسم محمد عوفى فى كتابه لباب الألباب ولطفعلى بك فى آتشكده الشعراء بحسب المدن ٠

(٢) نظامى الگنجوى للمؤلف ، ص ٨٣ ٠

(٣) ارجع الى أمين رازى : هفت اقليم ، ص ٥١٠ ، ٥١٧أ ، ٥٢١أ ٠

والواقع ، غير أن هـذا الاعتراف لا يقلل من أهمية أدب البـلاط من الناحية الفنية ، لان اقبـال الأدباء على مدح السلاطين قـد أثرى الأدب الفـارسى بما أنتجه هؤلاء الأدباء ، كما ساعد على رقى الفن الأدبى وتقـدمه ، لأن شعراء البلاط برعوا فى فن القصيدة ، وقد بلغ هذ الفن قمة رقيه فى عصر السلاجقة ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال الانورى شاعر السلطان سنجر ، فقد كان من خير البارعين فى هذا الفن(٣) ·

كما ارتقى فن القصة المنظومة بالفارسية فى العصر السلجوقى وبلغ درجة رفيعة من الجودة والاتقـان ،ويكفى أن نذكر من شعراء هـ ذا الفن فى ذلك العصر نظامى الگنجوى لأنه كان يحسن اختيـار موضوع القصة ، ويجيد تصوير مناظرها ، ويجعل هذه المناظر متنوعة فيهـا جدة وطرافة وابتكار بطريقة مشوقة ، تجذب أهتمام المتتبع للقصـة ، وتغريه بتتبعهـا ، والاشتراك فى التفكير فى حل مشكلتها ؛ كما كان يتخذ القصة ميدانا للدعوة الى الاصـلاح الخلقى ، بتطهير النفس من النقائص ، وترك الظلم ، والتخلق بالفضائل ، والتطلع الى المثل العليا(١) ·

وقد تطور فن الكتابة فى العصر السلجوقى ، وأصبحت « المقـامة » من فنون النثر الفارسى ، وكان من أشهر كتاب المقامات بالفارسية فى هذا العصر القاضى حميد الدين عمر بن محمود البلخى المتوفى سنة ٥٥٩هـ(٢) (١٠٦٤م) ·

وهكذا ارتقى فن الادب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى وتقدم تقدما ملموسا ، وامتاز بما امتازت به سائر الفنون فى هذا العصـر من ميل الى التـأنق والتفنن ، فكان الأدباء من كتـاب وشـعراء ، لايكتفون بصب أفكارهم فى قوالب جميلة من الألفـاظ ، بل يحاولون أن يرسموا على هذه القوالب من النقوش والزخارف ما يجعل منظرها رائعا جميلا ، فامتلأ الادب بالمحسنات اللفظية والتشبيهات والاستعارات والكنايات وغيرها من الفنون

---

(١) نظامى الگنجوى للمؤلف ، ص ٦٢ ـ ٦٣ ·
(٢) ارجع الى كتاب نظامى الگنجوى للمؤلف ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨١ ·
(٣) بهار : سبك شناسى ، ج٢ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٤٤ ·

البلاغية ، وصار القول فنا جميلا كغيره من الفنون الجميلة الأخرى التى عرفنا بها ٠

وراقت هذه الفنون فى أعين الناس ، واستحسنتها أذواقهم ، فأكثر الشعراء والكتاب منها فى انتاجهم الأدبى ، ولا أجد ضرورة لذكر أمثلة شعرية ونثرية بالفارسية لأن مجال الكتاب لا يتسع لها ، ولأن الغرض هنا التعريف بفن الأدب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، لاتخاذ هذا التعريف وسيلة لفهم طابع هذا العصر من الناحية الفنية(٣) ٠

وهكذا كانت ايران والعراق تشهد ان ازدهارا ورواجا للفنون بمختلف ألوانها فى العصر السلجوقى ، وقد ساعد الحكم السلجوقى على اختلاط العراقيين بالايرانيين وحدوث امتزاج حضارى بين الشعبين أدى الى تبادل كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية بين الطرفين نتيجة لما تم بينهما من تزواج ، فاختلطت الدماء ، كما اختلطت العادات والتقاليد فى ظل الاسلام ، وساهم الطرفان فى بناء صرح الحضارة الاسلامية الراقية ٠

---

(١) ارجع الى كتاب المؤلف نظامى الگنجوى لمعرفة معلومات أكثر عن هذا الموضوع ٠

الخاتمة

لعلنا لاحظنا بعد استعراض الأحداث المختلفة التى شهدتها ايران والعراق فى العصر السلجوقى أن السلاجقة تمكنوا من توحيد ايران والعراق تحت ادارة واحدة ما يقرب من قرن من الزمان حين كانت الصلات قوية بين السلاجقة والخلافة العباسية ، فكان السلاجقة يعدون جنود الخلافة المخلصين ٠

وقد استطاع السلاجقة بعد أقل من نصف قرن من اقامة دولتهم أن يبسطوا سيطرتهم على ايران وبلاد ما وراء النهر والعراق وأجزاء كبيرة من الشام وآسيا الصغرى بعد أن أنزلوا هزيمة ساحقة بالروم فى موقعة ملازگرد الشهيرة فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، فصاروا أقوى دولة فى العالم فى ذلك الوقت ٠

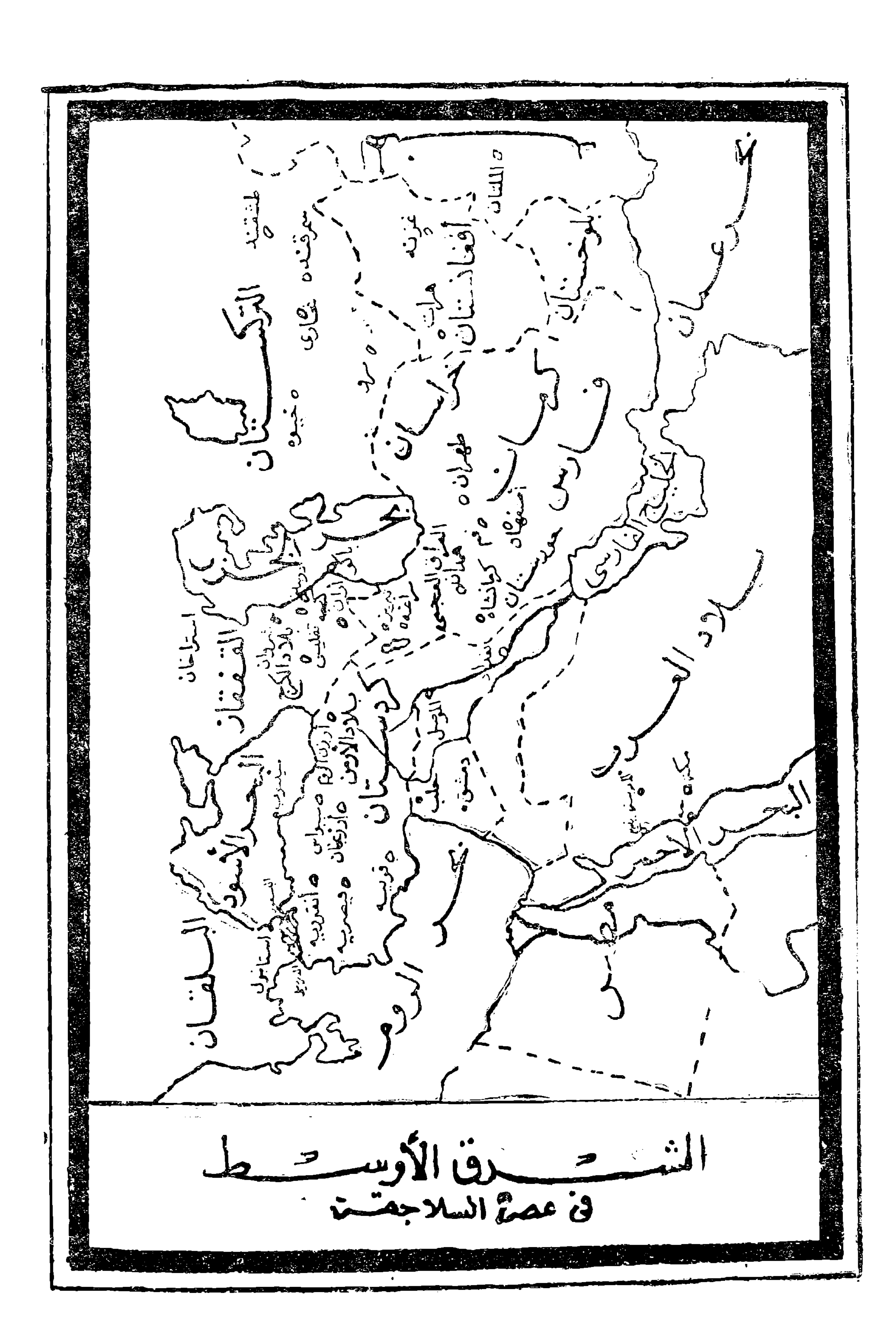
وكان السلاجقة أتراكا مسلمين ، متمكسين بالمذهب السنى ، معادين لما سواه ، كما كانوا فى الأصل قبائل بدوية ذات حظ قليل من الثقافة والحضارة ، فغلبت هذه الصفات عليهم بعد قيام دولتهم ، فكان أقوى أفراد البيت السلجوقى هو الذى يتولى السلطة ، ولم يكن هناك نظام معين للحكم ، فالكل يحب الرئاسة لو استطاع اليها سبيلا ويسعى للوصول اليها بكل وسيلة ممكنة ، مما أدى الى تنافس شديد بين أفراد البيت السلجوقى على الامساك بزمام الأمور فى الدولة ،واشتعال نيران الحروب الداخلية بينهم ، ثم الى انقسام الدولة وضعفها وسقوطها فى النهاية ٠٠

كما كان لبداوة السلاجقة وقلة حظهم من الثقافة والحضارة أثر فى ألوان الحضارة المختلفة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، سواء فى نظم الحكم أو فى الجوانب الادارية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية ٠

وكان أهم أثر لبداوة السلاجقة بعد قيام دولتهم اهتمامهم الشديد بالمظاهر الخلابة ، مما أدى الى ازدهار الفنون الجميلة فازدهر فن البناء وفن النقش وفى التصوير وفى الخط وفن التذهيب وسائر الفنون الجميلة الأخرى ، بما فيها الفن الأدبى فى العربية والفارسية اللتين كانتا اللغتين اللتين يعرفهما الدارسون فى ايران والعراق ويتلقون بهما العلوم المختلفة ، ويؤلف المتخصصون بهما الكتب المختلفة فى سائر ألوان العلم والمعرفة ٠

وهكذا كان العصر السلجوقى من العصور المميزة فى ايران والعراق فى ظل الاسلام ، مما يجعله جديرا بالدراسة التى تبرز خصائصه ، ولعلنا بهذه الدراسة الموجزة قد أظهرنا أهم هذه الخصائص ؟

والله الموفق للصواب ، والحمد لله رب العالمين ٠



الشرق الأوسط
في عصر السلاجقة

ثبت بأسماء المراجع (١)

أولا : المراجع العربيــة

ابن الأثير : على بن أحمد أبى الكرم ٠

١ ــ الـكامل فى التــاريخ ، ج١٠ و ١١ و ١٢ طبع نورنبرج ١٨٥١م أو ج٨ و ٩ طبع القاهرة ٠

البندارى : الفتح بن على بن محمد البندارى الاصفهانى ٠

٢ ــ مختصر تواريخ آل سلجوق ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ١٨٨٩م

البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد ٠

٣ ــ الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبع ليبزيج ١٨٧٨ و ١٨٧٩م ٠

الحافظ الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى ٠٠

٤ ــ تاريخ الاسلام الذهبى ، طبع حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧هـ ٠

حتى وجرجى وجبور : فيليب حتى وادوارد جرجى وجبرائيل جبور ٠

٥ ــ تاريخ العرب ، ج٢ ، طبع بيروت ١٩٥٠م و ج٣ طبــع بيروت ١٩٥١م ٠

حسن ابراهيم حسن : دكتور ٠

٦ ــ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقــافى والاجتماعى ، ج٣ الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٥م ٠

الحسينى : صدر الدين أبو الحسن على السيد الامام الشهيد أبو الفوارس ناصر بن على الحسينى ٠

---

(١) المراجع المذكورة فى هذا الثبت هى أهم المراجع اللازمة لدراسة العصر السلجوقى فى ايران والعراق ،وقد ورده ذكرها هى وغيرها فى ثنايا هذا الكتاب ، وهى جميعــا منشورة يستطيع الدارس الرجــوع اليهــا بسهولة ٠

٧ ـ أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال ، طبع لاهور ١٩٣٣م ٠

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ٠

٨ ـ مقدمة ابن خلدون ، طبع بيروت ١٨٨٦م ٠

٩ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، طبع القاهرة ، ١٢٨٤هـ ٠

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشامى ٠

١٠ ـ وفيات الأعيان ، طبع بولاق ، ١٢٨٣هـ ٠

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ٠

١١ ـ الملل والنحل ، ٥ أجزاء ، طبع القاهرة ، ١٣١٧هـ ٠

عبد النعيم محمد حسنين : دكتور ٠

١٢ ـ نظامى الگنجوى ، شاعر الفضيلة الايرانى ، طبع القاهرة ، ١٩٥٤م ٠

ابن العبرى : غر يغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المعروف بابن العبرى ٠

١٣ ـ تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ١٨٩٠م ٠

ابن العماد : أبو الفلاح بن العماد الحنبلى ٠

١٤ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٤ و ٥ طبع مصر ، ١٣٥٠هـ ٠

الغزالى : الامام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ٠

١٥ ـ احياء علوم الدين ، طبع القاهرة ، ١٣٣٤هـ ٠

١٦ ـ تهافت الفلاسفة ، طبع بمباى ، ١٣٠٤هـ ٠

أبو الفداء : الملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماة ٠

١٧ ـ تاريخه المسمى المختصر فى أخبار البشر ، طبع استانبول ، ١٢٨٦هـ ٠

القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ٠

١٨ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، نشــر وستنفلد ، طبع جوتنجن ، ١٩٤٨م ٠

القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشــرف يوسف القفطى ٠

١٩ ـ اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبع مصر ، ١٣٢٦هـ ٠

ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة ٠

٢٠ ـ ذيل تاريخ دمشق ، طبع بيروت ، ١٩٠٨م ٠

ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى ٠

٢١ ـ تاريخه ، ج٢ ، طبع مصر ٠

ثانيا : المراجع الفارسية

أفضل الدين الكرمانى : أبو حامد أحمد بن حامد الكرمانى ٠

٢٢ ـ عقد العلا للموقف الأعلى ، نشـر على محمـد نائينى ، طبع طهران ، ١٣١١ هجرية شمسية(١) ٠

٢٣ ـ تاريخ أفضل يابدايع الزمان فى وقايع كرمان ، جمـع ونشر مهدى بيانى ، طبع طهران ، ١٣٢٦ هـ٠ش٠

أمير خواند البلخى : محمد بن خاوند شاه بن محمود ٠

٢٤ ـ روضة الصفا ، الجزء الرابع ، طبع طهران ، ١٢٧٠هـ ٠

أمين رازى :

٢٥ ـ هفت اقليم ، طبع كلكته ، ١٩٣٩م ٠

بهار : محمد تقى بهار ملك الشعراء ٠

٢٦ ـ سبك شناسى ، ج٢ ، طبع طهران ، ١٣٢١ هـ٠ق٠

ابن البيبى : يحيى بن محمد المعروف بابن البيبى ٠

٢٧ ـ مختصر سلجوقنامه ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٩٠٢م ٠

البيهقى : أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب البيهقى ٠

٢٨ ـ تاريخ مسعودى المعروف بتاريخ البيهقى ، نشر سعيد نفيسى ج١ ، طبـع طهران ١٣١٩ هـ٠ش٠ و ج٢ طبع طهران ١٣١٦ هـ٠ش٠

وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغـة العربية ، ترجمة الأستاذان الدكتور يحيى الخشاب ، وصادق نشأت وطبعت الترجمة فى القاهرة ٠

---

(١) التقويم الهجرى الشمسى هو التقويم المستعمل فى ايران ، وتبدأ السنة الهجرية الشمسية فى ٢١ مارس غالبا وعدد أيام كعـدد أيام السنة الشمسيـة أى ٣٦٥ يوم اذا كانت السنـة بسيطة و ٣٦٦ يوم اذ كانت كبيسة فبينها وبين السنة الهجرية أحد عشـر يوما وربع يوم ولذلك فان السنة الهجرية الشمسية تقـل الآن عن السنـة الهجرية بأكثر من أربعين عاما ٠

حمد الله المستوفى قراوينى : حمد الله بن أبى بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزوينى ٠

٢٩ ـ تاريخ گزيدة ، ج١ ، نشر براون ، طبع بمباى ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م

خواند أمير : غياث الدين بن همام الدين ٠

٣٠ ـ حبيب السير فى معرفة أخبار أفراد البشر ، طبع بمباى ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٨م ٠

الراوندى : محمد بن على بن سليمان الراوندى ٠

٣١ ـ راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، طبع ليدن ، ١٩٢١م ٠

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية ، ترجمة الأساتذة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى والدكتور عبد النعيم محمد حسنين والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد ونشرت الترجمة فى القاهرة ، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م ٠

عوفى : محمد عوفى ٠

٣٢ ـ لباب الألباب ، ج٢ ، نشر براون ، طبع ليدن ، ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م ٠

قاسم غنى : دكتور ٠

٣٣ ـ تاريخ تصوف در اسلام ، طبع طهران ، ١٣٦٢هـ/١٣٢٢ هـ٠ش٠

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بواسطة الأستاذ صادق نشأت وطبعت الترجمة فى القاهرة ٠

كريستى ويلسن :

٣٤ ـ تاريخ صنايع ايران ، ترجمة عبد الله فريار الفارسية ، طبع طهران ، ١٩٣٨م/١٣١٧ هـ٠ش٠

گرديزى : أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود الگرديزى ٠

٣٥ ـ زين الأخبار ، طبع برلين ٠

مؤلف مجهول يبدو أنه كان يعيش فى القرن السادس الهجرى ٠

٣٦ ــ مجمل القصص والتاريخ ، نشر بهار ، طبع طهران ، ١٣١٨ هـ٠ش٠

محمد بن ابراهيم :

٣٧ ــ تاريخ سلجوقيان كرمان ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٨٨٦م ٠

ثالثا : المراجع الانجليزيه

Browne : Edward G.

38 — Aliterary History of Persia (From the Earliest Times until Firdawsi) London, 1909.

Dimand : M. S.

39 — A Handbook of Mohammadan Art, New York, 1947.

Lane - Poole.

40 — Mohammadan Dynasties, London, 1894, Paris, 1925.

Sykes : Sir Percy.

41 — A History of Persia, Vol. II, London, 1930.

فهـــرس

رقم الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

رقم الصفحة

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

انهيار دولة سلاجقة العراق

الفصل الحادى عشر

ألوان الحضارة فى العصر السلجوقى

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٨٢/٢١٣٢م

الترقيم الدولى
٩٧٧ ـ ٧٣٢٢ ـ ٧٠ ـ ٤

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقى ـ الفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة